السلطان

الناصر

صلاح الدين الأيوبى

قاهر الصليبيين وبطل موقعة حطين

تأليف

أ. د. حمزة النشرتى

الشيخ عبد الحفيظ [illegible]ي   أ. د. عبد الحميد مصطفي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾

[العنكبوت : ٦٩]

سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله؟

فقال: « **الجهاد فى سبيل الله ...أخرجه البخارى فى كتاب الأدب** »

وقال : « **رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** »

أخرجه الترمذى فى كتاب الإيمان .

إذا طوى الله ديوان العباد فما

يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

الشاعر حسن الجوينى



الإهداء :

إلى أمة الإسلام

الناصر

صلاح الدين الأيوبى

قاهر الصليبيين وبطل موقعة حطين

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ـ الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعد ..

ففى هذه الأيام العصيبة التى تمر بالمسلمين . حيث تتناوشهم السهام من كل جانب، وتحيط بهم الآلام والنوائب . وتتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، وهم ليسوا قِلة، ولكنهم كثرة كغثاء السيل ـ كما جاء فى الحديث الشريف..

فى هذه الأيام التى تراق فيها دماء المسلمين أنهارا بغير حساب . على يد أعدائهم تارة ، وعلى يد أنفسهم تارة أخرى ، حيث يغرى العدو بعضهم ببعض و يضع فى أيديهم السلاح الذى يقتلون به أنفسهم ، ويضاعفون بذلك المرارة التى تشتعل فى الصدور والقلوب ، ويظهر أثرها فيما يتجرعون من غصص الآلام والأحزان وما تحفل به أيامهم الحزينة من مسلسل الاعتداءات والانتهاكات .

فى هذه الأيام التى نجح فيها العدو التقليدى للإسلام أن يفرق بين المسلمين ، فإذا برفيق السلاح يصبح خصما لدودا ، وبإخوة الجهاد يتحولون فيما بينهم إلى أعداء متحاربين متنابذين .

فى هذه الأيام التى كَشّرت فيه الصليبية الحديثة عن أنيابها ، لتعيد تاريخها الأسود المشبوه ، وظهرت فيه الدول الغربية والشرقية غير الإسلامية على حقيقتها ، لا عدو لها إلا الإسلام . ولا هدف لها إلا القضاء عليه ..

والمسلمون غافلون عما يحاك لهم من دسائس ، وما يبيت لهم من شر ، وقد تفرقوا دولا وأحزابا ومذاهب وشراذم، وانشغلوا عن معالى الأمور بسفاسفها وعن معانى الدين بمظاهره ، تركوا التفكير فى أمر العدو الشرس الذى يتربص بهم الدوائر ، ويتحين لهم الفرص . ويكيد لهم بما أوتى من قوة وخبث ومكر ودهاء ..

تركوا التفكر فى ذلك إلى العناية بما تفتقت عنه عبقرية الخبث والمكر والفتنة من



أمور مادية مظهرية تغرى بالشر و الفساد والانحلال ، ولا تغنى فى سبيل رفعة الإسلام والمسلمين شيئا . فى خلال هذه الأيام وقد وصل العدوان الشرس الذى تمده أوروبا وأمريكا وروسيا وإسرائيل بكل مايريد من آلات الفتك والدمار ليقضى على شعب مسلم مسالم أعزل، هو شعب البوسنة والهرسك ، وتحرمه فى الوقت نفسه من حق الدفاع عن نفسه ..

والدول الإسلامية من حول هؤلاء الأبطال الصامدين الذين يحاربون بأظافرهم ويأبون الركوع أمام جبابرة العنف وشياطين القهر والظلم تقف موقف المتفرج وكأن الأمر لا يعنيها .. ونسوا أو تناسوا أن الدائرة يمكن أن تدور عليهم ، وماحل بهذا الشعب المسكين سوف يحل بغيره من هذه الشعوب المسلمة التى لم تحرك ساكنا ، ولم تمد يد العون والنجدة للدولة الذبيح .

فى هذه الأيام التى جثمت فيها إسرائيل على مدينة القدس الخالدة ، وتحلم بأن تجعل منها عاصمة لدولتها الآثمة ، فارضة بذلك سياسة الأمر الواقع ، يساندها فى ذلك المتعصبون من الغرب الصليبى والشيوعية التى لا يهمها أى دين ، والإلحاد الذى يحارب كل ملة وينبذ كل فضيلة . .

وقد حشدت فى ترسانتها النووية كل آلات الفتك والدمار ، ورصدت لسياستها كل عباقرة المكر والكيد والغدر .

فى هذه الظروف الصعبة الدامية يجب علينا أن نتذكر ، ونتدبر ، ونلتفت إلى تاريخنا المضئ لنأخذ منه درسا لحاضرناالمؤلم ..

نتلفت لنستحضر فى أذهاننا صور الأبطال المجاهدين القدامي ، الذين تنبهوا للخطر ووقفوا فى مواجهة المتعصبين من تلك الدول الغربية الطامعة فى خير الشرق ، ورزق الشرق ، وسحر الشرق ، وجمال الشرق .. والتاريخ حافل بهؤلاء الأبطال الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم ، وجادوا بأنفسهم دفاعا عن الشرق وأمة الإسلام وحمى الأوطان .. من أمثال نور الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ، وغيرهم ممن وقفوا جهودهم على القضاء على هؤلاء الأعداء ومؤامراتهم الخبيثة وأطماعهم الاستعمارية ، وقد تستروا بالصليب ظلما وعدوانا لتحقيقها . واستطاعوا ان يقضوا على مأربهم ، وينتزعوا

الأراضى التى استولوا عليها واحتلوها ، ليعيدوها إلى حمى أمتهم العريقة الخالدة كما كانت .

إننا نتوجه إلي قادة الدول الإسلامية أن يعملوا علي إعادة وحدتهم وقوتهم ليردوا للأمة الإسلامية اعتبارها ، ويعيدوا إليها وحدتها وقوتها وروحها ومقوماتها . ويلقنوا هؤلاء المعتدين الآثمين الذين يحيطون بنا درسا فى تفهم روح الإنسانية التى جاءت الأديان كلها لتقيم صرحها ، وتعلم الناس مبادئها ، ولتقول فى صراحة : إن الدين لم يشرعه الله فى ظل أى رسول إلا ليحارب الشر والأذي ويقضى على البغى والجور والظلم ، ويقلم أظفار الفساد والضلال .

لقد أردنا بهذا الكتاب أن نعيد صورة صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين فى موقعة حطين .. ليعرف الناس من هو صلاح الدين البطل الفارس المسلم صاحب المبادي والمثل العليا التى تعلمها من دينه . وهو البطل الذى عرف الإسلام على حقيقته ، وأدرك أن الإسلام عزة وكرامة ونجدة ومروءة وإنسانية وتعاون وسماحة . لقد مد إلى أعدائه يده وعاملهم بمنتهى الإنسانية والرحمة ، لم يبطش بهم كما بطشوا ، ولم يعنف عليهم . حين واتته الفرصة كما عنفوا ، ولم ينكل بهم كما نكلوا بالمسلمين حتى أجروا من دمائهم أنهارا ولم يرحموا النساء والأطفال والعجزة والشيوخ ، ولم يحتقرهم كما احتقروا هم المسلمين وعاملوهم بمنتهى الخسة والنذالة والجبن ..

لقد ارتفع صلاح الدين إلى قمة شاهقة من النبل والفروسية أجبرت الأعداء قبل الأصدقاء على أن يحنوا قاماتهم أمامها .

إن شخصية صلاح الدين التى نقدمها للقراء اليوم فى سلسلة « شخصيات إسلامية » تشهد بما يتمتع به الإسلام من مباديء كريمة ومثل عليا ، لو طبقت لعاش الناس سعداء كرماء أعزاء ..

ولكن أعداء الإسلام لا يريدون هذه الحياة ، لأنهم ألفوا مبادىء الظلم والبغى والعدوان .

ومما يؤسف له أن الأعداء يعرفون مبادىء الإسلام جيدا ، ويدركون مثله العليا وأهدافه النبيلة ، ولكنهم يتعامون عن ذلك عمدا ، ويغمضون عيونهم ويغلقون عقولهم



حتى لا يصل إليهم ضوؤها . وهذه مكابرة منهم ، بعد أن اعترف المنصفون بعظمة الإسلام ، واعتنق العقلاء الباحثون دعوته طائعين فرحين سعداء .

إن سيرة صلاح الدين الأيوبى تحرك بواعث الأمل فى النفوس ، فقد انتصر صلاح الدين قديما فى وقت كان المسلمون فيه أشبه بوقتنا هذا . كانوا شراذم متنافرة متناحرة . وعلى الرغم من ذلك انتصر صلاح الدين، وتمكن من أن يعيد للأمة وحدتها وقوتها ، ويقضى على الصليبية المكشرة عن أنيابها فى معركة من أعتى المعارك التى أضاءت التاريخ الإسلامى . هى معركة حطين . ويعيد بيت المقدس إلى حماه الطبيعى المتمثل فى العروبة والإسلام .

نحن فى حاجة ماسة إلى مطالعة سيرة صلاح الدين الأيوبى . لتذكرنا بماضينا المجيد وبعودة القدس التى ندعو الله أن تعود مرة أخرى إلى أحضان أبنائها الأوفياء الذين طالت غربتهم عنها وغربتها عنهم .

ومن أجل هذا كله نقدم للقراء الكرام هذه الشخصية الفريدة : صلاح الدين الأيوبى بطل حطين وقاهر الصليبيين .

وبالله التوفيق .

حلب
حماه
طرابلس
دمشق
صور
عكا
القدس
كريت
البحر المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
الامبراطورية
المصرية
النوبة
الجزيرة العربية
المدينة
مكة

صلاح الدين الايوبي (١١٣٦ ــ ١١٩٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الشرق العربى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين

من رحمة الله بعباده أن يهئ لهم بين الحين والحين من يظهرفى الأوقات الحالكة فينير أمامهم الطريق ، ويبعث فى قلوبهم الأمل ، ويجدد فى نفوسهم العزم ، ويأخذ بأيديهم إلى الغايات العليا . والآمال القصوى ...

هذه سنة الله فى كونه ، وهى ملحوظة بقوة فى تاريخ الأمة الإسلامية عبر العصور، حتى لقد أصبحت قاعدة يتوارثها الأقوام تلك القولة المأثورة « يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد للناس دينهم ».

والدين حين ينتعش تنتعش معه الدنيا ، لأنها خادمة له ، وهى وسيلة من وسائل قوته وإنهاضه . وقد يقيض الله صاحب الدنيا ليأخذ بيد صاحب الدين فيعينه على تحقيق رسالته وتبليغ دعوته ، وقد يكون صاحب الدنيا هو صاحب الدين كما نرى فى صورة الخلفاء الراشدين والحكام الصالحين ، والأمراء الناصحين ، والقادة الفاتحين ..

ولقد مرت بالأمة الإسلامية قرون وقرون ، بلغت فى بعضها أوج العظمة والرقى، وتبوأت فيها أعلى مراتب القوة والنهضة . وسعد الناس فى ظل ذلك بالحكم العادل والعمل الصالح والعيش الوارف والحياة الطيبة .

وأصابهم فى بعض ذلك مايصيب الإنسان حين تتخمه النعمة ، فينسى فضل ربه ويغفل عن واجبه ، فيبتلى به الجسم الذى لايتعهده صاحبه بما يجب أن يتعهده به من رعاية صحية وتوق لأسباب الداء ، وبحث عن وسائل الدواء فيمرض ويضعف .

فتعرضت الأمة الإسلامية لمخاطر جسيمة أدت إلى فتورها وضعفها وأسلمتها إلى أيدى أعدائها ، فتخطفوا أطرافها ، وكادوا أن يصيبوها فى صميم فؤادها . لوا أن قيض الله لها برحمته من أقامها من عثرتها وأنهضها من كبوتها وأعاد إليها من شبابها وقوتها مامكنها من استئناف سعادتها فى عافية وصحة .

لقد كان طبيبها الذى نعنيه فى هذه الفترة التى سوف نتحدث عنها هو صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين .

وكانت هذه الفترة التى نعنيها هى فترة تعرض الأمة الإسلامية لأعتى الأخطار الصليبية فى حلقاتها المتكررة . وهى الفترة التى شهدها آخر القرن السادس الهجرى.

لقد جاء الرجل المناسب فى الوقت المناسب ، ليقوم بالدور المناسب . وليرد اعتبار المسلمين بعد أن هزموا أنفسهم بأنفسهم مما مكن للعدو الخارجى أن ينال منهم . ولذلك حديث يجمل أن نبدأه من أوله ، ونذكر له مقدماته وأسبابه .

قوة الدولة الإسلامية

بلغت دولة الإسلام فى القرون الأولى أقصى مايمكن أن تبلغه دولة فتية تتمتع بإيمان راسخ ويقين صادق يحرسه دستور خالد وحكم عادل ، يسير تحت لوائه جنود باعوا أرواحهم لله ، ونذروا أنفسهم للتبشير بدين الله ، هانت الدنيا فى نظرهم لأنهم يطلبون جنة عرضها السماوات والأرض ، أو نصرا يعيش الناس فى ظله فى سعادة وأمن ورضا بعبادة الواحد القهار.

فليس غريبا أن نرى الإسلام قد بسط نفوذه على فارس والروم والدول التابعة لهما، وعلى أفريقيا فى مدة وجيزة وزمن قياسى ، ولم يلبث أن عبر البحر الأبيض المتوسط حيث أشرق فى الأندلس وامتد فى أوروبا .

جاء فى كتاب « العرب تاريخ موجز » : لم تمض على وفاة الرسول ﷺ سنوات حتى أصبح للمسلمين دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غربا إلى الصين شرقا ، ومن جبال أورال شمالا إلى حدود السودان جنوبا ، وردد المسلمون فى كلمتى الشهادة

اسمى الجلالة والرسول ﷺ من رءوس المآذن فى جنوبى أوروبا وشمال أفريقيا وأواسط آسيا ، فرجّعت جبال الأندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى أصداءها ، ودخل فى دين العرب وفى لسانهم ودمهم من الشعوب والأجناس مالم يعهد التاريخ مثله من قبل ، حتى فى أخبار اليونان والرومان (١) ولم يكتف الإسلام فى رحلته بما وصل إليه ، بل واصل زحفه فى فارس شرقا حتى نهر جيحون ، وهو الحد الفاصل بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية ، وبذلك دخل الإسلام بخارى وترمذ وشاسن وسمرقند ، واستقر فى آسيا الوسطى، ودخل السند والبنجاب والهند ثم الصين .

لقد كان جهاد المسلمين فى سبيل نشر الإسلام وتعاليمه نوعا من الالتزام الأدبى يلتزمه الناس ليخرجوا من الظلمات إلى النور ، و ويتخلصوا من ذل عبودية الفرد إلى عز العبودية للواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

واعتنى الإسلام بأهله الذين أقبلوا عليه يدخلونه أفواجا ، طواعية واختيارا فقد كان من أولى مبادئه أنه لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . ولكن كان من الواجب بيان مبادئه حتى يتعرف الناس على الرشد ويبتعدوا عن الغى .

ودان بالإسلام من غير العرب أمم هم الذين حملوا لواء الدعوة والتبشير بها والإخلاص لها ، وأقبلوا على هذا الدين يتعلمون لغته ، ويتقنونها ، ويقبلون على علوم الدين بهمة قوية لا تعرف الكلل حتى برعوا فيها وألفوا فيها وقدموا للأمم مبتكرات عقولهم ونتاج قرائحهم التى تتلمذت عليها الأجيال من بعدهم ، ومازالت المنبع الفياض لأبنائهم حتى الآن ..

لقد ظلت الدولة الإسلامية دولة واحدة يحكمها خليفة واحد على الرغم من تباعد أطرافها واختلاف ألسنتها . لقد صهرهم الإسلام جميعا فى بوتقة ، فأصبح هو وطنهم الذى نسوا فى ظله عنصريتهم وجنسيتهم ـ هم أبناء الإسلام لا أبناء فارس أو العراق أو

---

(١) العرب تاريخ موجز لفيليب حتى.

الشام أو العرب أو الروم . لقد كان نصب أعينهم قوله تعالى ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[2] وقوله ﷺ « **لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى** » « **كلكم لآدم وآدم من تراب** » .

بداية التفكك

وظلت الدولة هكذا شأنها طوال عصر الخلفاء الراشدين ، والعصر الأموى ، وصدر الدولة العباسية .

ثم بدأ الانقسام يأخذ طريقه إلى هذه الأمة العظيمة التى وحد الإسلام صفوفها ، وقوي روحها ، ورفع شأنها . لقد ضعف روح الدين فى بعض النفوس فتحركت نوازع الثورة والانفصال فيها .

وكانت أول نزعة على يد أحمد بن طولون الذى أنشأ الدولة الطولونية فى مصر سنة ٢٥٤ هـ : ٨٦٨ هـ .

وظل حاكما على مصر مستقلا بها عن الدولة العباسية وورثها ابنه خمارويه من بعده حتى سنة ٢٩٢هـ : ٩٠٥ م

واستطاع أن يخضع تحت ظله سوريا التى دانت له بالولاء ، ووصل ملكه حتى حدود الفرات ، وفى خلال حكمه لسوريا اهتم ببناء ميناء عكا الذى أصبح له شأن يذكر فيما بعد .

واستطاع أن يقود من سوريا عدة حملات ناجحة ضد البيزنطيين الذين كانوا ينظرون إلى أطراف الدولة الإسلامية فى الشام نظرة تطلع وطمع . وبخاصة بعد ظهور بوادر الانشقاق والانفصال فى الدولة .

---

(١)آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الحجرات : ١٠ .



وسقط الحكم الطولونى فى مصر ، وعادت مصر إلى حضن الخلافة العباسية من جديد لمدة ثلاثين سنة .

ثم انفصلت مصر مرة أخرى سنة ٣٢٣هـ : ٩٣٥م وظلت تحت راية الإخشيد يحكمونها حتى سنة ٣٥٧هـ ٩٦٩م أى حوالى أربع وثلاثين سنة ..

ولم تكن مصر وحدها هى التى استقلت بالحكم عن الخلافة العباسية فى بغداد ، فقد استطاع الحمدانيون أن يكونوا دولة فى سوريا عاصمتها حلب سنة ٣٣٢هـ : ٩٢٩م واستمرت ثلاثة أرباع قرن من الزمان حتى سنة ٤٠٧ هـ : ١٠١٦م .

لقد انتزع الحمدانيون الحكم من براثن الإخشيد الذين حاولوا أن يخضعوا سوريا لدولتهم فى مصر .

وتمتعت دولة الحمدانيين بقوة واستقلال فى عهد مؤسسها سيف الدولة الحمدانى ومن بعده خليفته سعد الدولة . واستطاعت أن تواجه الروم فى معارك طاحنة انتصرت عليهم فيها ، وقد سجلها الأدب العربى تسجيلا صادقا أمينا . حيث قال المتنبى يمدح سيف الدولة الحمدانى الذى انتصر على الروم فى إحدى المعارك :

أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سَرَوْا بجياد مالهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسْنٍ وأمة ... فما تُفْهِم الحدّاثَ إلا التراجم
وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
نثرتهم فوق الأحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم [1]

لقد خاض سيف الدولة الحمدانى عدة معارك شرسة ضد الروم وظلت هذه

(١) ديوان المتنبى ٢/ ٣٧٨ شرح العكبرى ـ والأحيدب بالتصغير اسم جبل

المعارك لمدة عشرين سنة متوالية ، واستطاع أن يوقف الروم عند حدهم ، ويقضى على أطماعهم التى كانوا يتطلعون إليها فى الوطن العربى .

ضعف الخلافة العباسية

كان هذا الاستقلال الذى ظهر فى بعض مناطق الدولة الإسلامية مرده إلى ضعف الخلافة العباسية .

كان الخلفاء العباسيون الأول أقوياء ، لديهم من الحنكة والسياسة والمقدرة مايضربون به على أيدى العابثين والانفصاليين .

ولقد بدأت حركة الانفصال فى بدء أمرها فى صورة الدعوة إلى الشعوبية .

والحركة الشعوبية دعوة تدعو إلى العصبية والعنصرية ، على اعتبار أن هذا الجنس أفضل من هذا الجنس . وقد جاء الإسلام ليقضى على هذه النعرة الطائفية فقال: **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»**[1]

وقد حاول بشار بن برد الشاعر إذكاء روح الشعوبية فقضى عليه وكان مما قاله بشار فى الإعلان عن شعوبيته : الافتخار بانتمائه إلى فارس ، وغضه من شأن العرب:

هل من رسول مخبر — عنى جميع العرب
من كان حيًا منهم — ومن ثوى فى الترب
جدى الذى أسمو به — كسرى ، وساسان أبى
كم لى ، وكم لى من أب — بتاجه معتصب
لم يسُقَ أقطابًا ولم — يشربْها فى العلُب
ولاأتى حنظلة — يثقبها من سغب
ولا حدا قط أبى — خلف بعير أجرب

---

(١) الحجرات : ١٣ .



ثم حاول من بعده مهيار الديلمى وهو فارسى الأصل ذلك فقال فيما قال :

أعجبت بى بين نادى قومها | أم سعد فمضت تسأل بى
سرها ماعلمت من خلقى | فأرادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى | أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الشمس ضحا | وبنوا أمجادهم فى الشهب
وأبى كسرى علا إيوانه | ومشى فوق رءوس الحقب
وضممت المجد من أطرافه | سؤدد الفرس ودين العرب

ولكنه وجد من يرد عليه ويسكته .

وبذلك ماتت الشعوبية . ولكنها ظهرت فى صورة شرسة بعد ذلك هى صورة الانفصال والتفكك الذى رأينا طرفا منه . وها نحن هؤلاء نري طرفا آخر منه فيما يأتى :

• الدولة السامانية ، التى قامت فى الجزء الشرقى من بلاد فارس وهى خراسان وبلخ وما وراء النهر سنة ٣١٦هـ : ٩٢٨هـ ، فقد سيطر السامانيون على تلك المنطقة وكونوا دولتهم التى جعلوا مركزها بخارى وسمرقند ، واستمرت مايقرب من قرن من الزمان .

• الدولة البويهية ، وكان مقرها فى الجزء الغربى من بلاد فارس حيث سيطروا على عراق العجم وكرمان وخوستان ، وامتد نفوذهم إلى العراق العربى واستمرت دولتهم أكثر من قرن من الزمان ، منذ سنة ٣٢١هـ حتى سنة ٤٤٧هـ : ٩٣٢م ــ ١٠٥٥م .

* وظهرت الدولة الغزنوية فى أفغانستان والهند سنة ٣٥١هـ : ٩٦٢ م واستمرت حتى سنة ٥٨٢هـ : ١١٨٦م .

* واستولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ : ١٠٥٥م . وتمكنوا من أن يسيطروا على الخلافة العباسية ويوجهونها حسبما يريدون ، وظلت سيطرة السلاجقة زهاء قرنين من الزمان حيث سقطت الخلافة العباسية فى عصرهم تحت وطأة الاحتلال التترى سنة ٦٥٦هـ : ١٢٥٨ م .

*وظهرت الدولة الفاطمية في مصر بعد أن تخلصت من الإخشيد الذين كانوا يحكمونها سنة ٣٥٧هـ : ٩٦٧م ، واستمرت حتى اسقطها الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ : ١١٧١م .

واستطاعت الدولة الفاطمية أن تبسط نفوذها على الحجاز ، وعلى الشام ، ودان لها الحمدانيون فى حلب بالولاء ، واتسع نطاقها حتى أخذت تنافس الخلافة العباسية فى بغداد .

كان مركز الخلافة الفاطمية في مصر بعد أن انتقل الفاطميون إليها من المهدية التى أسسوا فيها دولتهم أولا ، وأنشأوا فى مصر مدينة القاهرة التى أصبحت عاصمة البلاد والحكم الفاطمي ، بعد مدينة القطائع التى كان الطولونيون قد أنشأوها ، واستمر فيها الإخشيديون بعدهم .

وأصبحت القاهرة مصدر إشعاع . واضطلع الحكام فيها بدور قيادى ووصلت مصر فى عهودهم المتوالية بدور قيادى عظيم .

واستطاعت مصر أن ترد جحافل المعتدين لا على حدودها فحسب بل على الأمة الإسلامية جمعاء . فقد ادخرها الله تعالى لأن يكون حكامها هم الذين يقضون على أحلام الطامعين والمستعمرين الذين أرقوا أجفان الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فكان صلاح الدين الأيوبى ملك الأيوبين فى مصر هو قاهر الصليبيين فى حطين ، وكان الظاهر بيبرس البندقدارى هو قاهر التتار فى عين جالوت بعد ذلك ..

هذه صورة سريعة لحالة الأمة الإسلامية منذ نشأتها حتى عصر الأيوبيين الذى بدأ بصلاح الدين محور حديثنا فى هذا الكتاب .

الدولة الأموية فى الأندلس

ولاننسى أن عبد الرحمن الداخل القائد الأموى استطاع أن يستقل بحكم الأندلس بعد فراره من العباسيين عند قيام دولتهم سنة ١٣٢ هـ وتمكن من أن يحتفظ بالأندلس إسلامية أموية ، وأصبحت دولة قوية فى المغرب تنافس الدولة العباسية فى المشرق ، ومازالت كذلك مايقرب من عشرة قرون من الحكم الإسلامى الزاهر ثم أصابها ما أصابها .

الضعف وأثره

ليس عبثاً أن يحذرنا الله تعالى من التفرق والاختلاف . وقد ذكرنا الله تعالى بوجوب الاتحاد والتآزر فى مواضع متعددة من كتابه الكريم فقال : ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾ [1] وقال : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك هم الظالمون**﴾[2] وقال : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [3] وقد نهى النبى ﷺ عن التقاطع والتدابر ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **لا تباغضواولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا** »[4] .

فلا شك فى أن الاتحاد قوة والتفرق ضعف . وقد ترتب على تفرق كلمة الأمة الإسلامية وتفكك أجزائها وظهور بوادر الانفصال آثار خطرة ، لقد طمع العدو الخارجى فى الدولة ، وظهرت أطماع الصليبيين واضحة فى محاولات جزئية تعتدى على أجزاء من الأمة الإسلامية وتحتلها وتتخذها مركزاً تنقض منه على أجزاء أخري .

وأصبح الانضواء تحت لواء المعتدين من أبناء الأمم الأفرنجية أمراً مألوفاً لا يثير غضب أبناء الأمة الإسلامية ، وأخذ رجال الدين المسيحى يغذون عقول الناس بالكثير من الأفكار التى تشوه صورة الإسلام المشرقة التى فتحت الممالك ، والكثير منها فتح دون إراقة دم واحدة ، لقد كانت أغلب الفتوحات تتم بصورة تلقائية نتيجة لما يشاهده الناس من أخلاق هؤلاء الفاتحين وما يتسمون به من صدق ومروءة وتواضع وزهد وترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٥ .

(٣) الأنفال : ٤٦ .

(٤) البخارى ١٠/ ٤٠١ .

ولَكِنْ حلا لكثير من رجال الدين المسيحيين أن يدخلوا فى روع أبنائهم صورة مباينة تماما لهذه الصورة ، فى محاولة لإيغار صدورهم نحو هذا الدين وأهله ، وفى دعوة جزئية لاسترداد البلاد التى دانت بالإسلام والسيطرة عليها وبخاصة بيت المقدس والأماكن المجاورة له .

وفى الحقيقة لم تكن الغيرة الدينية هى الدافع لهؤلاء الرجال لهذا التحريض ولكن كانت هناك عوامل أخري أشار إليها العلماء المحققون الذين بحثوا دوافع الحروب الصليبية وأهدافها .

فإذا ما استثنينا حالة الضعف التى أصابت المسلمين وتخاذلهم بسبب هذا التفكك الذى تحدثنا عنه ، والذى ترتب عليه حرص كل حاكم على ما تحت يده وخوفه من أن يذهب عنه لو أنه أنجد غيره من الحكام فى مقاومة العدوان الذى تعرض له ، وغابت عنه الحكمة الهندية التى قالها (١) بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك فى قصة الثيران الثلاثة الذين كان يرهبهم الأسد ، فلما فرق بينهم افترسهم الواحد تلو الآخر . فقال آخرهم وهو الثور الأسود : أكلت يوم أكل الثور الأبيض . وكان الثور الأبيض هو أول الثيران الثلاثة المأكولة .

إذا ما استثنينا هذه الحالة التى تغرى الطامع فى تحقيق طمعه استنادا الى الحكمة الدارجة الصادقة : « المال السائب يحرض على السرقة » أى المال المتروك بدون حراسة يغرى الآخرين بسرقته . فإننا نجد هناك عوامل أخرى بالإضافة إلى ذلك ذكرها المحققون .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه الحركة الصليبية :

القول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون الشرقيون والغربيون فى البلاد الإسلامية إنما هو ادعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام ، وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمرالله تعالى به محمدا ﷺ من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويثبت

---

(١) كليلة ودمنة .



التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة تشهد عليها الرسالة التى بعث بها « ثيود سيوس » بطريق بيت المقدس سنة ٨٦٩ هـ إلى زميله « احناتيوس » بطْرِيق القسطنطينطة ، والتى امتدح فيها المسلمين وأثنى عليهم ، وعلى قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى إنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة ، وذكر بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت .

وقد يقال إن التاريخ يشير إلى تعرض بعض المسيحيين أحيانا فى بعض البلاد الإسلامية لنوع من الضغط ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائما عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب .

وإذا كان بعض المؤلفين الأوروبيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية ، وأرادوا أن يتخذوها دليلا على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صاحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهاد ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد ، واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى .

وحسبنا ما قام به خلفاء الامبراطور . «قسطنطين» الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحين على اعتناق المسيحية ، وما قام به « شارلمان » فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف ، حتى إنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة « فرون » الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة . وما ارتكبه الفرسان والتيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطى .

هذا كله فضلا عما قام به المبشرون فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند .

ويقول أحد كبار المؤرخين الأوربيين أن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح

أن تتخذ بأى حال سببا حقيقيا للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى . اهـ[1] .

تحالف الصليبيين على الإسلام

كانت الحروب الصليبية سلسلة محكمة الحلقات فى أوروبا وآسيا معا ، فقد تحالفت قوى الشر على الإطاحة بالإسلام هنا وهناك ، باذلة فى ذلك كل جهد ، مستهينة بكل ما تلاقيه من مشقات .

ولقد خلعوا على هذه المؤامرة الخبيثة صبغة قدسية ، فقالوا : إنهم جنود المسيح ، ورفعوا الصليب لواء لهم ليغرروا به شعوبهم ويخدعوا به الشباب ، ويدفعوهم إلى التطوع فى هذه الحرب التى سموها مقدسة .

ومهما تذرعوا به من أسباب يبررون بها هجماتهم البربرية على الإسلام ودياره فهى أسباب واهية مفضوحة ، لا يمكن أن تشفع لهذه النتائج الخطيرة والدماء الغزيرة التى سالت أنهارا ، والاعتداءات الوحشية ، واستباحة الأموال والأعراض ، والفتك بالآمنين من المسالمين فى دورهم وحقولهم وأعراضهم وأموالهم .

وكانت فرنسا فى مقدمة الدول الأوروبية التى قادت هذه الحملات ، ومن القسطنطينية كان الهجوم . ولقد اعترف كثير من المؤرخين أنه ليست العاطفة الدينية وحدها هى سبب الحرب .

* فهناك الراغبون فى التوسع وكسب المواقع الجديدة ، واستعادة البلاد التى كانوا يرفعون أعلامهم فوقها .

* وهناك التجار الذين يرغبون فى ازدياد أرباحهم عن طريق هذا الصراع ، وفتح مناطق جديدة تروج فيها تجاراتهم .

* وهناك الذين يأملون من وراء هذه الحرب تفريج ضوائقهم المالية والاقتصادية .

---

(١) الحركة الصليبية ١/ ٢٩ د/ سعيد عبد الفتاح عاشور .



*وهناك المجرمون الذين يتهربون من العقوبات المفرورضة عليهم .

*ويأتى الوازع الدينى فى نهاية المطاف ، وهو وازع مزيف زخرفه أولئك الذين غرروا بالشباب والأطفال ..

فأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة ، والذين اتجهوا نحو القسطنطينية ، وهى البلدة المسيحية الكبري لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ، ويعتدوا هلى أهلها بالقتل والضرب وهم جميعا إخوانهم فى الدين [1]

صورة وصفية صادقة للحملة الصليبية

كان بطرس الناسك أحد رجال الدين الذين يثيرون مشاعر الناس وتجميعهم لاستعادة القدس من المسلمين .

وكان بطرس أحد نزلاء الدير ، ولكنه هجر الدير بتكليف من البابا ليقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية . وفى شمال شرق فرنسا واللورين أمضى شتاء سنة ١٠٩٥ / ١٠٩٦ م . يتجول من مكان لآخر داعيا إلى حملة البابا .

وكان بطرس يسحر ألباب الفقراء بفصاحته التى تناقض هيئته . كان يتجول بحماره فى الآفاق ، وحيثما حل كان الفقراء المأخوذون بفصاحته يتسابقون لنزع شعرات من جسد الحمار المسكين وذيله طلبا للبركة . لقد أخذ بطرس يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين فى ذلك الوقت ، وأصبح محور أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية .

وقد كشفت الدراسات التاريخية منذ منتصف القرن التاسع عشر زيف وعظ بطرس بفضل بحوث «هنريخ فون سيبل» سنة ١٨٤١ م الذى أثبت تناقض تصرفاته مع المثال الذى بشر به ودعا إليه . وقد هرب أثناء معاناة الصليبيين فى حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨ م ، وقبض عليه وأعيد إلى المعسكر الصليبى بصورة مهينة .

لقد تجمع الفلاحون حول بطرس الناسك وحملوا محاصيلهم الزراعية التى جمعوها

---

(١) المرجع السابق ص٣٣ .



من حقولهم فوق عرباتهم الثقيلة التى تجرها الثيران ، وحملوا معهم النساء والأطفال والمتاع الهزيل ، ولم ينتظروا الموعد الذى حدده لهم البابا ، وانطلقوا وراء بطرس صوب الشرق .

كانت هذه الجماعات من العامة والفلاحين أكبر من أن تستطيع أى مدينة أو قرية فى غرب أوروبا أن تعولها ، ومن ثم تكونت من هذه الأعداد الغفيرة فرق جيوش بائسة ، يقود كل فرقة منها واحد من الفرسان المغامرين أو المشعوذين فى فوضى تدعو إلى الرثاء.

وتكون من بعض هذه الجماعات فرقة قادها مغامر اسمه « والتر » المفلس ، اقتحمت بلغاريا فأخذوا ينهبون ويسلبون فقاتلهم البلغار حتى ألجأوهم إلى بلغاريا ولم ينج منهم سوى عدد قليل .

وانتهى المطاف بهذا العدد القليل إلى أسوار العاصمة البيزنطية « القسطنطينية » ووقفوا ينتظرون بقية القوافل بقيادة بطرس المسكين .

وأخيرا جاء بطرس ووراءه جيوش غفيرة من الفقراء ، ووراءه أيضا الفرسان الذين خدعوا بدعوته وهم فوق جيادهم ، وهو يركب أمامهم حماره . وخلفهم عربات ثقيلة تجرها الثيران تحمل المؤن والأموال التى استطاع بطرس أن يجمعها من أثرياء الغرب الأوروبى . ولكن بطرس الذى كان قادرا على تحريك المشاعر لم يكن ليصلح لقيادة هذا الجيش العجيب الذى يتألف من المقاتلين والطامعين ، والذى ضم مئات من الأفاقين والمجرمين وبنات الهوي والفلاحين والفقراء من أهل المدن .

وعند مدينة « سملين » على حدود المجر كشف « جيش الرب » عن وجهه القبيح ، وجرت على « سملين » وأهلها مذبحة رهيبة ، وأزهقت أرواح أربعة آلاف من أبناء المدينة التى تحولت إلى خرائب تتصاعد منها الحرائق التى أشعلها هؤلاء « المجاهدون » فى سبيل دينهم .

لقد ارتكب هؤلاء المجاهدون هذه المجزرة الوحشية ضد إخوانهم المسيحيين الذين يدينون بدينهم ، والذين زعم قائدهم « بطرس » أنه جاء لنجدتهم مع هؤلاء الجموع .

وخشى بطرس من الانتقام فاختبأ مع جيشه فى غابات المجر . ثم تجمع مرة أخرى ليواصل زحفه فى طريقه إلى القدس .

وأخيرا وصل هذا الجيش إلى حدود الدولة البيزنطية ، وخاف قائد الحامية البيزنطية فى مدينة « نيش » الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء . فاتخذ الاحتياطات لمواجهتها ، ولكن الصليبيين بقيادة بطرس الناسك لم يخيبوا ظنه فقد أحرقوا مساكن القرويين مع سكانها الأحياء داخلها . ونهبوا وسلبوا .

ولم يسكت البيزنطيون ، فقد هاجموا جيش بطرس الناسك وقتلوا كثيراً من رجاله وأسروا عددا آخر ، كما استولوا على الأموال والتبرعات التى كان هذا الراهب قد جمعها .

وتفرقت الجموع الباقية من حول بطرس ، ولكنها بعد ثلاثة أيام عاودت التجمع ، وسارت فى طريقها صوب مدينة « صوفيا » ثم استمرت فى طريقها إلى «القسطنطينية» .

وأخذ هؤلاء الصليبيون ـ أتباع بطرس الناسك ـ يعيثون فسادا فى مدينة « القسطنطينية » التى بهرتهم بجمالها ، ونهبوا وأحرقوا وسرقوا ووجد الامبراطور نفسه مضطرا لأن ينقلهم بسرعة عبر المضايق إلى آسيا الصغرى ، وهناك تصرف جنود الرب على نحو لا يرضى الرب فارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين ، وبسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون فى شباك كمين أعده الاتراك السلاجقه ، وأجهزوا على هذه الحملة [1] .

مدى تأثر الصليبيين بإغراءات آبائهم

لقد أدخل الدعاة المسيحيون فى أذهان أبنائهم أن هذه الحرب التى يدعونهم إليها هى حرب مقدسة ، وهى وسيلة لغفران ذنوبهم ، وأن المشترك فيها إنما هو جندى للمسيح ، وأن قتل المسلم فى سبيل ذلك عبادة مشروعة لأنه عدو للمسيح .

---

(١) ماهية الحروب الصليبية د/ قاسم عبدة قاسم سلسلة عالم المعرفة ١١٥ ـ ١١٩ .

ففى إحدى الخطب قام « برنار » مقدم دير « كليرفو » يحث أبناء الغرب الأوروبى على التطوع فى الحملة الصليبية ، وكان ذلك بتفويض من البابا « أجينوس الثالث » فقال : أيها الجندى الباسل ، يا رجل الحرب ، الآن لديك قضية تجعلك تقاتل دون أن يحيق الخطر بروحك ، قضية النصر فيها مجيد ، والموت فى سبيلها مكسب ، أم تراك رجل أعمال ناجح يدرك مكاسب هذه الدنيا بسرعة ؟ فإذا كنت كذلك فإن باستطاعتى أن أقدم لك صفقة محترمة ، فلا تجعل هذه الفرصة تفوتك ، خذ شارة الصليب . وفى الحال ستنال الغفران على كل خطاياك التى اعترفت بها بقلب نادم ، ولن يكلفك كثيرا أن تشترى مكافأة السماء إذا ارتديت شارة الصليب فى تواضع .[١] وقد تحول مثل هذا الكلام إلى شعر وأناشيد أخذ هؤلاء الجنود يرددونه فى حماس مثل قولهم :

لقد سمعت مثلا سائرا يقول :

التاجر العاقل ينفق المال من حافظته

وصاحب القلب الطائش

هو الذى يرى الحسن فيختار القبيح

هل تعرفون بم وعد الرب

اولئك الذين سيأخذون صليبه ؟

إنه لثواب حسن بالتأكيد

الفردوس . وكان وعده صادقا

إن من يمكنه أن يربح مكافأته

أحمق إذا انتظر إلى الغد

أو مثل قولهم :

لأن المسير هو الأمل

ومن أجل الممتلكات والفرح والشكر

---

(١) المرجع السابق .



وفى سبيل الشرف والعزة

ومن أجل الخلاص من الخطيئة (١)

بل لقد أصبحوا يفاخرون بأنهم ذاهبون لقتل جنود محمد .

فها هو ذا أحدهم يهتف قائلا :

لا تحزنى يا أماه

بل من حقك أن تفرحى

إننى ذاهب إلى هناك

لأخلص العالم من شرور أبناء محمد

وكانت هناك أغنية إيطالية يرددها الجنود ولا يملون ترديدها فى أثناء حملة قامت من إيطاليا متجهة إلى طرابلس تقول كلماتها :

صلى يا أماه ولا تبكى

بل اضحكى وتأملى

ألا تعلمين أن ايطاليا تدعونى

وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا

لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة

ولأحارب الديانة الإسلامية

سأحارب بكل قوتى لمحو القرآن

وان لم أرجع فلا تبكى على ولدك

وإذا سألك أحد عن حدادك عليه

فأجيبيه أنه مات فى محاربة الإسلام (٢)

---

(١) المرجع السابق .

(٢) من مقال للدكتور عبد الودود شلبى بعنوان : مشكلات الأقليات الإسلامية ـ مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ

وهكذا انقلبت الآية أصبح الجهاد فى سبيل الباطل استشهادا ، والجهاد فى سبيل الحق زورا وبهتانا .

وفى ظل هذا المفهوم سار هؤلاء المتطوعون المخدوعون نحو الشرق .

موجات العدوان الصليبى

وإذ قد عرفنا أن الأمة الإسلامية قد أصابها التفكك والانقسام وبخاصة فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وأصبح المسلمون موزعين بين ولائهم السياسى للخلافة العباسية فى بغداد ، وهى خلافة سنية ، وبين الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، وهى خلافة شيعية .

وقد أصبحت الأحوال الداخلية فى البلاد مرتبكة فى كل مكان .

لقد أصبحت كل مدينة كبيرة فى الشام تقريبا إمارة مستقلة تحت حكم أمير عربى أو تركى من السلاجقة .

وقد سادت موجة الشك والحقد بين هذه الإمارات ، ولم تنج فى بعض الأحيان من التقاتل .

فقد كان هذا سببا من الأسباب الرئيسية التى مهدت الطريق أمام تتابع موجات الصليبيين وتدفقها نحو العالم الإسلامى وطمعهم فى امتلاك المدن وبناء الحصون وتكوين الإمارات .

الحملة الصليبية الأولى

كانت هذه الحملة فى سنة ٤٩٠/٤٩١ ـ ١٠٩٦ /١٠٩٧

وهى الحملة التى لعب بطرس الناسك دورا كبيرا فى إثارة المشاعر حولها وعلى الرغم من أنه فشل فى مواصلة مسيرته وارتد على أعقابه مؤقتا إلا أن الأذهان كانت قد تنبهت ، واستبدل الصليبيون بتلك المسيرات الهمجية من العامة والفلاحين جنودا مدربين ، تحت قيادة فرسان من الأشراف والأمراء .

وكان سبب ذلك أن امبراطور القسطنطينية خشى من قوة السلاجقة وطمعهم فى بلاده فأرسل إلى أوروبا يستنجد بها عليهم لقد كان رؤساء الحملة الأولى بعد حملة بطرس الفاشلة من طبقة الأشراف والأمراء التى تلى طبقة الملوك ، وأهمهم ـ كما يقول كتاب معالم تاريخ العصور الوسطى ـ « جد فرى » البرغندى » دوق اللورين السفلى » ثم « ريموند » دوق تولوز فى جنوب فرنسا ، و « يوهمند » ابن « روبرت » النرمندى ملك جنوب ايطاليا .

ويعد « جد فرى » أصلح الصليبيين وأحبهم إلى الناس ، أما « ريموند » فكان أرفعهم منزلة ، وأما « يوهمند » فكان أقواهم وأشدهم مراسا .

واتخذ كل زعيم من هؤلاء طريقا خاصا مع أتباعه ، لأن ذهابهم مجتمعين يجعل التموين صعبا .

واجتمع هؤلاء الزعماء وجنودهم فى القسطنطينية فبلغ عددهم مائة ألف فارس ، وستمائة ألف من المشاة . كانوا بين حجاج وقساوسة وغير ذلك خلاف النساء والأطفال . (١)

ذكر ابن كثير فى تاريخه أن الإفرنج كانوا يصحبون النساء معهم فى خروجهم للحرب ضد المسلمين ، وكانت النساء يخرجن بنية القتال وراحة الغرباء » أى الترفيه عنهم » وقد كان فى إحدى هذه الحملات ثلثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن . (٢)

خوف ملك القسطنطينية من هذا العدد

لم يكن إمبراطور القسطنطينية مستعدا لقبول هذا العدد الضخم فى عاصمة ملكه ، وخاف أن يدبر هؤلاء الصليبيون خلعه .

لقد كان هذا الامبراطور خائفا من السلاجقة فاستعان بأوروبا التى فاجأته بإرسال هذا العدد الكبير الذى لا طاقة له به ، وكان يرمى إلى أن تمده أوروبا بنجدة تساعده على استرجاع أراضيه من السلاجقة التى استولوا عليها .

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ـ محمد رفعت ، محمد أحمد حسونة ص ١٣٨ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣٣٤ .

ولذلك أخذ العهود والمواثيق على كل زعيم من هؤلاء الزعماء أن يرد إليه كل جزء من أجزاء أرضه التى استولى عليها السلاجقة ، بعد أن يسترده منهم وعليه أن يلتزم هو فى نظير ذلك بأن يمدهم بالمؤن والذخائر فى أثناء معاركهم مع السلاجقة . لقد خشى أن يملكوا الأرض بعد أن يستردوها ، وبذلك يكون كمن نجا من وهدة فسقط فى حفرة .

وقبل الزعماء الالتزام بهذا العهد .

أول مواجهة ونتيجتها

وعبرت هذه الجيوش القسطنطينية إلى الأناضول بعد أن تكامل عددهم ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٠٩٧م .

وأقبلوا يحاصرون « نيقية» وكانت عاصمة السلجوقيين فى ذلك الوقت ، وكان أمير السلاجقة هو « قلج أرسلان »

وبعد قتال مرير تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم وهزيمة السلاجقة . وتقدم الصليبيون بعد استيلائهم على « نيقية » إلى دورليم « اسكى شهر » وكان « قلج ارسلان» قد نقل عاصمته الى « قونية »

ودارت معركة حول دورليم وانتهت بهزيمة السلاجقة أيضا . وتكونت أول إمارة صليبية فى هذه البقاع اسمها « مملكة الرها » [1] لقد بهت المسلمون بوصول القوات الصليبية ، وكانت مفاجأة غير متوقعة ـ وهذا خطأ من غير شك ـ لأن الحزم يقتضى الاستعداد لكافة الاحتمالات والتوقعات .

وقد كان المسلمون ـ لو تكاتفوا ـ قادرين على إبادة هذه الجيوش الصليبية القادمة من أماكن بعيدة ومتفرقة ، وقد انتصر المسلمون قديما على أضعاف هذه الأعداد .

ولكن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة ، والذى غرسته وأنبتته طوال القرن

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ١٣٩ .

السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة قوات الصليبيين .

ولم يكن الصليبيون مع ذلك فى نزهة عسكرية ، فقد كلفتهم المقاومة التى اتخذت شكلا يقترب من حرب العصابات كثيرا من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السريعة من رماة السهام ، والتى كانت تشيع الرعب فى أوصال الصليبيين[1]

التقدم إلى انطاكية

وزحفت كتائب من الصليبيين صوب « انطاكية » وحاصروها فى اكتوبر سنة ١٠٩٧ ، وقاومت « انطاكية » مقاومة عنيفة لمدة تسعة أشهر ، وذاق الغربيون فى أثناء ذلك ويلات الجوع والبرد والطاعون ، حتى كاد اليأس يستولى عليهم .

وكانت هذه فرصة ذهبية أمام المسلمين ، ولكنهم لم يغتنموها بكل أسف ، فلو أن أمراء سوريا اتحدوا لا ستطاعوا القضاء على هؤلاء المغامرين الذين كاد اليأس والمرض والجوع أن يقضى عليهم ، ولكن انقسام هؤلاء الأمراء أدى فى النهاية إلى فتح « أنطاكية » وتكوين مملكة أخرى صليبية فى المنطقة الإسلامية .

اغتصاب بيت المقدس

وتقدم الصليبيون ناحية بيت المقدس الذى لم يلبث أن فتح وكان ذلك فى يونيو سنة ١٠٩٩ م .

هذا عرض سريع للحملة الصليبية الأولى التى أثمرت تكوين عدة ممالك صليبية فى الشرق هى إمارات : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس ..

لقد ارتكب الصليبيون فى بيت المقدس فظائع يندى لها الجبين ، لقد أبادوا أهلها ، لم يرحموا طفلا أو امرأة أو عجوزا ، وأصبحت الدماء أنهارا ، وظلت الجثث مطروحة فى الطرقات لا تجد من يواريها حتى تعفنت وفاحت رائحتها وأصبح ذلك مثار فخر لهم ، حتى إنهم كتبوا إلى البابا يهنئونه بقولهم : إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ١٢٤ .



فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء المسلمين إلى ركبتيها .

وأبيحت المدينة للسلب والنهب عدة أيام ، وفى هذا الجو الموحش الكئيب اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر .

أى شكر هذا ؟ أهو الشكر على القدرة على استباحة هذا الحرم المقدس بهذه الصورة المنكرة ، والقدرة على البطش بالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة الذين لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم ؟ أهو الشكر علي قتل الآمنين وهم فى رحاب حرم لم يغلق يوما فى أثناء حكم المسلمين فى وجه حاج أو زائر أو تاجر أو سائح ؟ ؟

وظل بيت المقدس أسيرا فى يد الصليبيين الذين لم يعرفوا له قدره حتى استرده ـ صلاح الدين ـ كما سنعرف بعد إن شاء الله . بعد ثمانين عاما من غربته .

الحملة الثانية

جاءت هذه الحملة نتيجة للوعى الإسلامى الذى استيقظ ، وبدأ الحكام المسلمون المخلصون يتنبهون لواجبهم ، ويعرفون حق الإسلام عليهم ، ويحاولون استرداد المواقع التى استلبت باسم الصليب منهم .

فقد ظهر عماد الدين زنكى وهو والد نور الدين محمود وكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى قد ولاه الموصل سنة ٥٢٢هـ ، فأدار حكمها بنجاح وهاله مارأى من تمكن الصليبين فى بلاد المسلمين واستيلائهم على المدن الإسلامية وتكوين إمارات صليبية بها . وعمل على استرجاع ذلك وتوحيد صفوف المسلمين . حتى تتكون جبهة قوية تقف فى وجه العدوان الأوروبى المتستر وراء الصليب .

وفى سنة ٥٣٩هـ ١١٤٤م تمكن من فتح مدينة « الرهاء » أول مملكة أسسها الصليبيون فى الشرق ، وكانت من أمنع وأهم ممتلكات الصليبيين .

ولم يمهله العمر فقتل غيلة بيد خادم مأجور بعد وقت قصير .

وورثه فى حكمه ولداه ـ أحدهما سيف الدين الذى تولى الموصل ، والثانى نور الدين الذى خلف أباه فى الشام واتخذ حلب مقرا له .

وكان نور الدين شجاعا مقداما واصل سياسة أبيه فى مكافحة الصليبيين وتوحيد قوى المسلمين فى مواجهتهم .

وكان لذلك رد فعل قوى لدى الأوروبيين الذين سارعوا إلى تعبئة المشاعر ، وإثارة الحماس لدى الناس فى أوروبا لاستنقاذ ما زعموه مُلْكاً لهم من براثن المسلمين . وللقضاء على ما أسموهم أعداء لهم يشكلون خطورة عليهم وعلى بلادهم .

لقد أدى سقوط مدينة « الرها » فى يد المسلمين بعد أن حاصرها عماد الدين زنكى ثمانية وعشرين يوما فقط إلى حالة من القلق والخوف والألم بالنسبة إلى الأوروبيين ، وإلى حالة من النشوة واليقظة والفرح لدى المسلمين .

لم يستمر الحكم الأوروبى الصليبى فى الرها أكثر من سبعة وأربعين عاما وأصيب الأوروبيين من سقوطها فى أيدى أصحابها الأصليين بصدمة عنيفة ترددت أصداؤها فى كل مكان .

وكانت عودتها إلى المسلمين كسبا كبيرا لهم ، وتعزيزا للجهود التى بذلها عماد الدين زنكى فى توحيد الصف الإسلامى ، ووقوفا فى وجه النعرات الانفصالية والدعاوى القبلية والطائفية والعنصرية . وقد عادت ـ برجوع الرها إلى المسلمين ـ منطقة الفرات كلها منطقة إسلامية ، واستطاع المسلمون أن يسيطروا على طرق المواصلات التى تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة (١) .

رد الفعل الأوروبى

تضافرت جهود الأوروبيين التى باركها البابا « إيجينوس » الثالث على تكوين حملة صليبية ثانية بزعامة إمبراطور المانيا « كونراد» الثالث ، وإمبراطور فرنسا « لويس » السابع . وتقدم الزعماء بجيوشهما الجرارة صوب سوريا وكان ذلك فى أواخر عام ٥٤٢هـ ـ ١١٤٧ م

(١) ماهية الحروب الصليبية ١٣٧ .



ولكن هذه الحملة منيت بالفشل الذريع . وكاد ملك فرنسا أن يقتل بعد أن تمزق جيشه تمزقا تاما .

وقد كان لما أصاب هذه الحملة من فشل أثر طيب علي المسلمين . ذلك أنها مكنت الملك نور الدين محمود من فتح دمشق وبسط سلطانه عليها ، وتخليصها من ملكها الذى كان يمالئ الصليبيين ضد المسلمين على الرغم من إرادة شعبها الساخط على هذا الملك المنافق .

كان حاكم دمشق اسمه مجير الدين ، وكان يسبقه فى الحكم أخوه معين الدين . وهم يضيفون أنفسهم إلى الدين والدين منهم براء ، وقد صدق ابن جبير فى وصف هؤلاء حيث قال فى رحلته عند حديثه عن بعض المدن التى يسمى حاكمها باسم يضاف إلى الدين : وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، وقد تساوى فيها السوقة والملوك ، واشترك فيها الغنى والصعلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق ، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر ، المشتهر بالفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت به أى تبريح (١) .

ونحن نضيف إلى كلام ابن جبير ممن صحت فيهم هذه التسمية نور الدين ووالده عماد الدين فكلاهما أقام للدين صرحه ، ورد إليه روحه وبه أشرق نوره ، وعاد إليه سروره .

نتائج هذه الحملة

لقد توجت هزيمة هذه الحملة جهود نور الدين فى تدعيم موقفه فى مواجهة الصليبيين ، وضاعفت من عزمه على توحيد الصف الإسلامى ، واستطاع أن يبسط نفوذه على الشام بأسره وأصبحت دمشق هى مركز هذه الدولة .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٧٢ .

وباستيلاء نور الدين على دمشق أغلق الطريق الشمالى فى وجه مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم يبق أمام هذه المملكة إذا أرادت أن تتوسع سوى طريق الجنوب حيث الخلافة الفاطمية التى كانت تترنح فى ذلك الوقت . (١)

وأضعف فشل الحملة الثانية من عزم الصليبيين مؤقتا ، فقد عاد أكبر ملكين فى أوروبا وقد كانا زعيمى الحملة . ضعيفين كليلين . وانشغل كل منهما بنفسه ، وبخاصة ملك فرنسا لويس التاسع الذى وقع تحت تأثير إشاعة حول علاقة غرامية تربط بين زوجته « أليانور الأكويتانية » و « ريمون » أمير أنطاكية ، فاغتم ، وعاد أدراجه لا يستطيع غسل شرفه الذى دنس عسكريا وعرضيا .

الحملة الثالثة

كانت الحملة الثالثة فى سنة ٥٨٣ / ٥٨٤ هـ ـ ١١٨٧ / ١١٨٨ م وهى الحملة التى استطاع صلاح الدين أن يواجهها ويحطمها فى معركة فاصلة قضت على آمال الصليبيين وتطلعاتهم نحو مصر والشرق العربى . وسوف يأتى تفصيل ذلك فى الحديث عن صلاح الدين بمشيئة الله تعالى .

حملات أخرى

بعد هزيمة الصليبيين فى حطين أخذت حملات أخرى تتجه إلى الشرق فى محاولة لاسترداد بيت المقدس بعد أن حرره صلاح الدين ، وكان محور هجومهم مصر ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون تحقيق أحلامهم إلا بتوطيد أقدامهم فى مصر ، وهكذا أخذت هجماتهم تتوالى على مصر وكانت تمنى بالفشل . ومازال الصراع قائما بين مصر والصليبيين حتى تمكن الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١ م من أن يقضى على وجود الصليبيين نهائيا فى الشرق بعد أن استولى على معقلهم الذى كانوا يستندون إليه فى عكا . وكانت دماؤهم التى أريقت فى هذه المدينة العربية الصامدة هى التى سطرت نهاية قصة عدوانية صليبية استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان .

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ عبد الفتاح عاشور ص ٥٩ .

حملة الأطفال

ومن الطريف فى سلسلة حملات الصليبيين تلك الحملة التى تسمى بحملة الأطفال.

وهذه الحملة يتحدث عنها الدكتور قاسم عبده قاسم فى كتابه : ماهية الحروب الصليبية . حيث يقول :

خرجت من أوروبا الغربية حملة عجيبة هى تلك التى عرفت باسم « صليبية الأطفال » وهى حركة جاءت تعبيرا عن التدين العاطفى الذى ملك على الأوروبيين عقولهم فى تلك الأثناء كان ذلك بعد سنة ١٢٠٤ م وكان بمثابة رد الفعل الشعبى لفشل البابوية وحكام أوروبا فى أخذ مدينة القدس .

وقد خرج من طيات هذه الموجة الدينية صبى فرنسى فى الثانية عشرة من عمره اسمه « ستيفين » من مدينة « كلوى » الصغيرة فى اقليم « اورليانز » وفى أحد أيام شهر مايو سنة ١٢١٢ م ظهر هذا الصبى الراعى أمام بلاط الملك الفرنسى « فليب أوغسطس» ومعه خطاب قال: إن المسيح شخصيا أعطاه له لكى يوصله للملك . وقد زعم « ستيفين» أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال الأبرياء ، الذين سوف يستردون مدينة القدس ، بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وغيرهم من الكبار فى استعادتها بسبب ذنوبهم .

واجتذب « ستيفين » بضع مئات من الأطفال من باريس ومن غيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول الموكب عدد من صغار القساوسة ، وسار موكب حملة الأطفال الصليبية حتى « مرسيليا » فى انتظار أن ينشق البحر أمامهم فى معجزة مثل تلك التى حدثت لموسى ـ عليه السلام ـ ثم جاءت سفن لكى تنقل منهم عددا إلى جهة مجهولة . ويبدو أن أطفال المانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة « ستيفين » إلى حوض « الراين » فخرجت من المانيا بعد أسابيع قليلة من رحيل « ستيفين » حملة أطفال أخرى بقيادة صبى اسمه « نيقولا » من إحدى قرى إقليم « الراين » .

وانطلق الموكب العجيب من مدينة « كولون » وسار عبر جبال « الألب » فى إيطاليا ، وهناك انقسم قسمين :



أحدهما ركب السفن من ميناء « بيزا »

والقسم الآخر وصل إلى ميناء « برند يزى»

وعلى أرض ايطاليا تخلفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد ، أو الخوف من ركوب البحر .

أما الذين سافروا بالفعل فإن أحدا لم يعرف أبدا ماذا جرى لهم على وجه اليقين(١) لقد ظل حلم العودة إلى القدس يعاود الأوروبيين ، وفى سبيل ذلك تكبدوا الكثير من المخاطر والمشاق والحملات التى كان يمكن أن تؤدى تكاليفها الباهظة إلى إنعاش الشعوب وإنقاذها من براثن الجوع والمرض والتخلف . وهذه هى الرسالة الحقة للمسيح ـ عليه السلام ـ

وكان فى الإمكان الإبقاء على تلك الأرواح الكثيرة التى أزهقت والدماء الغزيرة التى أريقت ، ولكنه جنون التملك والقهر والسيطرة والتحكم والاستعمار .

ولم يهدأ للأوروبيين بال حتى دالت دولة الرجل المريض « تركيا » وقسّم الطامعون الأوروبيون دولته ، فأصبحت الأمة الإسلامية الواسعة نهبا مستساغا للمستعمرين الأوروبيين ، وذلك فى إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى التى نشبت سنة ١٩١٤ م وانتهت بوقوع العرب تحت براثن الاحتلال الأوروبى حيث فرضت كل دولة من دول أوروبا سيطرتها على جزء من الدول العربية . فقد أحكمت فرنسا قبضتها على سوريا ولبنان بعد أن وطدت أقدامها فى المغرب العربى ، وفرضت بريطانيا سلطانها على مصر والسودان وفلسطين والأردن والعراق وأطراف الجزيرة العربية . ودخل القائد الانجليزى اللورد اللبنى مدينة القدس ممتطيا صهوة جواده مشهرا سيفه وهو يقول فى لهجة تشف عن شماته وانتقام : الآن انتهت الحرب الصليبية .

ولم تلبث بريطانيا أن قدمت فلسطين لقمة سائغة لإسرائيل ومهدت ذلك بوعد بلفور المشئوم فى نوفمبر سنة ١٩١٧ م .

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ١٤٩ .


مصور
الأمارات اللاتينية في سورية
(بعد)
الحروب الصليبية الأولى
رسمه الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلم الناصر
دولة السلجوقيين
قونيه
بحر المشرق
أو البحر المتوسط الابيض
قبرس
دولة الخلفاء الفاطميين بمصر
حلب
حماه
حمص
بعلبك
دمشق
انطاكيه
اللاذقيه
جبيل
طرطوس
جزيرة ارادوس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيساريه
ارسوف
يافا
عسقلان
بيت المقدس
الكرك
العريش
الفرما
المنصورة
بلبيس
القاهرة
القلزم
الجيزه
دمياط
ملطيه
سروج
ارمينيه

مصر منذ الفتح الإسلامى

حتى حكم الأيوبيين

فتحت مصر إسلاميا سنة عشرين من الهجرة ، وكان ذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان قائد جيش الفتح عمرو بن العاص .

وبنى مدينة الفسطاط واتخذها عاصمة لمصر .

وكانت مصر قبل الفتح الإسلامى تحت سيطرة الرومان يحكمها رومى اسمه « جريج بن ميناهى » [1] ولقبه المقوقس .. وقيل اسمه قيرس [2] وقد عانى المصريون تحت حكم الرومان معاناة شديدة ، وكانت أحوالها تتدرج من سئ إلى أسوأ ، واشتط الرومان فى فرض الضرائب على المصريين وجمعها ، ولم يكن هناك شئ لم تفرض عليه الضريبة حتى الخنازير والماشية بأنواعها كل حيوان صغر أو كبر فرضت عليه ضريبة ، فضلا عن الضريبة التى فرضت على الناس جميعا صغيرهم وكبيرهم .

وكانت هذه الضرائب تحصل قسرا ، ولا يعفى منها أحد مهما اشتدت حاجته وضاقت به سبل الحياة .

وكان أثر ذلك أن ضاق الناس بالحكم الرومانى ، وكثرت ثوراتهم ضده وتزايدت الهجرة من المدن إلى الأديرة والمعابد هربا من هذه الحالة السيئة وعلى الرغم من أن المصريين كانوا يدينون بالمسيحية وهى ديانة الرومان فى ذلك الوقت إلا أن التعصب المذهبى فى الديانة المسيحية كان بالغ القسوة والعنف . كان المصريون يتبعون الكنيسة اليعقوبية ، وكان الرومان يتبعون الكنيسة الملكانية .

وكان المقوقس واسمه « قيرس » عنيفا خيّر المصريين بين الدخول فى مذهب هرقل أو الاضطهاد . ولم يقبل المصريون سوى مذهبهم ، وكان نتيجة ذلك أن هرب «

---

(١) بدائع الزهور ص ١٠ .

(٢) مصر فى العصور الوسطى د/ على إبراهيم حسن ص ٢١ .



بنيامين ، بطريق الأقباط فى مصر تخلصا من الاضطهاد وقاسى المصريون بعده أشنع ألوان العذاب .

وجاء الفتح الإسلامى منقذا لهم ، حيث وجدوا فى ظله العدل والمساواة والأمن والاطمئنان ، وأقبل المصريون على الدين الإسلامى يعتنقونه طواعية واختيارا ، وحبا فى مبادئه الكريمة وتعاليمه السامية .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر دولة إسلامية ولم تلبث أن تَعَرَّب لسانها ، وأصبحت اللغة العربية هى لغتها الرسمية ثم أصبحت مصر قلب العروبة النابض الذى يخفق بحبها ، ويتحدث باسمها ويدافع عنها ، ويذيع محامدها ، ويضحى بأغلى ما يملك فى سبيل مجدها وعزها وشرفها وتقدمها .

جاء فى مقدمة تاريخ ابن إياس : قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لما فرغ من الصلاة : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا فتحت مصر عليكم بعدى فاتخذوا منها جندا كثيفا . فذلك الجند خيرأجناد الأرض** » . فقيل : ولم ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « **لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة** »

وقال ﷺ « **مصر كنانة الله فى أرضه . ما كاد أهلها أحد إلا كفاهم الله مئونته** » (١) .

وظلت مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين وصدر الدولة العباسية ولاية من ولايات الدولة الإسلامية الواسعة ، يحكمها والٍ من قبل الخليفة .

كان أول حاكم لها فى الإسلام هو عمرو بن العاص الذى فتحها ، وظل واليا بقية خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وصدرا من خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم تولاها عبد الله بن أبى السرح بقية خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم تولاها قيس ابن سعد بن عبادة ومن بعده ـ مالك بن الحارث الملقب بالأشتر النخعى . كان ذلك فى عهد على ـ رضى الله عنه ـ وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، بداية الحكم

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ١١ .

الأموى. تولى مصر محمد بن أبى بكر ، وقتل ، ثم أعيد عمرو بن العاص واليا على مصر فظل بها حتى مات سنة ثلاث وأربعين .

ثم توالى الأمراء فى عهد معاوية وابنه يزيد ، حتى إذا ما تولى مروان بن الحكم الخلافة جعل عليها ابنه عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز . وظل واليا على مصر حتى توفى سنة ست وثمانين .

وتولى بعده ولاة من قبل الخلفاء الأمويين كان آخرهم الأمير عبيد الله بن مروان . الذى هرب من وجه العباسيين بأمواله إلى بلاد النوبة .

قصة للاعتبار

قال ابن إياس : لما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس ، وولى عبد الله السفاح توجه عبد الله بن على العباسى إلى الشام فى طلب من بقى من بنى أمية ، ثم أمر بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان أمير مصر .

فلما بلغ الأمير عبيد الله ذلك حمل خزائن أمواله على بغال ، وأخذ جماعة من عبيده وغلمانه ، وتوجه هاربا إلى بلاد النوبة .

وهناك وجد مدائن خربة وبها قصور محكمة البناء فنزل فى أحد هذه القصور بعد أن أمر غلمانه بكنسه ورشه ، ثم فرشه بما كان قد حمله معه من فرش نفيسة ، ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : امض إلى ملك النوبة ، وخذ لى منه أمانا على نفسى من القتل .

فخرج الغلام فتوجه إلى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة .

فلما دخل عليه قال له : إن الملك يقرئك السلام ويقول لك : أجئت إليه محاربا أم مستجيرا ؟

فقال له الأمير عبيد الله : رد عليه منى السلام ، وقل له : قد جاء إليك ليستجير بك من عدو يريد قتله .

فمضى ذلك القاصد بالجواب ،، فغاب ساعة ورجع ، فقال : إن الملك قادم عليك فى هذه الساعة .

فقال عبيد الله لغلمانه : افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة . وجعل مرتبة فى صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه .

فبينما هو على ذلك إذ دخل عليه غلامه وقال له : إن ملك النوبة قد أقبل .

فقام الأمير عبيد الله ، وصعد إلى أعلى القصر ونظر إلى ملك النوبة فإذا هو رجل أسود ، طويل القامة ، نحيف الجسد ، وعليه بردان ، قد اتزر بأحدهما وارتدى الآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ، ومعهم حراب بأسنة تلمع .

فلما رآه الأمير عبيد الله استصغر أمره واحتقره . فلما قرب من المكان الذى فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان فى أيديهم الحراب .

فلما دخل ملك النوبة على عبيد الله ، وأحاط ذلك العسكر بالمكان ووقعت عين الملك على الأمير ، بادر إلى يد الأمير وقبلها .

فأشار إليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التى وضعها له فأبى ، وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله .

فقال عبيد الله للترجمان : لم لا يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له ؟

فقال له الترجمان لم لا تجلس علي هذا الفراش . فقال الملك : قل للأمير : كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار عنيد متكبر .

ثم إنه جلس بين يدى الأمير عبيد الله وجعل ينكت فى الأرض بإصبعه طويلا .

ثم إنه رفع رأسه إلى الأمير عبيد الله وقال له : كيف سُلِبْتُم ملككم ، وأُخِذَ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟

فقال له عبيد الله : إن الذى سلب منا ملكنا أقرب إلى نبينا منا .

فقال الملك : فكيف تلوذون إلى نبيكم بقرابة ومنكم من يلبس الديباج وهو محرم

عليكم ، ومنكم من يُركّب فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ، ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا ؟

وبلغنا أنك لما وليت مصر كنت تخرج إلى الصيد وتكلف أهل القرى مالا يطيقون ، وتروم الهدايا من أهل القرى . وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية ؟

وأخذ ملك النوبة يعدد على الأمير عبيد الله جملة ذنوبه ، والأمير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحد .

ثم قال الملك : فلما استحللتم ماحرمه الله عليكم سلبتم ملككم وأخذ منكم ، وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم ، وأنا أخاف على نفسى إن أنزلتك عندى من أعدائك الذين يبحثون عنك .

ثم قال له : ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام .

فما سمع الأمير عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة وعاد إلى مصر فقبض عليه ، وأرسل إلى المنصور فسجنه ، ومات فى السجن (١) .

فى عصر الخلافة العباسية

تولى ولاية مصر فى عهد الخلفاء العباسيين جملة كبيرة من الولاة . منهم من يمت إلى الخلفاء العباسيين بصلة قرابة ، ومنهم من تؤهله كفاءته ومقدرته لذلك ، ومن هؤلاء السرى بن الحكم ، وابنه محمد بن السرى الذى توفى فى عهده الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ .

ومما يدل على أريحيته وكرمه أنه لما مات الإمام الشافعى قيل له : إن الإمام أوصى ألا يغسله أحد إلا أنت .

فقال : وهل على الإمام دين ؟

---

(١) بدائع الزهور ص ١٨ .

فقيل له : نعم ، فحسبوا ما عليه فإذا هو سبعون ألف درهم فقضاها عنه ، وقال : هذا غسلى إياه . وإنما كنى الإمام عن الدين بالغسل . وكان ذلك ذكاء من كليهما ..

وكان آخر الولاة العباسيين الأمير أحمد بن محمد بن المدبر الذى فشا الظلم فى أيامه ، والظلم مؤذن بخراب العمران ، فقد أجدبت البلاد فى عهده ، واشتد القحط ، وضج الناس بالشكوى ، وكانت هذه أول شدة لحقت بمصر منذ الفتح الإسلامى .

وكان الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل . وفى عهده استقل أحمد بن طولون بحكم مصر ، وانتزعها من الخلافة العباسية .

وكان ذلك فى سنة ٢٥٤هـ .

* * *

الدولة الطولونية فى مصر

مؤسس هذه الدولة أحمد بن طولون ، وهو تركى الأصل . تولى حكم مصر سنة ٢٥٤هـ . فى عهد المعتز بالله .

وحين تولى أحمد بن طولون أمرمصر أخذ فى أسباب عمارة القرى وتعمير جسورها وقناطرها وحفر الخلجان والعناية بأمرالبلاد حتى استقامت الأحوال ، وكانت قد ساءت وانحط خراجها فى عهد من سبقه من العمال .

كان فى أول الأمر واليا من قبل الخليفة العباسى ولكن تبعيته للخلافة أصبحت اسمية فقط فقد استقل فعلا بالأمر ، ثم بسط نفوذه على الشام سنة ٢٦٤هـ .

وكان ابن طولون أحسن مثل للحاكم العادل والوالى المصلح ، وكان عهده عهد سلام شامل ورخاء تام وفنون وآداب . وخلف عدة آثار ومازال المسجد الذى أنشأه باقيا حتى الآن . وهو الذى أنشأ مدينة القطائع وجعلها عاصمة للديار المصرية بدلا من الفسطاط والعسكر .

وتوفى ابن طولون سنة ٢٧٠هـ . وخلفه ابنه فى حكم مصر واسمه خمارويه .

وقد حزن الخليفة العباسى وهو « المعتمد » عليه وقال شعرا فى رثائه :

إلى الله أشكو أسى ... عرانى كوقع الأسل

على رجل أروع ... يُرَى فيه فضل الرجل

شهاب خبا وَقْدُهُ ... وعارضُ غيثٍ أَفَلْ

شكت دولتى فقده ... وقد كان زين الدول (١)

ووثق « خمارويه » صلته بالخليفة العباسى فى بغداد بأن زوج ابنته « قطر الندى » من ابن الخليفة المعتمد ، وجهزها خمارويه جهازا لم يُرَ مثله .

وتوفى خمارويه سنة ٢٨٢هـ وتولى بعده من أبنائه من لم يستطيعوا الاستمرار بالحكم على الصورة التى كان عليها فى عهد الأب والجد . فسقطت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ .

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٦١ .

ولم تكمل الدولة الطولونية نصف قرن من الزمان فى مصر ، ولكن مصر انتعشت فى هذه الفترة القصيرة اقتصاديا وصناعيا وزراعيا وعسكريا وسياسيا ، حتى لقد قوى الجيش وأنشئ أسطول بحرى ، وأصبحت مصر امبراطورية تمتد من العراق إلى بلاد برقة بما فى ذلك آسيا الصغرى والشام وفلسطين ، وقد رثاها الشعراء بكثير من الشعر، ومن ذلك ما قاله الشاعر أحمد بن يعقوب :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم ... فارتع وعج بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت ... واسرح بزهرة ذلك البستان
وإذا اعتبرت ففيه أيضا عِبرةٌ ... تنبيك كيف تَصَرُّفُ العصران[1]

ومما قاله سعيد القاص :

وكان أبو العباس أحمدُ ماجدًا ... جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها ... وإشراقها فى عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون همة ... محلقة بين السماكين والفخر [2]
فإن كنت تبغى شاهدًا ذا عدالة ... يخبر عنه بالجلى من الأمر
فبالجبل الغربى خطة يشكر ... له مسجد يغنى عن المنطق الهذر
فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله ... لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر[3]

مصر بعد الطولونيين

عادت مصر إلى حضن الخلافة العباسية من جديد . كانت فى عهد ابن طولون أشبه بالمستقلة . لقد كان الخراج حين تولاها بيد غيره فاحتال حتى صار الخراج بيده ، ثم ضمن للخليفة العباسى ببغداد أن يقدم له جزءاً صالحه عليه ، ووفى بذلك ، وصار الباقى فى يده يصرفه فى شئون البلاد وإصلاحها وتعميرها ، حتى نهضت مصر على يديه كما تقدم .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى مصر لمحمود مصطفى ص ١١٥ .

(٢) السماكين والفخر : ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر ، وهى من الميزان.

(٣) الأدب العربى ص ١١٦ .

عادت مصر إلى الخلافة العباسية تابعة من جديد ، وكان ذلك فى عصر المكتفى بالله الخليفة العباسى .

وتولى على مصر عدة ولاة لم تهدأ الاضطرابات فى عهودهم حتى تولاها محمد ابن طغج الإخشيدى سنة ٣٢٣هـ

الدولة الإخشيدية

معنى كلمة « الإخشيد » باللغة الفرغانية ملك الملوك ، وكان أبو بكر محمد بن طغج ـ أى عبد الرحمن ـ بن جف من أولاد ملوك فرغانة فى بلاد ما وراء النهر .

وكان الملوك يلقبون بلقب الإخشيد ، كما يلقب ملوك الروم بقيصر ، وملوك فارس بكسرى ، وملوك مصر بفرعون ، وملوك اليمن بتُبَّع وملوك الحبش بالنجاشى .

وكان « جف » محمد متصلا بالمتوكل الخليفة العباسى ، ومات فى نفس الليلة التى مات فيها المتوكل .

وكان « طغج » والد محمد متصلا بالطولونيين فى عهد خمارويه ، وقد ولاه خمارويه دمشق وطبرية .

وعاد « طغج » إلى بغداد بعد سقوط الدولة الطولونية ، وتقلبت به الأيام هو وأسرته حتى اتصل بوالى مصر من قبل العباسيين سنة ٢٩٧ هـ واسمه أبو منصور تكين . وحسنت منزلته لديه .

وجاء المقتدر العباسى فولى محمد بن طغج الرملة ثم دمشق ، ثم عهد إليه بولاية مصر سنة ٣٢٣هـ على أثر انتصاره على الفاطميين الذين حاولوا غزو مصر فى ذلك الوقت .

واستطاع أن يستقل بالأمر ، وأن يثبت سلطانه فى مصر والشام . ونهض بمصر سياسيا وعسكريا واقتصاديا .

وتوفى محمد بن طغج سنة ٣٣٤هـ وترك من بعده ولدين هما « أنوجور » وكنيته أبو القاسم ، وعلى وكنيته أبو الحسن ، وكان قد عهد بتربيتهما إلى أبى المسك كافور الإخشيدى ، وكان خادما مملوكا له وتولى الولدان الحكم الواحد تلو الآخر ، حتى ماتا ، وقيل : إن موتهما كان وراءه كافور الإخشيدى . وقد كان وصيهما فى الإمارة .

وتولى الحكم بعدهما كافور الإخشيدى سنة ٣٥٥هـ

ولم يحمد الناس سيرته ، فقد كان عبدا خصياً أسود ، وتوالت فى عهده المصائب والنكبات على مصر والشام ، وعلى الرغم من ذلك كان الشعراء يقصدونه بالمدح رغبة فى عطاياه ، وقد قصده المتنبى أعظم شعراء عصره فمدحه ، فلما لم يجد عنده مايؤمله هجاه .

فمن قوله يمدحه :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وفيها يقول :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تملى على وأكتب

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ... ويمم كافوراً فما يتغرَّبُ

فتى يملأ الأحلام رأيا وحكمة ... ونادرة أحيان يرضى ويغضب

إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه ... تبينت أن السيف بالكف يضرب(١)

ولما يئس من كافور هجاه بقصيدة تركها وراءه وهرب من وجهه ، وفيها يقول :

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

وفيها يقول :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علم الأسود المخصى مكرمةً ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد؟

أم أذنه فى يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود؟

وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود؟

وكان حظ مصر من كافور الإخشيدى أن تعرضت بأجمعها للهجاء من المتنبى لأنهم ارتضوا بهذا العبد أن يكون واليا عليهم . فقد قال المتنبى فى ذلك :

سادات كل أناسٍ من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبُدُ القُزُمُ

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم؟ ... ياأمة ضحكت من جهلها الأمم

---

(١) الأدب العربى وتاريخه ص ١٦٩ ـ مصر فى العصور الوسطى ص ٧٧ .

وقال فى ذلك أيضا :

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد [1]

قضية تدعو للتساؤل

والذى أشار إليه المتنبى فى هجائه يدعو للتساؤل حقا إذ كيف تمكن كافور وهو عبد من أن يتامر على مصر ويتحكم فى أمرها ، وهو عبد لا يملك أمر نفسه ؟

إن مصر ليست بناقصة الأهلية أو ضعيفة الشخصية ، وفيها من أبنائها من لديه القدرة على حكم البلاد وتصريف الأمور بمنتهى القدرة والكياسة والفطنة .

ولعلنا نعتذر عن فترة حكم كافور التى لم تزد على ثلاث سنين استقلالا بنفسه بعد وفاة سيديه اللذين كان وصيا عليهما . بأنها فترة شاذة ولم يكن المصريون راضين عن هذه الفترة ، وقد شغلهم عن البطش بكافور وإقصائه ماحدث من كوارث ومصائب فقد وقعت فى أثناء حكمه زلازل مروعة وشبت نيران هائلة أكلت الفسطاط ، وأغار ملك النوبة على مصر وعاث فى الأرض فساداً ، وأمسك النيل عن الفيضان أو كاد ، واستمر فى إمساكه تسع سنوات منها سنوات حكم كافور الإخشيدى . واشتد الغلاء وكثر الموت وعم القحط .

لقد اعتبر المصريون حكم كافور إحدى هذه البلايا التى قد شغلوا بها عنه . فلم يكن المصريون مستكينين كما يقول المتنبى ، ولكنهم كانوا فى حالة قاسية مزهقة للأرواح، ومضعفة للنفوس . وقد منَّ الله على مصر بزوالها والحمد لله.

على أن هناك أمرا هاماً لا ينبغى إغفاله وهو إخلاص مصر لدينها وتفانيها فى تطبيق تعاليمه ، وقد سمعوا قول الرسول ﷺ « **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة** »[2] .

---

(٢) الأدب العربى فى مصر ص ١٧٠ .

(١) أخرجه أحمد والبخارى وابن ماجه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ جامع الأحاديث للسيوطى ١/ ٥٧٩ برقم ٢٩٩٠ .

ولم ير المصريون من حكمه ظلما ولا غشما ، ولكنهم رأوا كرما وسماحة وفطنة وذكاء وخبرة بالسياسة . وعدم حمدهم سيرته يرجع إلى شخصه لا إلى سياسته كما يرجع إلى ما صاحب عهده من نوازل .

فلعل سكوت المصريين على حكم كافور كان تأدبا بأدب الحديث الشريف ووقوفا مع حكم الشرع الحنيف ، الذى لا يرى الخروج على الحاكم مادام متبعا لأحكام الله ، مطبقا لشرع الله .

مصر فى ظل الفاطميين

أول خليفة فاطمى جاء إلى مصر هو المعز لدين الله .

جاء فى نسبه : المعز أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القاسم بالله محمد المهدى عبيد الله المعز القاضى ..

قدم المعز إلى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦١هـ بعد انقراض الدولة الإخشيدية التى انتهت بموت كافور سنة ٣٥٧هـ .

وكان قد سبق المعز إلى مصر قائده جوهر الصقلى الذى قدم مصر وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر .

حكم جوهر الصقلى مصر نيابة عن المعزمن سنة ٣٥٨هـ حتى سنة ٣٦١هـ .

وكانت القاهرة التى بناها جوهر اسمها «المنصورية» ، فلما جاء المعز سماها القاهرة.

وكانت الدولة الفاطمية قد تأسست فى المغرب سنة ٢٩٧هـ ومنذ تأسيسها ، والحملات الفاطمية تتوالى على مصر لفتحها دون جدوى لقد فشلت ثلاث حملات وجهت لمصر سنة ٣٠١هـ وسنة ٣٠٧هـ ، وسنة ٣٢١هـ . ولم تنجح إلا الحملة الرابعة التى قادها جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ .

القول فى نسب الفاطميين

اختلف المؤرخون حول نسب الفاطميين ، فمنهم يرجع ذلك النسب إلى السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ بنت الرسول ﷺ ومنهم من يطعن فى هذا النسب

ويقول إنهم إلى الحسين بن محمد بن أحمد بن قداح ، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ..

وقد تعصب لكل الرأيين رجال . فمن العلماء الذين يقولون بالرأى الأول ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ، وابن خلدون فى مقدمته ، وفى كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » والمقريزى فى كتاب الخطط. ..

ومن العلماء الذين يقولون بالرأى الثانى ابن النديم فى كتاب « الفهرست » وابن خلكان فى الوفيات ، والذهبى فى تاريخ الإسلام .

ولكل من هؤلاء وهؤلاء حجة . ولكن كثيرا من المنصفين يرجحون نسبة الفاطميين إلى السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ مستدلين بأن هذا النسب لو لم يكن صحيحا لما سكت العباسيون عنه ، وكانوا يناهضونهم فى الحكم وينافسونهم فى الخلافة ولوجدوا هذه فرصة ذهبية يطعنون بها على الفاطميين .

وعلى أى فقد استقلت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبسطت نفوذها على الشام وفلسطين والحجاز .

وتوالى الخلفاء الفاطميون على مصر أولهم المعز لدين الله الفاطمى من سنة ٣٦٢هـ حتى سنة ٣٦٥هـ .

* وجاء ابنه العزيز بالله من سنة ٣٦٥هـ حتى سنة ٣٨٦هـ وفى عهده كثرت الفتوحات العظيمة وتمكن من توسيع رقعة الخلافة الفاطمية حتى أصبحت تمتد من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا .

*وجاء بعده الحاكم بأمر الله الذى رُمى بالجنون بسبب تصرفاته المتناقضة وظل خليفة على مملكته من سنة ٣٨٦هـ حتى سنة ٤١١ هـ ومات قتيلا بعد أن غالى فى أحكامه وآرائه وأفكاره حتى قيل إنه ادعى الألوهية .

ولم يسكت المصريون على هذه الحماقة ، وعبر بعضهم عن هذا السفه بأن كتب بيتين فى قرطاس ورماه به . فلما فتح القرطاس وجد به مكتوبا :



بالجور والحماقة قد رضينا	وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم الغيب	بين لنا كاتب البطاقة

فلما قرأ هذه البطاقة سكت عما كان يدعيه .

*وجاء بعده ابنه الظاهر لدين الله واسمه على . وظل خليفة من سنة ٤١١هـ حتى سنة ٤٢٧هـ .

*وجاء بعده ابنه المستنصر بالله ، وكان فى السابعة من عمره ، وقد عمّر فى الخلافة فقد ظل خليفة لمدة ستين سنة من سنة ٤٢٧هـ حتى سنة ٤٨٧هـ .

*وجاء بعده ابنه المستعلى بالله ، وفى عصره امتلك الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩١هـ . وظل خليفة من سنة ٤٨٧هـ حتى سنة ٤٩٥هـ

*وجاء بعده ابنه ــ الآمر بأحكام الله ، وظل خليفة من سنة ٤٩٥هـ حتى سنة ٥٢٤هـ .

* فتولى بعده عمه الحافظ لدين الله وظل خليفة من سنة ٥٢٤هـ حتى سنة ٥٤٤هـ .

* وجاء بعده الظاهر بالله سنة ٥٤٤هـ حتى سنة ٥٤٩هـ .

* ثم الفائز بنصر الله من سنة ٥٤٩هـ حتى سنة ٥٥٥ هـ .

قال ابن إياس . وفى عهده نقل رأس الإمام الحسين ــ رضى الله عنه ــ من عسقلان إلى القاهرة وكان ذلك فى سنة ٥٤٩هـ وذلك بسبب غلبة الفرنج على عسقلان ، وبنى الفائز للرأس هذا المشهد ودفنه به .

* وجاء بعد الفائز العاضد بالله وهذا آخر الخلفاء الفاطميين ، فقد جاء بعده الأيوبيون .

حالة مصر فى عهد الفاطميين

كان عهد الفاطميين فى مصر عهد إصلاح شامل ، فقد بنوا مدينة القاهرة ونشطوا فى بناء المساجد ، فبنوا الجامع الأزهر الذى يعد الآن أقدم جامعة علمية فى العالم ،

وأسسوا دور الكتب الجامعة ، وفاقت القاهرة فى عهدهم بغداد وقرطبة فى النهضة العلمية ، واجتذب الخلفاء الشعراء والعلماء والأدباء إلى بلاطهم .

لم يكن هناك عيب إلا المغالاة فى عقائدهم وقد حاولوا بثها فى الناس دون ضغط أو إكراه .

وعلى الرغم من طول مدة الفاطميين فى مصر من سنة ٣٥٨هـ حتى سنة ٥٦٧هـ إلا أن مصر لم تصبح دولة شيعية .

ظل المصريون على عقائدهم السنية . لا يكنون للخلفاء الراشدين إلا كل تجلة واحترام ، ويدينون للصحابة الأجلاء كلهم بالولاء والحب لا يفرقون بين أحد منهم . وعلى الرغم مما أظهره بعض الخلفاء من سب بعض الصحابة والأمر بكتابة ذلك على جدران المساجد إلا أن أحدا من المصريين لم يتأثر بذلك . وهذه نعمة من الله أكرم بها مصر ، وأنعم بها عليهم أن حفظ عقائدهم من الزلل والانحراف .

وفى وقتنا هذا على كثرة ما يوجد من مشاهد لأهل البيت فى مصر ، وكثرة زوار هذه المشاهد من الناس والاحتفال بموالد أصحابها إلا أن عقائد الناس سليمة حولها ، ولو سألت أى زائر عن سبب زيارته للمشهد يقول :

أزوره لانتساب صاحبه إلى الرسول ﷺ ومحافظة على صلة الرحم . ولا أعتقد فى صاحب المشهد إلا أنه بشر لا يضر ولا ينفع ، ولكنه ذو نسب طاهر يتصل بالنبى ﷺ .

المذهب السنى والمذهب الشيعى

لقد جهد الفاطميون فى نشر المذهب الشيعى ، وملخصه أن أحق الناس بالخلافة بعد النبى ﷺ هو على بن أبى طالب . والخليفة فى رأيهم معصوم من الخطأ صغيره وكبيره ، وهو وحده الذى يستطيع الإلمام بمعانى القرآن ظاهره وباطنه ، ومن أجل ذلك يجب على الشعب أن يطيع خليفته طاعة عمياء (١) .

---

(١) معالم تاريخ العصور الوسطى ـ محمد رفعت ـ محمد أحمد حسونة ص ١٢٤ .

وغالى بعض الشيعة فزعموا أن جزءا إلهيا حل فى على ـ رضى الله عنه ـ وبعض ذريته [1] وتبرءوا من كل من وقف فى طريق خلافته .

وزعم الشيعة أن الخلافة ركن الدين لا يجوز للرسل ـ عليهم السلام ـ إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله[2] وأنه ﷺ أوصى لعلي بالخلافة .

أما المذهب السنى ، فهو ما يميل إليه أهل الحق والجماعة من المسلمين ، وهم يذهبون إلى صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ـ رضى الله عنهم ـ كما يذهبون إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، فلا يدخل فيه الإقرار باللسان ولا عمل الجوارح ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن لا كافر ، ويذهبون إلى إثبات صفات المعانى لله تعالى وهى القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، وأن العبد مختار فى أفعاله غير مجبر ، وأنه لا عصمة لبشر غير الأنبياء عليهم السلام [3] .

جهود فى سبيل نشر المذهب الشيعى

حاول الفاطميون نشر مذهبهم الشيعى ولكن دون إكراه . فحين جاء المعز أمر بأن تنقش على جدران مصر القديمة عبارة : خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

واستعان بالشعراء وهم لسان حال الدول فى كل زمان ومكان ، وأغدق عليهم الهبات الكثيرة ، وكثير من الشعراء كان يتكسّب بشعره ، وهؤلاء يقولون مالا يفعلون ، فأقبلوا يمتدحون الخلفاء بما يوافق هواهم وآراءهم ، ولذلك نسمع شاعرا مثل ابن هانئ الأندلسى يقول فى المعز لدين الله :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار

---

(١) الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية لعبد المتعال الصعيدى ص ٧٤ .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٧٧ .

(٣) الوسيط ص ٧٥ .

ولكن هذا الشعر وأمثاله لم يكن له رواج عند الناس ، ولم يقابلوه إلا بالفتور . فعاد الشعراء يكتفون بالمدح الذى تعوده الناس من وصف الخليفة بالكرم والجود والإقدام والشجاعة والحلم والعدل وغير ذلك من الصفات ، بل أن بعضهم اتخذ شعره وسيلة للرد على بعض الخلفاء فى مغالاتهم فى اعتقاداتهم ، كما رأينا فى صاحب البطاقة التى ألقاها على الحاكم .

وكما نري فى ذلك الشاعر الذى ساءه ما فعل العزيز فى إكراه الناس على اعتناق المذهب الفاطمى ، وتجرئه على سب الخلفاء الثلاثة الراشدين الأول على المنبر وأمره الخطباء بذلك ، وأمر بنقش لعن الصحابة على الجدران وغير ذلك من الأفعال .

فكتب ذلك الشاعر أبياتا ووضعها على المنبر فلما صعد العزيز ليخطب إذا بهذه الورقة تطالعه وفيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا … يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا … فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته … فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة … وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم … يقصر عنها طمع الطامع (١)

نعود فنقول : لقد نجى الله مصر وعصمها من زيف المذاهب ، ومغالاة الفرق . وحفظها على الرغم من أن دعاة الرفض كانوا هم الحكام ، وأكرمها بأن حول الأزهر الذى بني لنشر المذهب الشيعى إلى منارة هدى تدعو إلى السنة والاعتدال .

* * *

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ١٠٧ .

كيف قامت الدولة الأيوبية ؟

قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية . ومؤسس الدولة الأيوبية هو صلاح الدين الأيوبى .

وكان آخر خلفاء الدولة الفاطمية العاضد بالله ، الخليفة الحادى عشر من سلسلة الخلفاء الفاطميين ـ كما علمنا ـ

وهو العاضد بالله أبو محمد عبد الله بن الحافظ بن المستنصر .

والحافظ لقب للخليفة عبد المجيد بن معد ـ الملقب بالمستنصر بالله ـ بن على بن منصور الملقب بالحاكم بأمر الله .

كان يسبق العاضد بالله فى الخلافة الفاطمية ابن عمه الفائز بنصر الله واسمه عيسى وكنيته أبو القاسم ابن عبد المجيد بن معد .

وقد استمر الفائز فى الخلافة خمس سنين وعدة أشهر وتوفى فى رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة . فبويع من بعده للعاضد بالله .

كان الخلفاء الفاطميون يعتنون بالألقاب يلقبون بها أنفسهم ، وكذلك كان الخلفاء العباسيون يفعلون . وهى ألقاب تشريفية مفرغة فى بعض الأحيان من معناها وكثيرا ما كان يصدق عليها قول الشاعر :

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

إن اللقب يشرف بصاحبه ويشرف صاحبه به حين يكون مطابقا لمضمونه متحليا بمفهومه كما انطبق لقب الصديق على أبى بكر ، ولقب الفاروق على عمر ـ رضى الله عنه ـ

أما فيما بعد فقلما طابق اللقب معناه ، وقد حكى ابن إياس فى تاريخه أن ألقاب الفاطميين وضعت لهم قبل أن يولدوا بسنين : قال : إن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية حين جاء إلى مصر ، قال لبعض علماء مصر : اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، حتى إذا تولى منا أحد تلقب بها .

فكتب له ألقابا كثيرة آخرها العاضد بالله . فاتفق أن آخر من تولى منهم تلقب بالعاضد بالله ، وبه انقرضت دولتهم [1] .

مجئ صلاح الدين إلى القاهرة

كان سبب مجئ صلاح الدين إلى القاهرة أن العاضد بالله استنجد بحاكم الموصل القوى الذى استطاع أن يسيطر على الشام وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ليعينه على مواجهة الصليبيين الذين حاولوا الاعتداء على الديار المصرية ، فأسرع نور الدين ـ الذى كان هدفه الأول الذى كرس حياته له القضاء على الصليبيين ـ إلى جانب نجدته ، وأرسل إليه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، ومعه صلاح الدين على رأس حملة وصلت إلى مصر ، ما إن سمع بها الصليبيون حتى رحلوا عن مصر .

ويقى أسد الدين وابن أخيه فى مصر . حتى تقلد صلاح الدين الوزارة للعاضد بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه الذى كان العاضد قد قلدها إياه .

ومازال أمره يقوى ويرتفع حتى استقل بالأمر بعد وفاة العاضد بالله .

وسيأتى تفصيل لذلك بعد إن شاء الله .

ولنعد الآن إلى علاقة صلاح الدين بنور الدين .

من نور الدين ؟

هو الأمير نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر الملقب بقسيم الدولة جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل .

كان أبوه عماد الدين يلقب بالملك المنصور . فوض إليك السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه السلجوقى ولاية بغداد سنة إحدى وعشرين وخمسمائة .

وكان يتولى أمر الموصل أبو سعيد أق سنقر البرسقى الغازى ، فقتلته الطائفة الباطنية التى كان قد استشرى أمرها ومالأت الصليبيين ضد المسلمين . وبعد قتله عهد

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص٥٣ ج ١ دار الشعب ١٩٦٠ .

السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى بأمر الموصل إلى عماد الدين زنكى فتولاها فى التاريخ الذى ذكرناه .

وعهد إليه السلطان أيضا بتربية ولديه ألب أرسلان ، وفروج شاه ، ومن هنا لقب بالأتبكى . وسيأتى تعريف لهذا الاصطلاح .

واستطاع عماد الدين أن يثبت وجوده فى إدارة الموصل ، ويوسع دائرة ملكه فيها ، فبسط سلطانه على ما جاورها من البلاد ، وتمكن من افتتاح « الرها » وكانت تحت حكم الصليبيين ، وكان افتتاحها فى يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكان ملكها هو « جوسلين الأرمنى » .

ثم ضم إلى ملكه قلعة « جعبر » وكانت تحت ولاية سيف الدولة أبو الحسن على بن مالك الحمدانى .

وقتل عماد الدين غيلة بيد خادمه وهو نائم فى منتصف ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة [1] ، وحمل إلى صفين ودفن بها .

وقد أفاضت المصادر فى الحديث عن عماد الدين هذا وتحدثوا عن شجاعته وشهامته وغيرته الإسلامية مما جعله يناصب الصليبيين العداء ، ويصرف همته كلها إلى تخليص البلاد الإسلامية من شرهم . قال شمس الدين الذهبى عنه : لقد استولى على البلاد وعظم أمره ، وافتتح « الرها » وكانت خاضعة للصليبيين ، وتملك حلب والموصل وحماة وحمص وبعلبك وبانياس ، وحاصر دمشق وصالحهم على أن خطبوا له بها بعد حروب يطول شرحها ، واستنقذ من الفرنج « كفرطاب » و « المعرة » ـ بلد الشاعر أبى العلاء المعرى ، كان يطلق عليها معرة النعمان ـ وهزم الصليبيين وشغلهم بأنفسهم ودانت له البلاد .

وكان بطلا مقداما شجاعا كأبيه ، عظيم الهيبة مليح الصورة ، أسمر جميلا ، قد وخطه الشيب ، وكان يضرب به المثل ، لا يقر ولا ينام ، فيه غيرة حتى على نساء

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٤٣ .



جنده ، عمر البلاد ، وجاءه التقليد من السلطان محمود بحلب فدخلها ورتب أمورها وافتتح مدائن عدة وكان أعداؤه محيطين به من الجهات وهو ينتصف منهم ويستولى على بلادهم . ولكنه بكل أسف قتل غيلة بيد خادمه الذى فر بعد مقتله إلى جعبر (١) . فتولى ابنه نور الدين محمود الأمر بعد أبيه ، وواصل العمل فى توطيد ملك أبيه . فسار فى اتجاه حلب حتى امتلكها ، ثم حاصر دمشق وألح عليها حتى افتتحها سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وتمكن من إخضاع بقية الشام ، وفرغ نفسه تماما لتحرير الأماكن الإسلامية التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من المسلمين ، وأقاموا فيها ممالك صليبية .

واستطاع أن ينتصر على الروم فى عدة مواقع ، فقد احتل منهم حصنى « مرعش» و « بهسا » فى عام ثمان وستين وخمسمائة . واستطاع أن يفتح مدينة « جازم » و «عراز » و « بانياس » .

كانت همة نور الدين عظيمة ، وكان ملكا عادلا زاهدا عابدا ورعا متمسكا بالشريعة ، يميل إلى الخير وأهله ، كرس نفسه للجهاد فى سبيل الله والقضاء على الصليبيين الذين تجرءوا على البلاد الإسلامية واحتلوا أجزاء منها ، ولكنه كان يجد فى طريق ذلك مصاعب من أهمها بعض صغار النفوس من الحكام الذين يؤثرون المصلحة الخاصة والرغبة فى البقاء على مصلحة المسلمين العامة وكانو يلجئون أحيانا للاستعانة بالصليبيين أنفسهم للمحافظة على أنفسهم وممالكهم .

جهود نور الدين فى توحيد الصف الإسلامى

استفاد الصليبيون من الشقاق الذى حدث بين حكام الدويلات الإسلامية التى انفصلت عن الدولة العباسية الأم ، وأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ويحاولون بسط نفوذهم فى كثير من المواقع وبخاصة السواحل التى يترتب على احتلالها تعزيز وجودهم وتثبيت أقدامهم لسهولة ما يصل إليهم من إمدادات عبر البحر الذى كان مطلق السراح .

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبى ٣/ ١٢ .

لقد كانت حالة المسلمين تدعوا إلى الرثاء حقا ، فقد انقسموا على أنفسهم بين شيعة وسنة ، وعرب وأتراك ، وقد غفل بعض الحكام عن الأهداف الحقيقية للعدوان الصليبى المتمثل فى القضاء على الإسلام . وأقبلوا يستعينون بالصليبيين للقضاء على خصومهم المسلمين .

ولذلك كان هم نور الدين الأول ليهزم الصليبيين هو العمل على توحيد صفوف الحكام المسلمين ضدهم .

وكانت وسيلته فى تحقيق ذلك حسن اختيار الرجال الذين يعتمد عليهم فى تحقيق هذه المهمة . لقد نجح نور الدين فى إرهاب الصليبيين وإجبارهم على الوقوف فى أماكنهم التى كانوا فيها ، كما نجح فى التغلب على بعضهم وهزيمتهم ، ولكنه كان يؤمن بأنه لا أمل فى زحزحة هؤلاء الدخلاء عن بلاد الشام إلا بأن تنتظم القوى الإسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل فى هيئة وحدة متكاملة أو جبهة قوية تقف كالبنيان المرصوص فى وجه الصليبيين (١) .

وللتدليل على تخاذل بعض الحكام المسلمين وعدم قدرتهم على تحمل المسئولية وإدراك خطورة الصليبيين ما ذكره من أن حكام دمشق المسلمين صموا آذانهم عن نداء الوحدة ، ولم يكتفوا بذلك بل حالفوا الصليبيين ضد نور الدين .

كان نور الدين هو أمير حلب فى ذلك الوقت بعد أن انتزعت من الحمدانيين وكان أمير دمشق هو « معين الدين أنر » الذى كانت له السلطة الفعلية فيها ، وهو الذى يوجه سياستها .

وحاول نور الدين أن يضم معين الدين إلى صفه ، وأن يستميله إليه ، ووجد أن السياسة خير معين له فى ذلك فقد تجدى أفضل من القوة ، فتزوج نور الدين من ابنة معين الدين . ولكن هذا الزواج لم يأت بالثمرة المطلوبة التى كان يتوقعها نور الدين ، فقد ظل معين الدين على ولائه للصليبيين خوفا من نور الدين ، فى الوقت الذى تجرأ

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٥٥ أعلام العرب .

فيه الصليبيون فأغاروا على بعض ممتلكات دمشق بل حاولوا احتلال دمشق نفسها .

ابن جبير يصف هذه الحالة

ولنا أن نستشهد بشاهد عيان ، رأى بنفسه كيف سمح هؤلاء الحكام الذين لانوا للصليبيين وقبلوا أن يؤدوا لهم الجزية فى نظير أن يحموهم من إخوانهم المسلمين . فقد قال لنا ابن جبير [1] فى رحلته التى قام بها فى تلك الآونة التى شهدت طرفا من النزاع الدائر بين المسلمين والصليبيين حول دمشق : ورحلنا من « تبنين » ـ دمرها الله ـ سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ـ نعوذ بالله من الفتنة ـ وذلك أنهم يؤدون لهم ـ للأفرنج ـ نصف الغلة عند أوان حصادها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم فى غير ذلك .

ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا .

ومساكنهم بأيديهم ـ أى بأيدى الإفرنج ـ وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل : رساتيقها كلها للمسلمين ـ وهى القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم ، لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق .

وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعد له .

فإلى الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء فى الكتاب العزيز﴿ **إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ [2] .

وقد أشار ابن جبير فى رحلته إلى نور الدين وجهوده فى محو هذه الصور التى تدل على ذل أهل الإسلام وضعف الحكام . كما تحدث عن جهود صلاح الدين بعده

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١٠ ـ كتاب التحرير ـ

(٢) الأعراف :. ١٥٥ .

الذى قام يرد للمسلمين كرامتهم ، وينتقم لهم من عدوهم الذى سامهم الخسف بسبب ضعف حكامهم ، وحرصهم على أنفسهم وعلى مافى أيديهم من زهرة الدنيا الفانية ..

غيظ الشعب من حكامه

ومن الظلم أن نتهم الشعب بالتخاذل ، فقد كان الناس يتحرقون غيظا وحنقا . ولكن لا حيلة لهم أمام رأى الحاكم ورغبته وهيمنته وبطشه .

وتوفى معين الدين وتولى أخوه مجير الدين مكانه ، ولكنه لم يغير سياسة أخيه إزاء الصليبيين ، بل ازداد تمسكا بهم . وانتهز الصليبيون هذه الفرصة ففرضوا سلطانهم على دمشق وأجبروا الحاكم على أن يدفع لهم ضريبة سنوية مقابل حمايتهم من نور الدين .

لقد أساء الحكام إلى مشاعر الشعب ، وانتظروا الفرصة السانحة للتخلص من هذا الكابوس الذى أذل كبرياءهم ونكس هاماتهم فمكنوا لنور الدين أن يستولى على دمشق ليحكمها حكما شريفا ، ويقودهم لنصرة دينهم وتحقيق أملهم وكرامتهم . وكان لنجم الدين أيوب دور فى ذلك ، حيث كان يعمل تحت إمرة حكام دمشق فى ذلك الوقت .

واستولى نور الدين على دمشق فعلا سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٤ م وباستيلاء نور الدين على دمشق اتسعت أمامه الآمال لتحقيق حلمه الذى ورثه عن أبيه فى القضاء على الصليبيين . لقد أصبحت الشام كلها جبهة واحدة تحت زعامة رجل واحد . هو نور الدين محمود زنكى وقد أضعف هذا موقف الصليبيين مما جعلهم يفكرون فى تحويل اتجاههم صوب مصر ، كما أن ضعف الخلافة الفاطمية الذى انحدرت إليه أصبح عامل إغراء أمام الصليبيين . وإن وضع الصليبيون أقدامهم فى مصر أصبح ذلك شوكة فى ظهر الشام ، وإذن فلابد من التفكير فى التحالف مع الدولة الفاطمية ، وتقويتها حتى لا يطمع فيها أولئك الملاعين .

معنى كلمة الأتابكى

أشرنا فى أثناء حديثنا إلى كلمة الأتابك . التى شاعت فى خلال هذه الفترة من الزمن ، وأصبحت مقرونة بأسماء كثير من الحكام الذين تولوا حكم البلاد فى الشام



ومصر ، ولذلك كان لابد من تفسيرها .

لفظة « أتابك » مركبة من كلمتين هما « أتا » وهى لفظة تركمانية معناها أبٌ أو عمٌ. وكلمة « بك » وهى كلمة تعنى الأمير أو المقدم أو المربى . فمعنى الكلمة المركبة : الأب الأمير أو العم الأمير أو المربى الأمير .

وقد جرت عادة حكام التركمان من سلاطين وأمراء الزواج من أكثر من واحدة ، وتطليق بعض الزوجات ، وغالبا ما تتزوج المطلقة من واحد من ضباط السلطان ، ويعهد للزوج الجديد بأمر رعاية شئون الأمير الصغير ابن السلطان أو الأمير ، وبذلك يصبح الزوج الجديد « أتابك » وبمرور الأيام تطورت وظيفة الأتابك وأخذت أبعادا سياسية وعسكرية كبيرة .

ومن أشهر هؤلاء الأتابك « الأتابك زنكى » والد الملك العادل نور الدين ، فقد أطلق عليه هذا اللقب لأن السلطان محمود بن محمد عهد إليه بتربية ولديه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (١) .

عود إلى جهود نور الدين

كان إرسال أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر حلقة فى سلسلة جهود نور الدين فى قطع الطريق على الصليبيين وأطماعهم بالنسبة إلى مصر . وسببا من أسباب توحيد الكلمة بين المسلمين حتى يستطيعوا لقاء عدوهم جبهة واحدة .

ولكن قبل أن نتحدث عن هذا علينا أن نعرف مصدر هذه الثقة الشديدة التى وضعها الملك نور الدين فى أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . ولنبدأ أولا بمعرفة نسب صلاح الدين .

نسب صلاح الدين

ينتمى صلاح الدين إلى أسرة كردية نشأت فى كردستان .

---

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ٢/ ٢٦٢ د/ فاطمة المحجوب .

ويقولون فى نسبه : هو صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب بنجم الدين بن شاذى ويلقب صلاح الدين بالناصر .

ولا يصل المؤرخون فى نسب صلاح الدين إلى أكثر من شاذى أو شادى ـ بالذال المعجمة أو الدال المهملة ـ وإن كان هناك من يحاول أن يصل بنسبه إلى أبعد من ذلك بكثير حيث يصله بمعد بن عدنان . وهذا نسب مصنوع أشار إليه ابن خلكان وذكره لا على أنه حقيقة واقعة ، ولكن على أنه أحد الأقوال التى أذاعها بعض من يزيد سيرة النابهين ، مع أنهم أغنياء بأعمالهم عن الزينة والتزييف .

قال ابن خلكان : ولقد تتبعت نسب الأيوبيين كثيرا فلم أجد أحدا ذكر بعد شادى أبا آخر ، حتى إنى وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه بن شادى وأيوب بن شادى لا غير .

قال : وقال بعض كبراء بيتهم : هو شادى بن مروان ، ورأيت مدرجا رتبة الحسن ابن غريب بن عمران الحرسى ، يتضمن أن أيوب هو ابن شادى بن مروان بن أبى على بن عنترة بن الحسن بن على بن أحمد بن على بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحارث بن سناد بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نهش بن حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة . ومازال يرتفع هذا المدرج حتى وصل به إلى عدنان .

ولم يكتف بذلك بل رفع هذا النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام . وقد قدم هذا النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق ، وسمعه عليه هو وولده .

وقد انتقد ابن خلكان هذا النسب وأشار إلى أنه مصنوع بعد أن ادعى المعز إسماعيل ابن سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن نسبا فى بنى أمية وادعى الخلافة بذلك [1] .

وقد أنكر صلاح الدين الأيوبى كل هذه الأنساب المصنوعة ، وكان يعتز بنفسه

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٤٧٠ ، ٤٧١ .



ويستند إلى ما يقوله الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يكفيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

وليس فى سيرة والد صلاح الدين أوجده ما ينقص أو يعيب حتى يحاول أن يغطى ذلك العيب بنسب مصنوع . وليست الأنساب هى التى تصنع الملوك ، بل الملوك هى التى تصنع الأنساب لنفسها حين يأذن الله بذلك فهو وحده الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

ويلقب والد صلاح الدين بالملك الأفضل نجم الدين .

وقد اتفق أهل التاريخ ــ كما يقول ابن خلكان ــ على أن والد صلاح الدين وأهله من « دُوِين » ــ بضم الدال المهملة وكسر الواو ، وسكون الياء ــ وهى بلدة فى آخر عمل « أذربيجان » من جهة أران وبلاد الكرج ، وأنهم أكراد ، روادية ، والروادية بطن من الهمذانية ــ بفتح الهاء والذال المعجمة ــ وهى قبيلة كبيرة من الأكراد .

قال ابن خلكان : قال لى رجل فقيه عارف بما يقول ، وهو من أهل « دُوِين » : إن على باب دوين قرية يقال لها « أجدانقان » بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال بعدها ألف ونون مفتوحة وقاف ثم ألف ونون ــ وجميع أهلها أكراد روادية .

وقد ولد أيوب والد صلاح الدين بهذه القرية .

وأخذ شاذى جد صلاح الدين ، ولديه : أسد الدين شيركوه ، ونجم الدين أيوب ، وخرج بهما ميمما شطر بغداد .

وكان سبب ذلك ــ فيما يرويه ابن خلكان ــ أن شاذى جد صلاح الدين كان له صديق فى « دوين » اسمه جمال الدولة المجاهد بهروز ــ صفت المودة بينهما ــ وحدث أن هاجر بهروز هذا من « دوين » واتصل بخدمة الملك السلجوقى ــ غياث الدين مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه ، وأخلص له ، وحظى عنده ، وأصبح ذا منصب وجاه ، فأرسل إلى صديقه شاذى يستدعيه إليه ليقاسمه ما خوله الله تعالى من نعمة .

فقصده شاذى فبالغ بهروز فى إكرامه ..

ولم يلبث أن ولى السلطان « غياث الدين مسعود » بهروز ولاية بغداد نائبا عنه ، فتوجه إليها بهروز واصطحب معه صديقه شاذى ، فسار شاذى معه هو وأولاده ، وأراد بهروز أن يسند إلى صديقه عملا تثبت به جدارته وتظهر به كفاءته ، فجعله واليا على قلعة « تكريت » التى كان السلطان أعطاها لبهروز .

ولاية تكريت

أصبح شاذى واليا على قلعة تكريت ، وهى بلدة على الضفة اليمنى لنهر دجلة ، وإلى الشمال من مدينة سامرا ، وعلى سفح جبل « حمرين » بينهما وبين سامراء مسيرة يوم .

وتعد تكريت هى الحد الشمالى للعراق ، ولا تزال منطقة تكريت مُخَدَّدة بعض الئ فقد بنيت تكريت القديمة على التلال . أما تكريت الحديثة فتقوم على أحد هذه التلال على جانب دجلة .

ويقال إن تكريت سميت باسم امرأة نصرانية كان يقال لها : تكريت بنت وائل .

وفتحت تكريت سنة ١٦ هـ على يد عبد الله بن المعتم الذى أنفذه سعد بن أبى وقاص لغزوها ، ففتحت عنوة ، ثم فتحت بعد ذلك صلحا سنة عشرين على يد النُّسَيْر ابن دَيْسَم .

ولم يكن لتكريت قديما شأن يذكر ، فقد كان يحكمها فى القرن الحادى عشر الميلادى ولاة مستقلون ، وظلت على هذه الحال إلى أن استولى عليها طغرل السلجوقى ، وانتقلت إلى أيدى الخلفاء العباسيين فى آخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى خلال هذه الفترة كان يحكمها والد صلاح الدين [1] . وفى ليلة خروجه منها كان مولد صلاح الدين وتوفى شاذى وهو والٍ على تكريت ، وتولى الأمر بعده ابنه أيوب الملقب بنجم الدين ، وكان أكبر من أخيه أسد الدين « شيركوه » .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ١٧ .

نجم الدين والى تكريت

وظل نجم الدين واليا على « تكريت » مدة من الزمن ، والعلاقة بينه وبين بهروز على ما يرام .

واكتسب نجم الدين من ولايته خبرة بشئون الإدارة ، وتمتع بحب الناس فى القلعة. لكن الأيام لا تدوم على حال ، وعلى حد تعبير الحكيم الذى يقول : وعند صفو الليالى يحدث الكدر ، فقد حدث ما عكر صفو الحياة على نجم الدين فى تكريت وحدث توتر فى العلاقات بينه وبين بهروز مما جعله يستعفيه من حكم القلعة .

وسبب هذا التوتر يحكيه لنا صاحب كتاب وفيات الأعيان فيقول: اتفق أن إحدى النساء خرجت من القلعة لقضاء حاجة ، وفى أثناء عودتها مرت على نجم الدين وأخيه أسد الدين وهى تبكى .

فسألاها عن سبب بكائها فأجابت قائلة : لقد تعرض لها « الإسفهسلار » فى أثناء دخولها بما لا يليق .

« والإسفهسلار » لقب من ألقاب الوظائف الفخرية مركب من كلمتين إحداهما فارسية والأخرى تركية ، فكلمة « أسفه » فارسية ومعناها المقدم ، و« سلار » تركية ومعناها العسكر . فيكون معنى الكلمة كلها : مقدم العسكر ، أى قائد الجيش .

وكان هذا اللفظ مستعملا فى الدولة الفارسية ، ثم انتقل إلى العصر العباسى فى بغداد حيث انتشرت اللغة والتقاليد الفارسية ، ثم استعمل فى الدولة الفاطمية على سبيل النقل والتقليد .

وذكر القلقشندى فى « صبح الأعشى » أن هذا اللقب اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند ، وإلى صاحبه أمر الأجناد والتحدث فيهم (١) .

وتغيظ أسد الدين على « الاسفهسلار » ولم يملك إلا أن تناول حربة « الإسفهسلار »

---

(١) الموسوعة الذهبية ٤/ ٣٨١ نقلا عن كتاب الألقاب الإسلامية د/ حسن الباشا ص ١٥٦ . وصبح الأعشى ٣/ ٤٧٩ .

نفسه وقتله بها انتقاما لشرف هذه المرأة التى اعترضها [1] .

ورفع نجم الدين الأمر إلى بهروز ـ بعد أن اعتقل أخاه لتسرعه فى قتل الإسفهسلار وهو يعلم منزلته فى الدولة ـ وقال لبهروز إن أخى وأنا فى قبضتك فافعل بنا ما تشاء. فقال له بهروز : إن أباكما له على حق ، وبينى وبينه مودة قديمة مؤكدة ، وأنا لا أستطيع أن أسيء إليه فيكما ، ولكنى أطلب منكما أن تتركا خدمتى ، وتخرجا من بلدى ، وتطلبا الرزق حيث شئتما .

فلما وصلهما الجواب خرجا من « تكريت » واتجها إلى الموصل ، حيث حطا رحالهما عند الأتابك عماد الدين زنكى .

ولعل هذا كان السبب المباشر ، فقد تقدم ذلك أسباب أخرى جعلت بهروز ينتهز هذه الفرصة للتخلص من نجم الدين وأخيه . هذا ما نشير إليه فيما يأتى :

سبب آخر وراء ذلك

ويقول بعض الرواة : إن ترك نجم الدين وأخيه قلعة تكريت يرجع إلى سبب آخر غير ما ذكرناه .

وهو أن حربا نشبت بين عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، وبين الخليفة العباسى المسترشد ، وحلت الهزيمة بعماد الدين ، وكانت المعركة عند قلعة تكريت سنة ١١٣٢م

وقد أسرع نجم الدين أيوب فى تقديم المعونة لعماد الدين حيث ساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة ، بأن أقام له السفن التى ساعدته وأصحابه على الفرار .

وكانت هذه هى أول المعرفة بين نجم الدين وعماد الدين . كما كان ذلك فى أن بهروز الملقب بمجاهد الدين عزله عن ولاية تكريت [2] .

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٥٠ .

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٦٧ .



وكان سبب هذه الحرب أن عماد الدين زنكى عزم على توسيع أملاكه فهاجم بغداد خارجا على الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، فحاقت الهزيمة بعماد الدين .

لقد كان نجم الدين أيوب متعاطفا مع عماد الدين زنكى إلى أبعد الحدود فقد استضاف عماد الدين فى القلعة ـ كما يقول بعض الرواة ـ لمدة خمسة عشر يوما حتى استرد عافيته بعد أن ضمدت جراحه ، ثم عاد إلى الموصل بعد ذلك .

وكان ذلك سببا كافيا لأن يوغر صدر بهروز على نجم الدين أيوب وأخيه ، حتى أصدر أمره بالاستغناء عن خدماته .

ولم يأسف ـ فيما يقال ـ نجم الدين على فراقه تكريت ، وإن كان أهلها هم الذين أسفوا ، فقد أحبوا نجم الدين لمروءته وسخائه وشهامته وقد تبوأ فى قلوبهم منزلة سامية .

ورحب نجم الدين أيوب بخروجه فقد كان عازما على المغامرة فى حوادث الشرق الأدنى ، وعلى ربط مستقبله بشخصية عماد الدين زنكى الذى أصبحت له مكانة عظيمة تنافس مكانة السلطان السلجوقى [١] .

ولعلنا نميل إلى أن سبب خروج نجم الدين من القلعة سببه مناصرة عماد الدين زنكى ، لأنه لا يوغر الصدور بشدة إلا أمر يتعلق بالحكم ، وقد كان عماد الدين يحارب السلاجقة أصحاب السلطان . وهم أصحاب القلعة التى كان نجم الدين حاكما عليها . فكيف يناصر نجم الدين خصومهم ؟

فإذا أضيف إلى ذلك قتل بعض رجالهم كهذا الإسفهسلار الذى أشرنا إلى قصته أو أن يكون المقتول رجلا نصرانيا كان يلوذ بهم ضاعف ذلك من وجوب تغير قلب بهروز صاحب القلعة وربيب نعمة السلاجقة على نجم الدين وأخيه .

ولقد كان هذا السبب يستوجب القتل إلا أن الوفاء الذى كان يكنه قلب بهروز لوالد نجم الدين حال بينه وبين البطش به.

---

(١) مصر فى العصور الوسطى د/ إبراهيم حسن ص ١٤٠ ، ص ١٤١ .

لقد حكت لنا بعض المصادر أن نجم الدين أنجد عماد الدين زنكى بجهد عظيم ، وكان السبب فى إنقاذه من موت محقق فى أثناء الحرب التى دارت بينه وبين السلاجقة .

يذكر العماد الأصفهانى فى كتابه الذى تحدث فيه عن تاريخ السلاجقة قال فى وصف هذه المعركة التى انتهت بهزيمة زنكى :

انى أكاد أطمئن إلى أنه لم يكن حريصا على بقائه فى تكريت ، فهى دون طموحه، إنه ليس أقل شأنا من أولئك الذين يعمل تحت إمرتهم ، إن لديه من المواهب الإدارية والسياسية ما يمكنه من أن يكون واليا على ما هو أكثر من حدود هذه القلعة التى حبست مواهبه .

ولقد تمتع فيها بسمعة طيبة وسيرة حسنة .

فلئن كان حزينا على مغادرتها فى رأى من يقول إنه كان حزينا فهو حزن المفارق لما ألف فقط ، وفراق المألوف يولد الحزن . وقد عبر عن هذا المعنى شاعر عظيم هو المتنبى الذى يقول فى بعض أبياته :

خُلِقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

حسن سياسته فى القلعة

قال أبو شامة : وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم ، وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة ، وكان شجاعا باسلا ، ينزل القلعة ويصعد إليها فى أسبابه وحاجاته ، وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها .

فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوما فى بعض شأنه ثم عاد إليها ، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض ـ وكان رجلا نصرانيا ـ

فاتفق فى ذلك اليوم أن النصرانى صادف أسد الدين صاعدا إلى القلعة فعبث به بكلمة ممضة ، فجرد سيف الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد إلى القلعة .

وكان مهيبا فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى بشئ وأُخِذَ النصرانى برجله فألقى من القلعة .

وبلغ ذلك بهروز صاحب القلعة ماجرى ، وحضر عنده من خوَّفه جُرْأَةَ أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه ، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب .

فأجاب نجم الدين ، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال واجتمع هو وأخوه وصمما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل .

وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم ، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه ، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته [1] .

ولادة صلاح الدين

وفى ليلة خروج نجم الدين وأخيه من تكريت ولد صلاح الدين .

وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة .

ولم يقابل نجم الدين مولد ابنه بسرور ، فقد جاء فى لحظة غير مناسبة ، لقد أراد أن يربط بين المجيء وبين طرده من القلعة ، وظن أن طالع المولود القادم غير سعيد، لأنه ظهر فى حالة إدبار الحظ عن والده وإعفائه من منصبه وهو منصب خطير ليس بالهين .

ولكن خادما لنجم الدين لفت نظره إلى خطأ التشاؤم ، وقد يكون قدوم هذا المولود بداية سعد لوالديه ، وبشير يمن لأسرته .

لقد أخبرنا أبو شامة بقصة هذا الخادم الذى لفت نظر نجم الدين إلى خطورة التشاؤم فقال فيما يحكيه لنا فى كتاب الروضتين :

---

(١) كتاب الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٥٣٧ .

قال على لسان من روى القصة : حدثنى حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبى طالب ، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى قال :

كنت فى صحبة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكى إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوى بنى العباس ، فى أول سنة سبع وستين وخمسمائة .

واتفق أنى كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين فى دار الوزارة ، وقد قعدا على طراحة واحدة ، (والطراحة مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس) والمجلس غاص بأرباب الدولتين ، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول .

فبينا الناس كذلك إذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدى السلطان الناصر ووالده نجم الدين ، والتفت إلى نجم الدين وقال له : يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالأمس حين ولد هذا السلطان .

فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله . ثم أخذ فى حمده وشكره والثناء عليه ، والتفت إلى الجماعة حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء وقال : لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة ، وذلك أننى ليلة رزقت هذا الولد ـ يعنى السلطان الملك الناصر ـ أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى أسد الدين شيركوه وكنت قد ألفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها إلى غيرها ، واغتممت لذلك ، وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت وتطيرت لما جرى على ولم أفرح به ولم أستبشر ، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتى به ولا أكاد أذكره ولا أسميه .

وكان هذا النصرانى معى كاتبا ، فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى منى أن آذن له فى الكلام ، فأذنت له .

فقال لى : يا مولاى قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبى ، وأى شئ له من الذنب ؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئا ؟ وهذا الذى

جرى قضاء الله سبحانه وقدره ، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار ؟

فعطفنى كلامه عليه ، وها هو ذا قد أوقفنى على ما كان قاله .

فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه [١] .

نجم الدين وأخوه فى الموصل

وسواء أكان نجم الدين حزينا على مغادرته تكريت أو كان غير مكترث لخروجه منها، فقد أصبح فى الموصل بعد فترة طويلة قضاها حاكما لهذه القلعة وما حولها .

واستقبله عماد الدين زنكى فى الموصل أحسن استقبال حتى لقد أعد موكبا لاستقباله هو وأخيه أسد الدين شيركوه . لقد كان عماد الدين يحسن اختيار الرجال ؛ ولكونه ملكا له تطلعاته الواسعة وطموحاته الكبيرة فقد أدرك أن خير من يعينه على تحقيق ذلك رجال ذوو بأس شديد وإخلاص كبير من أمثال نجم الدين وأخيه .

ولم ينس عماد الدين ما قدمه له نجم الدين فى محنته ، لقد أكبر شهامته معه وتضحيته من أجله ، كما أدرك أن فعله هذا أوغر صدر مجاهد الدين بهروز ضده فلا أقل من أن يعوضه عما أصابه بسبب ذلك من فقدان منصبه وذهاب وظيفته .

وكان أن أقطعه وأخاه إقطاعا سنيًا فى بلدة شهرزور وقيل : إنه أقطع نجم الدين كورة بالجزيرة اسمها المؤزر بها مدينة نصيبين [٢] .

نجم الدين حاكم بعلبك

وقيل : إنه أسند إلى نجم الدين حكم بعلبك بعد فتحها سنة ٥٣٤هـ كما قلد أخاه شيركوه قيادة الجيش .

وبعلبك بلدة فى داخل أراضى لبنان على ارتفاع ٣٧٠٠ قدم تقريبا فوق حافة

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ القسم الثانى ص ٥٣٨ .

(٢) كتاب الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٥٣٨ .

هضبة البقاع ، تحيط بها واحة من البساتين ، يرويها ينبوع رأس العين الكبير الذى ينبثق عند سلسلة جبال لبنان الشرقية .

ولجمال هذه المدينة وحسن طبيعتها استمالت نظر الكتاب والأدباء وامتدحوا غوطتها التى تذكرهم بغوطة دمشق ، بالإضافة إلى ما تزخر به من آثار قديمة.

ولأهمية هذه المدينة وموقعها « الاستراتيجى » تنافس الولاة على امتلاكها منذ الفتح الإسلامى لها عام ١٦ هـ حتى أصبحت من أملاك عماد الدين زنكى سنة ٣٥٤هـ.

كانت قبل أن يحتلها عماد الدين زنكى تحت إمرة بورى بن طغتكين منذ عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ثم خلفه ابنه محمد بن بورى عليها سنة ٥٢٢هـ /١١٢٨ م وكانت بعلبك مدينة منيعة تستطيع الدفاع عن نفسها ضد المغيرين عليها الطامعين فيها لمناعة موقعها وإحكام قلعتها .

وفى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨ تولى الأمير محمد بن بورى حكم دمشق بعد وفاة أخويه، فولى مكانه فى حكم بعلبك وزيره الموهوب « أنر » وفى ظل حكم أنر امدينة بعلبك زحف عماد الدين زنكى عليها واستطاع احتلالها سنة ٥٣٤هـ . وولى عليها نجم الدين أيوب ، وقوى زنكى حصون بعلبك وجدد عمارتها .

وظل نجم الدين واليا على بعلبك من سنة ٥٣٤هـ حتى سنة ٥٤١ هـ وهى السنة التى توفى فيها عماد الدين زنكى .

ففى هذه السنة زحف أبناء بورى على بعلبك وحاول نجم الدين الدفاع عنها ولكن قوة البوريين غلبته ـ واستولوا على المدينة الحصينة .

وتمكن نجم الدين أيوب من أن يحتفظ على الرغم من ذلك باحترام البوريين ، بل إنه عمل تحت قيادتهم ،ـ ولعل ذلك كان سياسة منه فإنه أصبح من كبار قواد البوريين فى الوقت الذى كان أخوه شيركوه من كبار قواد الزنكيين .

وكان نور الدين زنكى قد ورث الحكم من أبيه بعد مقتله سنة ٥٤١ فأراد أن يوحد

الجهود والصفوف للقضاء على الصليبيين ، فأعانه على تحقيق ذلك وجود نجم الدين قائدا للبوريين الذين يحكمون دمشق . واستطاع شيركوه أن ينتزع دمشق من يد أخيه أيوب بسهولة ـ وبذلك خضعت دمشق لنور الدين .

وكوفئ نجم الدين أيوب بأن أصبح حاكما على دمشق . وكوفئ أسد الدين شيركوه بأن أصبح حاكما على حمص (١) .

توثيق الصلة بيّن نجم الدين والوزير جمال الدين

وحين أصبح نجم الدين وأخوه أسد الدين فى خدمة عماد الدين زنكى توثقت الصلة بينهما وبين الوزير الخطير جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى .

ولكن من هو جمال الدين هذا ؟ وما أهمية العلاقة بينه وبين أسرة صلاح الدين ؟

كان جمال الدين أشهر رجل فى عصره ، يعرف قدره الكبار والصغار ويخطب وده الحكام والأمراء من كافة الأقطار .

كان من حسن حظ زنكى أن وزر له جمال الدين الذى كان قد عاش ـ كما يقول أبو شامة ـ بنداه الجود ، وعشا إلى ناديه الوفود ، وعادت به الموصل قبلة الإقبال ، وكعبة الآمال ، فأنارت مطالع سعوده ، وسارت فى الآفاق صنائع جوده ، وعمر الحرمين الشريفين ، وشمل بالبر أهلهما ، وجمع بالأمن شملهما ، وأجري بحر السماح، ونادى : حى على الفلاح ، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كل فج عميق ، وقصد من كل بلد سحيق ، فقصده العظماء ، ومدحه الشعراء (٢) .

كان لأجداد جمال الدين صلة بسلاطين السلاجقة فتربى فى أكناف العز والسلطان، وتأدب بآداب الملوك ، ونشأ فى ريعان النعمة ، وعرف أصول السياسة والحكم ، فظهرت كفايته وحكمته ومقدرته ، فولاه زنكى الوزارة فى الموصل ، وجعله

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٤٣٩ .

(٢) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٤ .

مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيما لا مزيد عليه . وكان زنكى لا يصبر على مفارقة جمال الدين إياه ، وكان جمال الدين كريما جوادا محسنا ، وأصبح يلقب بالجواد لكثرة بره وإحسانه .

وامتد بره وإحسانه إلى مختلف الجهات ، حتى لقد أنفق أموالا كثيرة طائلة فى تعمير الحرمين الشريفين ، وترك من بعده آثارا خالدة تنم عن كرمه وجوده وفضله ، فقد أجرى الماء إلى عرفات فى أيام الموسم من مكان بعيد ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وبنى سور مدينة الرسول ﷺ وما كان خرب من مسجده ، وكان يحمل فى كل سنة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ من الأموال والكسوة للفقراء والمنقطعين مايقوم بهم مدة سنة كاملة ، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد ، ولقد تنوع فى فعل الخير حتى جاء فى زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبق له شئ ، وكانت له ضياع مغلة أنفذها كلها فى مواساة الناس وقصده سائل وهو فى هذه الحالة فدفع إليه ثيابه .

وابتلى جمال الدين بما يبتلى به الناس حين ينبه شأنهم ويرتفع قدرهم فوجد من يوسوس فى صدر والى الأمراء بالوشاية ضده ، وأذن الحاكم سماعة مرهفة لما يقال لها مما يتصل بشئون الحكم ولو كان ما يقال كذبا محضا وافتراء خالصا .

فقبض على جمال الدين وأودع السجن . وظل فى سجنه حتى وافته منيته .

هذا هو جمال الدين الذى كان معقد المداحين من الشعراء من أنحاء البلاد الإسلامية .

مدحه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفى الشاعر المشهور بحيص بيص فمدحه بقصيدة منها :

شمس الإحسان عم ضياؤها ... بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطى الجزيل لسائلى معروفه ... ويجود بالنعمى إذا لم يسأل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة ... فيكون أبسم مايرى فى المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الفدا ... فالهام مطرقة لذاك المثقل



السـحب تمطر ما تظل وجوده ... يسرى ودار مقامه بالموصل [1]

وهذا البيت الأخير آية فى البلاغة حيث جعله أكرم من السحاب الذى يمطر فى مكان واحد ، أما هو فعطاؤه يعم كل مكان .

ومدحه العماد الأصفهانى بقوله :

وقـائلـة : أفـى الـدنيـا كـريم ... سواه؟ فقلت : لا وأبى العلا ، لا
أطلـت علـى الورى كرما وفـخرا ... كـذلـك مـن حـوى هـذين طـالا
وحـزت المجـد عـن كـسب وإرث ... فـيـاصـدر الورى حـزت الـكـمـالا
خـصصـت بـكل مـنقبـة وفضـل ... تـعـالـى مـن حبـاك بـه تـعـالـى [2]

وكثير من الشعراء مدحوه وأطالوا فى مدحه ، وطوقوه من مدائحهم قلائد باقية فى نظير ماقلدهم به من عطايا ومكافآت . ولئن كان ما أعطاهم فنى ، فإن ما أعطوه بقى . وهذا من عوائد الإحسان الذى جعل الله له ثوابا مضاعفا وأجرا باقيا .

ولا يخفى عليك أثر ارتباط نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه بهذا الرجل الذى كان لا يكاد عماد الدين زنكى يصبر على فراقه .

ولقد قويت الصلة بينهما وبينه . وقويت أكثر وأكثر بين شيركوه وجمال الدين حتى تآخيا وتصافيا .

قال أبو شامة : وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل منهما للآخر أن يقوم بأمره فى حياته وبعد وفاته ، وتجرد جمال الدين فى أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك زنكى وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة ، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج ـ لعنهم الله ـ وكان لأسد الدين فى تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلة الغراء [3] .

---

(١) الروضتين ص ٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الروضتين ج ١ قسم ١ ص ٥٣٨ .

وفاة جمال الدين

وظلت العلاقة قوية بين الأخويين وجمال الدين ، حتى توفى جمال الدين فى رمضان سنة ٥٥٩ .

ومات فى السجن ، وكان صابرا راضيا بقضاء الله ، لا يكف عن ذكر الله وتسبيحه وتحميده .

قال ابن الأثير : حكى لى جماعة عن الشيخ القاسم الصوفى وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين فى حبسه قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمر آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ــ يعنى من دست الوزارة وديوان الحكم ــ

قال : فلما مرض قال لى فى بعض الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفنى ــ يعنى الدار المحبوس فيها ــ

فقلت فى نفسى : قد اختلط الرجل .

فلما كان الغد أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم يرمثله قد سقط ، فقلت : قد جاء الطائر ، فاستبشر ، ثم قال: جاء الحق . وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفى ، فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت أنه رأى شيئا فى منامه.

نقله إلى المدينة المنورة بعد وفاته

ودفن بالموصل نحو سنة ، وكان قد قال للشيخ أبى القاسم : إن بينى وبين أسد الدين عهدا : من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها فى التربة التى عملها ، فإن أنا مت فامض إليه وذكره .

فلما توفى سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين وأخبره بذلك .

فأعطاه مالا جزيلا ليحمله به إلى مكة والمدينة وأمره أن يحج معه جماعة من الصوفية ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل ، وقدوم مدينة تكون فى

الطريق ، وينادون فى البلاد : الصلاة على فلان ففعلوا ذلك .

ولنترك ابن جبير يحدثنا عن ذلك فى رحلته حيث قال : سيق إلى عرفات ووقف به على بعد ، وكشف عن التابوت ، فلما أفاض الناس أفيض به ، وقضيت له المناسك كلها ، وطيف به طواف الإفاضة وكان الرجل ـ رحمه الله ـ لم يحج فى حياته ، ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ماله ، وكاد أشرافها يحملونه على رءوسهم .

وبنيت له روضة بإزاء روضة المصطفى ﷺ وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة ، وأبيح له ذلك ـ على شدة الضنانة بمثله ـ لسابق أفعاله الكريمة ، ودفن فى تلك الروضة ، وأسعده الله بالجوار الكريم ، وخصه بالمواراة فى تربة التقديس والتعظيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

قال ابن جبير : ولهذا الرجل ـ رحمه الله ـ من الآثار السنية والمفاخر العلية التى لم يسبق إليها أكابر الأجواد و سراة الأمجاد ، فيما سلف من الزمان ما يفوق الإحصاء ويستغرق الثناء ، ويستصحب طول الأيام من الألسنة بالدعاء ، وحسبك أنه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز ، واستنبط المياه ، وبنى الجبال ، واختط المنازل فى المفازات ، وأمر بعمارتها سأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين ، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذى يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية ـ جمع كراء ـ وأجرى على قَوَمة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم ، وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت لهم ، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن ـ زمن حج ابن جبير ـ فسارت بجميل ذكرهذا الرجل الرفاق ، وملئت ثناء عليه الآفاق [1] .

وقد أثار مشهد دفن هذا الرجل فى المدينة بعد زيارة الكعبة قرائح الشعراء فمن ذلك ماقاله أحدهم :

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٠٠ .



ياكعبة الإسلام هذا الذى	**جاءك يسعى كعبة الجود**
قُصدت فَى العام ، وهذا الذى	**لم يخل يوما غير مقصود**

وقال آخر :

سرى نعشه فوق الركاب وطالما	**سرى جوده فوق الركاب ونائله**
يمر على الوادى فتثنى رماله	**عليه وبالنادى فتبكى أرامله**[1]

وكان خطيب المسجد النبوى يدعو له فى خطبته ذاكرا له بالاسم فيقول : اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسور : محمد بن على بن أبى منصور ، قال ابن الأثير : فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا .

قال : ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعا أنه بنى سور مدينة النبى ﷺ ، فإنها كانت بغير سور ، ينهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضنك وضر معهم ، ولقد رأيت إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا فى ضُرٍّ وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريد نا بسوء فاستغنينا ، فكيف لا ندعو له ؟

وهكذا تترك الأعمال الصالحات لأهلها أثرا يبقى فى قلوب الناس ويتجدد مع الأيام، مما يستوجب الترحم عليهم والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة وعظيم الثواب ، وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا** ﴾ أى محبة فى قلوب الناس وذكرا متواصلا لهم . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : ﴿ **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوله** ﴾ [2] .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص ٤٩٤ .

(٢) أخرجه السيوطى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ وأخرجه البخارى ومسلم .

بعد عماد الدين

كان نجم الدين أيوب سياسيا محنكا ، له نظرة عميقة إلى الأشياء ونظرة بعيدة إلى نتائجها . .

ولعلنا نكون قد ألمحنا إلى شئ من ذلك فى أثناء حديثنا .

ولا أدل على ذلك من أنه انتهز فرصة هزيمة عماد الدين أمام أسوار تكريت فمد إليه يد المعونة ضد السلاجقة الذين ولاه أتباعهم حكم هذه القلعة . لأنه رأى بثاقب نظره أن المستقبل سوف يكون فى صف زنكى الذى يعمل على توحيد المسلمين ضد عدوهم المشترك الممثل فى الصليبيين . فموالاة هذا الرجل أفضل ، والعمل معه أضمن وأقرب إلى الله .

ثم إنه بعد أن تولى أمر بعلبك فى عهد عماد الدين وظل واليا عليها فترة طويلة حتى توفى عماد الدين طمع حكام دمشق فى استعادة بعلبك التى كانت فى أيديهم . وحاصروا بعلبك ، واستنجد نجم الدين بسيف الدين غازى الذى قام بالملك بعد أبيه عماد الدين فى الموصل ، ولكنه أبطأ عليه ، وخشى نجم الدين أن تؤخذ منه القلعة عنوة ، وحينذاك يصبح أسيرا فى قبضة البوريين حكام دمشق ، فأراد أن يستفيد من الموقف لصالحه وصالح أبناء عماد الدين .

فراسل البوريين ، وطلب أن يسلمهم القلعة فى نظير أن يكون له إقطاع معين فوافقوه على ذلك ، وحلفوا له ، ووثقوا به ، وولوه أمرا مهما فى دمشق ..

وكان لذلك أثره فيما بعد ، حين أراد نور الدين أن يستولى على دمشق ، فقد راسل أسد الدين شيركوه ـ وكان قائدا لجيوش نور الدين ـ أخاه نجم الدين فى ذلك ، وطلب منه المساعدة فى فتح دمشق ، فأجاب إلى مايراد منه ..

وفتحت دمشق ، وأصبحت تحت إمرة نور الدين ، وكافأهما نور الدين مكافأة سخية ، وأصبح لنجم الدين منزلة سنية حتى أن جميع الأمراء كانوا لا يجرءون على القعود عند نور الدين إلا إذا أمرهم بذلك ، ماعدا نجم الدين الذى كان إذا دخل على نور الدين قعد من غير أن يأمره .

فى الطريق إلى مصر « الرحلة الأولى »

قلنا قبل ذلك إن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين استنجد بنور الدين ليعينه فى مواجهة الصليبيين ، فأرسل إليه جيشا ومعه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، ومعه صلاح الدين .

ولكن سبق ذلك وفادتان أخريان يحسن أن نتحدث عنهما فيما يأتى :

الوفادة الأولى :

حدث نزاع شديد بين وزيرين من وزراء العاضد أراد أحدهما الاستعانة فيه بالملك نور الدين ..

وقصة ذلك أن الوزير شاور كان قد غلب على الوزارة وانتزعها من أبناء الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقتل فى سبيل ذلك الملك العادل بن الصالح بن رزيك . ولقب شاور نفسه بالملك الناصر ، وكان الوزراء يلقبون أنفسهم بألقاب الملوك .

وجريا على القاعدة الذهبية « كما تدين تدان » خرج على شاور من يناوئه ويسلبه الوزارة ، وهو الأمير ضرغام الذى كان نائبا على الباب السلطانى ، ولقب نفسه بالملك المنصور .

وجمع ضرغام جموعا كبيرة قهر بها شاور وأخرجه من القاهرة هو وأولاده ..

وأسرع شاور إلى الشام مستنجدا بنور الدين لينصره على استرداد الوزارة ويمده بجيش يمكنه من ذلك ، وضمن له شاور إن استقر له الأمر أن يجعل له حصة معلومة، وأن يكون خاضعا لأمره لا يقطع شيئا دون إذنه .

وعلى الرغم من أن هذه كانت فرصة ذهبية أمام نور الدين لأنها تحقق له غرضه فى التدخل فى شئون مصر ، وضمها إلى سلطانه حتى يصبح الوطن العربى كله جبهة واحدة ضد الصليبيين . إلا أنه لم يسارع إلى تلبية طلب شاور .

لقد كان ملكا محنكا ، أخذ يزن الأمور فى ذهنه ، ويقدر الموقف حق قدره ، فتارة يترجح عنده سرعة إجابة شاور لما فى ذلك من توسعة السلطان وزيادة النفوذ وإغلاق

الطريق أمام مطامع الصليبيين .

وتارة يترجح عنده التمهل خوفا من وعورة الطريق وتوقع الخطر والخوف من غارات الصليبيين المفاجئة .

وظل مدة كذلك حتى استخار الله تعالى ، ثم وافق على طلب شاور ورأى أن خير من يخرج معه فى هذه الرحلة أسد الدين شيركوه القائد الشهم الذى عرف عنه حب المغامرة ، والحزم فى الأمور ، والشجاعة فى مجابهة العدو .

وسار أسد الدين شيركوه بصحبة جيش من جنود السلطان نور الدين ووصلوا إلى القاهرة ، وثبتوا شاور فى الوزارة وقتلوا خصمه ضرغام ، وأدرك شاور ثأره ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ .

ولم يف شاور لأسد الدين بما تعهدله به ورفض أن يعطى السلطان نور الدين شيئا مما قرره له .

وكان أسد الدين قد اصطحب ابن أخيه صلاح الدين معه فى هذه الرحلة وجعله مقدم عسكره وصاحب رايته ، وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه ـ مع أنه كان صغير السن ـ فقد كانت سنه إذ ذاك فى حدود السادسة والعشرين من عمره .

لقد لمح أسد الدين فى ابن أخيه مخايل النجابة ، ولاح له منه آثار الإقبال والسعادة والفكر الصحيح وحسن التدبير .

ولما أدرك أسد الدين أن بقاءه فى مصر ليس وراءه طائل بعد أن تيقن من إصرار شاور على النكث بوعده وعدم الوفاء بما تعهد به عاد إلى الشام ..

نشأة صلاح الدين

وقد شغلتنا متابعة الأحداث المتداخلة عن معرفة شئ عن نشأة صلاح الدين وهو بطل حديثنا كله .

وقد عرفنا سابقا أنه ولد فى ليلة خروج والده من قلعة تكريت وأقام مع أبيه فى الموصل ، وشملته مع والده عناية عماد الدين زنكى .

ونشأ فى نعمة والده تحت عين وبصر السلطان عماد الدين الذى أحب نجم الدين وقربه وأسند إليه مناصب خطيرة أشرنا إليها فيما سبق .

ولم يزل صلاح الدين فى كنف والده يتعلم علوم عصره ، ويدرج على ما درج عليه أبوه قبله من حب الفروسية واللعب بالسيف ، ومجالدة الأقران حتى اشتد ساعده وقوى عوده .

قال ابن خلكان : وكانت مخايل السعادة عليه لائحة ، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ، ونور الدين يرى له ويؤثره ، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد حتى صار كفئاً لما يسند إليه من مهام خطيرة (١) . لقد تنقل صلاح الدين فى صغره بين أماكن كثيرة . فبينما هو يولد فى تكريت إذا به ينتقل إلى الموصل وهو ابن أيام قلائل ، ثم انتقل مع أبيه إلى بعلبك حيث تنفس أنسامها الرقيقة ، ونعم بأجوائها الطيبة وطبيعتها الجميلة .

ومنها انتقل مع أبيه إلى دمشق الفيحاء ، حيث قضى طفولة ناعمة سعيدة فى ظل أبيه حاكم دمشق .

وكان يختلف إلى الكتاب يحفظ فيه القرآن الكريم كما يفعل الناس مع أبنائهم ، ويقرأ الحديث الشريف ، ويتلقى مبادىء الخط والنحو والحساب واللغة ، ويحفظ مايجود من الشعر ويروق من النثر حسب المنهج الذى يتلقاه المتعلمون فى تلك الأيام .

ولم يكتف أبوه بذلك ، بل أحضر له المؤدبين الذين تعهدوه بما يتعهدون به أبناء ذوى الشأن وأولى الأمر من صنوف التأديب والترفيه والتلقين ، لقد أتاحوا له فرصة التعلم على طريقة أبناء الطبقة الراقية فى تلك الحقبة (٢) .

معلموه فى صغره

ويذكر بعض المؤرخين (٣) أنه كان من شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم عالم

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٤ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٦ .

(٣) صلاح الدين د/ جمال الدين الرمادى ص ١٣ دار الشعب .

دمشق قطب الدين مسعود بن محمد النيسابورى الشافعى ، وكان يدرس فى مدرستى الغزالة والجاروخية فى دمشق ، وقد توفى النيسابورى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[١] ومن شيوخه أيضا أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المصرى إمام النحو فى وقته وقد توفى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة [٢] .

وفى أثناء وجوده فى مصر انتهز الفرصة فسمع الحديث على الحافظ أبى طاهر السلفى الأصفهانى المتوفى بالأسكندرية سنة ست وسبعين وخمسمائة [٣] .

وذكره صاحب طبقات الشافعية وقال عنه : كان صلاح الدين فقيها ، فقد حفظ كتاب التنبيه فى الفقه الشافعى [٤] . كما حفظ القرآن الكريم ، وكان قد حفظ كتاب الحماسة فى الشعر .

وقد استمع إلى العلماء الذين كانوا يفدون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب ومن سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا فى مساجدها ومدارسها ، ومن المؤكد أن صلاح الدين قد استمع إلى أكثرهم ، ولاسيما عندما كان يجلس فى الجامع الأموى عبد الله بن أبى عصرون يلقى محاضراته هناك ، وعبد الله بن أبى عصرون هذا هو الذى استقدمه نور الدين وابتنى له المدارس فى دمشق وأمهات مدن الشام ليدرس فيها وينشر العلم فى طول البلاد وعرضها .

وقد بلغ هذا العالم منزلة عظيمة ، ومن أعظم ما تحدث به التاريخ عن إخلاص صلاح الدين لهذا الشيخ أن قد أبت عليه مروءته إلا أن يقرب هذا الشيخ من مجلسه عندما فقد بصره وجعله أخص خواصه [٥] .

---

(١) دول الإسلام للذهبى ٢/ ٨٩ .

(٢) دول الإسلام ٢/ ٩٠ .

(٣) دول الإسلام ٢/ ٨٩ .

(٤) صلاح الدين د/ جمال الدين الرمادى ص ١٣ .

(٥) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ـ عبد الله ناصح علوان ص ٢٤ دار السلام للطباعة والنشر .

تدربه على الفروسية

على أن أهم شئ كان يقوم صلاح الدين بالتدريب عليه هو الفروسية .

والفروسية كما تُعنى بالتدرب على ركوب الخيل والانطلاق بالجواد فى ميادين الجهاد والإقدام فى ساحات النضال ، وكيف يستخدم الفارس جواده فى حالات الكر والفر والإقدام والإحجام ، وغير ذلك مما يحتاج إلى مران عملى وتدريبات شاقة للوصول إلى مهارة فائقة .

فكذلك تُعنى الفروسية بالآداب العملية التى يجب أن يتحلى بها الفارس حتى تصبح مطبوعةفى نفسه مرتبطة بشخصيته .

فليس الفارس فقط هو من يحسن الكر والفر ، ولكن الفارس هو الذى يتصف بالعفة المتناهية ، والأريحية الكاملة ، هو الذى يعامل غريمه معاملة كريمة ، لا يلجأ إلى المكر والخديعة ، لا يغدر ولا يكذب ، ولا يخون ، هو الرجل المستقيم الواضح الصريح الذى يستشهد فى سبيل ما يراه حقا .

وقد قدمت لنا البيئة العربية أمثلة صادقة من آداب الفروسية تحدث الشعراء عنها ، فهذا عنترة يقول :

هلا سألت القوم يابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فالفروسية تعنى إقدامه لكسب المعركة فقط لا لهدف مادى هو الغنيمة من العدو .

وهذا آخر يقول :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووجدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... للنائبات على ما قال برهانا

فالفروسية هنا تعنى النجدة والمروءة وإغاثة الملهوف مهما كان دون سؤال عن سبب الاستغاثة وهذا آخر وهو « تأبط شرا » يقول :

قليل التشكى للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك[1]

فالفروسية هنا تعنى الصبر على المكاره وعدم شكوى الآلام ، وعدم الركون فى مكان واحد، ويقتحم المخاطر دون مبالاة ، وإن كانت هذه الأبيات تمثل البيئة العربية القديمة ، فقد جاء فى البيئة التى عاش فيها صلاح الدين ما يؤيد هذه المثل ، فقد قال صديقه أسامة بن منقذ الفارس الشاعر متحدثا عن بطولة صلاح الدين وفروسيته ونصره على الأعداء :

أبى الله إلا أن يكون لنا النصر وتحيا بنا الدنيا ويفتخر الفخر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ويرهبها منا على بعدنا الذكر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يلهنا عنه سماع ولا خمر
بنا استرجع الله البلاد وأمن العباد فلا خوف عليهم ولا ذعر

وهذه المبادئ لا تأتى بين يوم وليلة ، ولكنها تأتى نتيجة ممارسات عملية مع نشأة فى بيئة صالحة تسمح بذيوع هذه المبادئ وتنادى بها وتجذبها وتربى فرسانها عليها . ولذلك كان لزاما على صلاح الدين أن يتلقى تدريباته فى الفروسية ليكون فارس الميدان علما وعملا وسلوكا ، وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ، وأصبح سلوكه بعد أن تولى القيادة وخاصة المعارك نموذجا يحتذى ، وسيرة تروى ، وأدبا يحكى .

نزوات فى شبابه

وصلاح الدين ابن بيئته ، وهذا لا شك فيه ، لقد نشأ فى بيئة مترفة وعلى الرغم من غلبة الشعور الدينى الذى كان يخامر نفوس الجنود المحيطين بنور الدين فهناك شباب أيضا خالطوا النعمة وانغمسوا فى الترف ، وتأثروا بجو المرح الذى يغرى الشباب بعيدا عن عيون آبائهم ببعض النزوات ولذلك فقد كانت لصلاح الدين فى صباه مغامرات مع بعض لداته الذين يغيرهم الفراغ والشباب والجدة ، فيقبلون على الحياة يقتنصون منها لذاتها ، فلا بأس من أن يقضوا أوقاتهم فى الصيد والقنص ، ولا يعصى

(١) الموماة : المفازة والجحيش : المنفرد ـ ويعرورى : يركب الفرس عريا بدون سرج .

بعضهم بعضا حين يدعون إلى كأس خمر ومعاقرة شراب .

ولا ندافع عن الشباب حين يفعلون ذلك ، ولكننا نتحدث عن أمر واقع يجرى فيه الشباب حين يجدون أنفسهم قد نشأوا فى بيئة جمعت لهم فيها أسباب النعمة ووسائل الرفه . وقد يغفل الوالد أو يتغافل عن ولده بدافع الشفقة أو الثقة . فينزلق الولد دون أن يدرى أو يدرى . وعلى ذلك فقد انساق صلاح الدين فى أحضان الشراب واللهو وجرى مع أصدقائه من أبناء الأمراء والقواد يقضون بعض أوقاتهم فى الصيد واللعب وقد دعاه عمه وهو فى أثناء ذلك إلى مشاركته فى رحلة الحج وكان السلطان قد جعله أميرا للحج ، فأبى أن يذهب معه .

وتعجب كثير من الناس من رفض صلاح الدين مشاركة عمه فى هذه الرحلة التى يتطلع إليها الناس ويتوقون إلى القيام بها ويبذلون فى سبيلها الرخيص والغالى ،.

ولكن ما للفتى ولهذه الفريضة إذ ذاك ؟ وهو غارق مع إخوانه وندمائه فى اللهو والخمر ، فإذا انتقل منهما فإلى الصيد وركوب الخيل ، فإذا ترك هذا كله فإلى مشاهدة الأمراء وكبار الجند وهم يلعبون بالكرة والصولجان فوق ظهور الخيل (١) .

وعلى كل فقد سافر وحده إلى الأقطار الحجازية ، وعاد وظل صلاح الدين فى دمشق كعادته ، يمارس رياضته فى الفروسية ، ويقضى وقته مع إخوانه ولداته ، وأخذ يتمرن على اللعب بالكرة كما يتمرن كبار القوم .

الهدف من لعب الكرة

وكان الأمراء هم الذين يقومون بممارسة اللعب بالكرة وهم فوق ظهور الخيل ، وكان هدفهم من ذلك لا مجرد اللعب فقط ، بل كان الهدف من ذلك ترويض الجسم على الحركة والنشاط ، وتمرين الجياد أيضا على الإقدام والإحجام والكر والفر ، والوثوب والهبوط ، والخفة وسرعة الحركة ، استعدادا لملاقاة الأقران والأبطال فى ميادين الحرب ، هذا النوع من اللعب يطلق عليه اللعب الجاد الذى يهدف إلى غاية

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ١٧ .



سامية ، وهكذا يجب أن تكون الغاية من اللعب ، إنه لا يسمى فى هذه الحالة لعبا بل يسمى رياضة ، والرياضة أمر مفروض من أمور الدين دعانا إليه الشرع وألزمنا به ، وقد ورد فى كلام أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : علموا أولادكم الرماية والسباحة والجرى ومروهم أن يثبوا فوق ظهور الخيل وثبا ، وكان النبى ﷺ يمارس الرياضة ويأمر أصحابه بها ، فالجسم إذا قعد عن الرياضة ركد وثقل وضعف عن الحركة وعجز عن مجابهة العدو فى ميدان المعركة .

وللرياضة آداب أيضا يجب أن يتحلى بها المتريض ، وهى تدخل ضمن آداب الفروسية التى أشرنا إليها ، فإنه إذا كان الهدف من الرياضة تربية الجسم وتنشيطه يستوى إذا كان اللاعب غالبا أو مغلوبا ، أما إذا كانت هناك مباراة فعلى كل لاعب أن يقدم أفضل ما عنده بشرط عدم الخداع أو التضليل أو الإيذاء ، فإذا غلب فعليه أن يتلقى الهزيمة بروح رياضية كما يقال ..

ولكل زمن مجاله فى اللعب ، وقد كانت اللعبة الجارية فى أيام صلاح الدين هى لعبة الكرة والصولجان يقوم بها الفرسان فى ميدان فسيح معد لذلك وكانت المباراة تقوم بين نور الدين وصديقه نجم الدين وأسد الدين وغيرهم من الفرسان المسلمين ، الذين يمتطون جيادا خفيفة تسابق الريح فى السرعة وكان العامة يحتشدون لمشاهدة هذه المباريات فيعجبون من خفة اللاعبين ونشاطهم وقدرتهم على القيام بحركات بارعة وهم فوق ظهور خيولهم السريعة دون أن يسقط الفارس منهم من فوق حصانه .

براعة صلاح الدين فى هذه اللعبة

وكلف صلاح الدين بهذه اللعبة التى كان يشاهدها مع لداته وهى تجرى بين الأمراء والفرسان ، وكثيرا ما كانت تقام مباريات تحت رعاية الملك نور الدين نفسه ، وأحيانا كان يشارك فيها بنفسه .

وجاء الوقت الذى أخذ صلاح الدين يمارس هذه اللعبة ، ويتقنها ويشارك فيها مع أصدقائه من أولاد الأمراء ..

وشاهده أبوه وعمه كما شاهده نور الدين وهو يقوم بهذه اللعبة ، وأعجبوا بخفته



وسرعة حركاته وإجادته لهذه اللعبة ومهارته فيها ، ونال تشجيعهم ، كما نال جائزة الملك نور الدين الذى أولاه رعاية زائدة ، وتوسم فيه التفوق فى ميدان الفروسية ، فقد كان من ميزات الفارس الناجح أن يجيد اللعب بالكرة والصولجان .

وعمل التشجيع فى نفس صلاح الدين عمله ، فثابر على إجادة هذه اللعبة حتى أتقنها تماما وفى الوقت نفسه أتقن الفروسية ، وأصبح فارسا لا يشق له غبار .

لكل جواد كبوة

وكأنما حسده حاسد فى أثناء مباراة للفروسية وهو يلعب بالكرة مع نور الدين وقد خطف أبصار المشاهدين بسرعته ومهارته وروعة مناورته بجواده ، فإذا بجواده يعثر عثرة كادت تودى بحياة صلاح الدين ، لولا أن لطف الله به فقام من كبوته مسرعا ، وقد أصيبت ركبته برضوض .

وظل تحت الرعاية الطبية فترة ، ولكن هذه الكبوة تركت أثرها فى مشية صلاح الدين ، فإنه كان يمشى متثاقلا على إحدى رجليه دون الأخرى ، فيخيل لمن يراه أنه أعرج ، ولكن ذلك لم يحل دون أن يظل فارساً بارعا كما كان ، ولم يحل ذلك دون استمراره فى ممارسة اللعب بالكرة والصولجان وقد برع فيها إلى حد لم يستطع أحد أن يغلبه فيها ..

لقد أصبح صلاح الدين قطب نادى الفرسان ، ونظر إليه السلطان محمود نور الدين نظرة أخرى ، وأصبح حديث الأمراء والقواد ..

وتوسم فيه نور الدين النجابة فعهد إليه ببعض الوظائف التى لا يقوم بها إلا الخاصة من الأمراء ، لقد عهد إليه بوظيفة تسمى « الشحنة » وهذه الوظيفة تعنى الإشراف على قوات الأمن التى تكفى لضبط البلد ورعايته ، ورئاستها تسمى « الشحنكية » .

شاعر يهنئ صلاح الدين بنجاته حين عثر به جواده

وكان عثور الفرس بصلاح الدين سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، و كانت سنه فى حدود الثلاثين ، وقد عرف الشعراء منزلته عند نور الدين ، كما كانت له منزلة عند

الناس ومودة فى قلوب الشعراء ، وكان الشاعر الكاتب العماد الأصفهانى يحب صلاح الدين ويصافيه ، فكتب قصيدة يسجل هذا الحادث ، ويهنئ صلاح الدين بالنجاة ، ويعتذر له عن هذه السقطة .

لاتنكرن لسابح عثرت به قدم وقد حمل الخضم الزاخرا [1]
ألقي على السلطان طِرفك طَرفه فهوى هنالك للسلام مبادرا [2]
سبق الرياح بجريه ، وكففته عنها ، فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه فى السرج منك يقل ليثا خادرا [3]
ومتى تطيق الريح طوداً شامخاً أو يستطيع البرق جونا ماطرا [4]
فاعذر سقوط البرق عند مسيره فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة تدرب له إن الجواد لمن يقيل العاثرا [5]
وتوق من عين الحسود وشرها لا كان ناظرها بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطان الورى فى الحادثات معاضدا ومؤازرا
واذا صلاح الدين دام لأهله لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا [6]

صلاح الدين موضع الرضا

وأصبح صلاح الدين موضع رضا السلطان ، ولعله قد قلل عما كان يمارسه فى صدر شبابه من معاقرة الخمر واللهو مع الأنداد ، لقد أصبح الآن فى معية السلطان لا

---

(١) السابح هو الفرس ، والخضم الزاخر : البحر المتلاطم شبه به صلاح الدين.

(٢) الطرف - بكسر الطاء - الفرس الكريم ، والطرف - بفتح الطاء : العين.

(٣) يقل : يحمل - الليث الخادر : الأسد القوى فى أجمته .

(٤) الطود : الجبل - الجون : السحاب الأسود المطير ، ويكنى بالريح والبرق عن الفرس الذى يركبه صلاح الدين .

(٥) الجواد الأولى : الفرس ، والجواد الثانية : يقصد صلاح الدين .

(٦) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٩ .

يكاد يصبر عنه ، وأصبح الأثير لديه فى مشاركته اللعب بالكرة والصولجان ، وكان نور الدين مغرما بذلك ، حتى لقد كان يظل يلعب نهاره فإذا حل الظلام أوقدت له الشموع ليلعب فى ضوئها .

وكان صلاح الدين يركب مبكرا فى انتظار مجئ السلطان ، وقد عرف آداب اللعبة وشروطها المعتبرة .

وأقطعه السلطان فى سنة واحدة ـ هى السنة التى سقط فيها عن فرسه ـ ضيعتين إحداهما من ضياع حلب ، والأخرى من ضياع كفر طاب وهى بين المعرة وحلب ويذكر بعض المؤرخين أن الملك العادل نور الدين أسند إلى صلاح الدين فى دمشق منصبا كبيرا هو رئاسة الشرطة ، وقد قام بهذا المنصب خير قيام ، واستطاع أن يطهر دمشق من عبث اللصوص ومن شرور قطاع الطرق والمفسدين ، وبات الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم ودورهم ، وينعمون بنعمة الحياة الهادئة الآمنة بعد أن كانوا مفزعين مهددين ، وقد امتدحه شاعر دمشق فى ذلك الوقت حسان بن نمير الذى يعرف بعرقلة الدمشقى ذاكرا له هذه النعمة ، حيث قال له :

رويدكم يا لصوص الشآم	فإنى لكم ناصح فى المقال
أتاكم سمى النبى الكريم	يوسف رب الحجا والجمال
فذلك يقطع أيدى النساء	وهذا يقطع أيدى الرجال[1]

وفى البيت الأخير تورية طريفة ، تشير إلى أن يوسف النبى ـ عليه السلام ـ قطعت النساء أيديهن شغفا بجماله وإعجابا بحسنه ، أما يوسف بن أيوب صلاح الدين ، فإنه بحكم منصبه يقبض على اللصوص ثم يقيم عليهم حد السرقة فيقطع أيديهم .

إلى مصر فى رحلة ثانية

عرفنا فيما مضى أن صلاح الدين اصطحبه عمه إلى مصر سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمسمائة ، وذلك حين استنجد شاور بنور الدين ضد غريمه ضرغام .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ومحرر الصليبيين ص ٢٢ .



وقد أدت هذه الرحلة غرضها بالنسبة لشاور فقد تخلص من غريمه الذى قتل وطيف برأسه ، ولكن شاورا نكث بعهده ولم يف بما كان قد اتفق عليه مع نور الدين . وقال بعض الرواة : إن أسد الدين لم يعد فورا إلى دمشق ، لأنه أراد أن يستخلص من شاور ما كان قد اتفق عليه ، وحين أبى شاور ذلك احتل أسد الدين بلبيس وبسط سلطانه على البلاد الشرقية.

وحين رأى شاور ذلك استنجد بالصليبيين ليخلصوه من أسد الدين ، وانتهز الصليبيون الفرصة فأسرعوا نحو مصر يسوقهم الطمع والخوف .

الطمع فى امتلاك مصر ، والخوف من أن يمتلكها نور الدين وجيشه قبلهم ، وحين بلغ نور الدين خبر مسير الصليبيين نحو مصر ، تحت قيادة ملكهم الذ ى كان يسميه العرب « أمورى » أو « عمورى » سار هو بجيشه فى أطراف بلاده مما يلى ممالكهم فى محاولة لمنعهم من السير إلى مصر ولكن الصليبيين صمموا على المضى إلى مصر فإن ذلك فرصة بالنسبة لهم ، وتقدموا فى مسيرهم ومعهم أعداد غفيرة من حجاجهم الذين جاءوا يزورون بيت المقدس .

وتقدم الصليبيون نحو بلبيس وحاصروها ، وفيها أسد الدين وجنوده ، ولكن أسد الدين امتنع عليهم ، وكان قد سورها وحصنها واغتنم نور الدين فرصة وجود الإفرنج فى بلبيس فأغار على بلادهم وحصونهم يفتحها حصنا حصنا ، وتمكن من فتح حصن « حارم » وهو حصن حصين تجاه إنطاكية كان الصليبيون يُعوِّلون عليه فى تأمين مواقعهم ، ثم تقدم نور الدين صوب « بانياس » فامتلكها ..

ووصلت هذه الأخبار إلى ملك الروم فسرعان ما فك الحصار عن بلبيس عائدا إلى الشام ، وكان قد مهد لذلك مع أسد الدين ، وفاوضه على أن يفك الحصار ويعود من حيث أتى على أن يترك أسد الدين بلبيس ويسلمها إلى أهل مصر ..

وكان أسد الدين لا يعلم بما جرى للصليبيين فى الشام على يد نور الدين ، ولو قد علم ماحدث ما قبل أن يخلى بلبيس بهذه السهولة ، ويترك الفرنج يعودون سالمين بهذه الصورة .



وعلى كلٍّ فقد كسب أسد الدين الجولة ، وضرب مثلا صادقا فى الشجاعة والإقدام والبطولة والفداء .

لقد ترك جنوده يسبقونه للخروج وكان هو آخرهم خروجا يحمى ظهورهم ويدفع عنهم إن حدث شيء .

ولقد رآه أحد الصليبيين وهو فى هذه الحالة فجاءه وقد أعجب ببطولته ، وقال له : أما تخاف أن يغدر بك جنود شاور والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى لك معهم بقية ؟

فقال أسد الدين شيركوه : يا ليتهم فعلوا ، وإذن لأريتهم مالم يروا مثله . كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل قبل أن أفنى منهم رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم فيملك بلادهم ، ويفنى من بقى منهم ، والله لو أطاعنى هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ لخرجت إليكم أول يوم ، ولكنهم امتنعوا ، فصلّب الإفرنجى على وجهه ـ يعنى رسم علامة الصليب على وجهه ـ وهم لا يرسمون هذه العلامة إلا عند الفزع الشديد أو العجب الشديد ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى وصفك وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم [1] .

وعاد أسد الدين ومعه صلاح الدين إلى الشام .

كانت هذه هى الرحلة الأولى إلى مصر ، وقد عاينا ـ أى أسد الدين وصلاح الدين ـ من أمرالبلاد المصرية ماعاينا ، وأدرك شيركوه أن مصر هى مفتاح الشرق وقلب العروبة وأن انضمامها إلى الشام يضمن حرمان الصليبيين من الشرق الأوسط نهائيا .

وقد أدى صلاح الدين فى هذه الرحلة دورا ممتازا فهو الذى سار بالجيوش النورية صوب الشرقية لاحتلالها ، ومكن لجنوده فى بلبيس وصمد مع جيشه حتى أتاه عمه شيركوه حين نما إلى علمه مجئ الصليبيين إلى مصر وصبر مع عمه فى مدافعة هذه المحنة حتى انجلت وعادا معا إلى نور الدين .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ .

متى كانت الرحلة الثانية إلى مصر ؟

عادا إلى الشام وفى قلب شيركوه تطلع للعودة مرة أخرى إلى مصر ، وفى الشام رأيا ما حققه نور الدين فى أثناء غيبتهما فى مصر من انتصار على الصليبيين .

رأيا فتح حارم وبانياس ، ورأيا رءوسا من قادة الصليبيين قد وقعوا فى الأسر ، منهم إبرنس انطاكية « بوهمند » الثالث ، وقومص طرابلس «ريموند » الثالث ، وابن لجوسلين صاحب أرمينية ، ودوك « الروم » ، وقد حمدا الله على ذلك ، وسمعا من تواضع نور الدين وطاعته لله تعالى ما أثلج صدورهما فقد سمعا أن نور الدين استطاع أن يكسر الروم والأرمن والإفرنج حول « حارم » وكان عدتهم ثلاثين ألفا ، وكان حين التقى الجمعان انفرد تحت حارم وسجد لربه عزوجل ، ومرغ وجهه فى التراب وتضرع إلى الله ، وقال : « يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك » إيش فضول محمود فى الوسط »

وقيل إنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ، من هو محمود الكلب حتى ينصر ؟

ولهذه الكلمة أمارة حدثت فى منام رآه بعض الصالحين فيما بعد حين احتل الفرنج دمياط سنة ٥٦٥ هـ ورحلوا عنها ، وكان نور الدين قلقا بسبب ذلك ، فجاءه رجل وقال له : لقد رأيت فى هذه الليلة النبى ﷺ فى المنام وقال لى : أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة ، فقلت له : يا رسول الله ربما لا يصدقنى فاذكر لى علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت : يا رب انصر دينك ولا تنصر محمودا ، من هو محمود الكلب حتى ينصر ؟

وكان هذا الرجل حين قص هذه الرؤيا على نور الدين قد وقف عند قوله : من هو محمود حتى ينصر ، ولم يذكر كلمة الكلب فى حديثه تأدبا مع السلطان .

فقال له نور الدين : لا بد أن تذكر العلامة كلها وألح فى ذلك فقال الرجل الكلمة المذكورة . فبكى نور الدين وصدق الرؤيا ، ولم يلبث أن جاء الخبر بجلاء الصليبيين عن دمياط فى تلك الليلة المشار إليها .

وكان قد مر على الرحلة الأولى ثلاث سنوات ، وجاءت سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان أسد الدين شيركوه يتحرق شوقا إلى الرجوع إلى مصر دافعه فى ذلك شيئان :

الأول : الانتقام من شاور الذى غرر به ، ونقض العهد معه ، ومالأ الصليبيين على بلاده ، واستنجد بهم ـ وهم أعداء الدين ـ ضده ..

الثانى : لتأمين مصر من هجمات أخرى للصليبيين مستقبلا بعد أن تكشفت أطماعهم فيها ، وأدركوا سهولة السيطرة عليها ، بعد أن بان لهم ضعف أهلها عن المقاومة بسبب الصراع الداخلى فيها بين الوزراء وأرباب الدولة . وإهمال المسئولين تحصين البلاد ، وتفريطهم فى تكوين جيش قوى يحمى البلاد .

وفى الواقع كان تحرك شيركوه نحو مصر تثيره رغبة نور الدين فى ذلك . لقد كان الموقف العسكرى والسياسى يحتم ذلك .

وهذا الموقف هو ما يرسمه لنا الدكتور عبد اللطيف حمزة حين يقول : كان الشرق العربى فى تلك الآونة موزعا بين خلافتين كبيرتين ، ولكنهما فى الحقيقة آيلتان للسقوط .

أما الأولى فهى الخلافة العباسية العجوزة فى العراق ومقرها بغداد وأما الثانية فهى الخلافة الفاطمية المتهالكة فى مصر ومقرها القاهرة وبين الخلافتين عنصر دخيل على العرب والإسلام هو عنصر الفرنج الذين أتوا إلى الشرق وأسسوا لأنفسهم بعض الإمارات الصليبية بحجة المحافظة على بيت المقدس .

ونظر نورالدين محمود فى هذا الموقف الدقيق فإذا فى استطاعته أن يسقط الخلافة العباسية من حسابه ، فقد شاخت ، وبلغت من العمر أرذله ، ولم تعد قادرة على النهوض بعمل ينفع الإسلام والمسلمين ، وعلى ذلك فقد أصبح الأمر فى الحقيقة محصورا بين قوى ثلاث :

قوته هو بالشام ، وقوة الفرنج بالقدس وماحوله من إمارات ، وقوة الفاطميين بمصر .



ثم نظر نور الدين مرة أخرى فى هذا الموقف الدقيق ، فإذا مصر كذلك قد وصلت إلى حالة من الضعف واختلال الأمر بحيث لا تقدر هى الأخرى على الثبات فى ميدان النزاع بين المسلمين والصليبيين حول بيت المقدس .

ومعنى ذلك أن الخصومة فى الواقع هى بين نور الدين والصليبيين ، ونجاح فريق منهما على الآخر مرهون بنجاحه فى أمر واحد ، هو الظفر بمصر ، فأى القوتين سيطرت على مصر أصبحت سيدة الموقف من غير شك [1] .

لقد وزن نور الدين الأمور وزنا صحيحا واستخلص من ذلك القرار الذى لا رجعة فيه ، وهو ضرورة السيطرة على مصر ليتمكن من تحقيق أمله الذى كرس له حياته وهو القضاء على الصليبيين فى الشرق ، وتحرير الأماكن المقدسة من قبضة هؤلاء الطامعين الذين ما جاءوا فى الحقيقة دفاعا عن القدس ، بل طمعا فى خير الشرق وثرائه .

ولكن كيف يسيطر على مصر ؟ لا بد أن يرسل حملة بقيادة شيركوه إلى مصر ، وليرافقه فى هذه الحملة ابن أخيه صلاح الدين فهو فتى ألمعى ، ينبئ تصرفه عن مستقبل مشرق سوف يكون له .

وأصدر نور الدين أمره إلى شيركوه بالتوجه إلى مصر ، وأمره أن يصحب معه ابن أخيه صلاح الدين ، ووضع تحت إمرتهما ألفى جندى من خيرة جنود الشام .

كان ذلك فى ربيع الآخرة من سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

وسارت الحملة فى طريق وعر عبر صحراء مصر الشرقية ، حتى يكون وصولها مفاجأة غير متوقعة ، وحتى يخفى أمرها على الصليبيين أيضا ، وقاسى الجنود فى طريقهم مشقة كبيرة حتى إنهم كانوا كثيرا ما يغمضون عيونهم ويغلقون أفواههم من تطاير الرمال التى تثيرها الرياح العاتية التى تهب عليهم فى الصحراء .

وأخيرا وصلت الحملة إلى مصر ، وعسكرت عند قرية يقال لها « أطفيح » وهى

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ٢٣ ، ص ٢٤ .

قرية من قرى الجيزة قديما ، وهى الآن تابعة لمركز الصف ومن هناك عبر النيل إلى جانبه الغربى ونزل بالجيزة . مقابل الفسطاط ، وأقام هناك قرابة شهرين يتصرف فى تلك المنطقة التى حط رحاله فيها .

وسرعان ما اتصل شاور مرة أخرى بالصليبيين يستنجد بهم ضد أسد الدين .

وجاء « أمورى » ملك بيت المقدس سريعا ملبيا دعوة شاور . جاء الفرنج كما يقول أبو شامة على الصعب والذلول ، الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، وسرعان ما عبروا إلى الجانب الغربى وكان أسد الدين وجنوده قد أوغلوا فى البلاد المصرية جنوبا حتى وصلوا إلى مكان اسمه « البابين » وهو على بعد عشرة أميال جنوب مدينة المنيا .

وتبع الصليبيون الجيش النورى ، حتى لحقوهم بهذا المكان ، ووقف الجيشان يواجه بعضهما بعضنا .

أسد الدين يعقد مجلس استشارة

وكان أسد الدين قد أرسل جواسيسه ليعرفوا قوة العدو واستعداده وأخباره فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وقوة عتادهم وجدهم فى طلبه .

وجمع قواده وكبار جنوده ليستشيرهم ، وكان قد خاف أن يواجه عدوه فيفاجأ بتخاذل جنده ، نظرا لقلة عددهم وغربتهم ، وكثرة عدده ومظاهرة جنود شاور له وهم فى بلادهم ومددهم قريب ومئونتهم حاضرة . فأشاروا عليه أن يعبر النيل إلى الشاطئ الشرقى ويعود إلى الشام وعز عليه ذلك .

لقد كان وجهة نظر من استشارهم سليمة إذ ما يغنى جيش قوامه ألفا جندى غريب عن بلده فى مواجّهة جيش جرار من الصليبيين يفوق عدده أضعاف عددهم ، ومن حولهم جنود مصر يساعدونهم ويظاهرونهم على حربهم ويمدونهم بكافة الإمدادات المطلوبة ؟ ؟

بسالة جندى

ولكن جنديا باسلا من جنود أسد الدين اسمه « شرف الدين برغش » قال : من



يخاف القتل والجراح والأسر لا يصلح لخدمة الملوك بل عليه أن يكون فلاحا فى الحقول ، أو جالسا مع النساء فى البيوت ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا وليقولن لكم : أتأخذون أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم ، وتسلمون الديار المصرية للكفار يتصرفون فيها ؟

وأثارت هذه الكلمة الجنود ، وقوت من موقف أسد الدين ، وقال : هذا رأيى ، وبه أعمل ، وما جئت إلا للجهاد ، فمن كان عزمه كذلك فليتبعنى .

ووافق صلاح الدين على ذلك ، ثم كثر الموافقون حتى اجتمعت كلمة الجميع على القتال .

خطة ناجحة

ووضع أسد الدين خطة مع صلاح الدين وقد أوضح لنا أبو شامة هذه الخطة فقال :

جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب ، وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أننى فى القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم .

ثم اختار من شجعان أصحابه جمعا يثق فيهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف فى الميمنة .

فلما تقابل الفريقان ، حدث ما توقعه أسد الدين ، فحمل الفرنج على القلب بقوة ظنا منهم أن فيه أسد الدين ، فتراجع صلاح الدين بمن معه وتصنعوا الهزيمة أمامهم فتبعوهم وحينئذ حمل أسد الدين بمن معه على من بقى من الفرنج فهزموهم وأثخنوا فيهم الجراح وأكثر القتل والأسر وولى الباقون الأدبار .

وكان الذين هجموا على القلب قد عادوا فوجدوا أصحابهم مقتولين ومأسورين وفارين ، فحمل أسد الدين عليهم ، وجاء صلاح الدين ومن معه فكروا أيضا مع أسد

الدين عليهم ، فانهزم الصليبيون هزيمة منكرة واستطاع الألفان أن يهزموا جيوش شاور وجيوش الفرنجة مجتمعين .

فى الطريق إلى الإسكندرية

وسار أسد الدين ومعه ابن أخيه نحو الاسكندرية فتسلمها بدون قتال وأناب عنه فى حكمها صلاح الدين ..

وعاد أسد الدين إلى صعيد مصر ، فتملكه وجبى أمواله .

وأصبح صلاح الدين حاكم الإسكندرية . واستمتع فترة بجمالها وحسن موقعها على شاطئ البحر الأبيض ، وفى الحق هى عروس ذلك الشاطئ ولكن الاستمتاع لم يدم .

فقد جمع المصريون والصليبيون صفوفهم من جديد ، وساروا نحو الاسكندرية وحاصروها ..

وعاد أسد الدين سريعا من الصعيد لينجد المدينة المحاصرة وفيها ابن أخيه . . وتمكن من فك الحصار ،ولكن عُقِدَ صلح بين أسد الدين وشاور والفرنج ، أهم شروطه أن يجلوا الفرنج عن مصر لا يتملكون فيها شبرا ، وفى نظير ذلك يترك أسد الدين مصر أيضا ، بشرط أن يدفع شاور لأسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما جباه من البلاد . وعادت هذه الحملة الثانية إلى دمشق ..

تعليق على أحداث هذه الحملة

لقد وضح من سير أحداث هذه الحملة أن الصليبيين جادون فى امتلاك مصر ، حريصون تماما على احتلالها واستغلال خيراتها ، فهم « جاهزون » لتلبية نداء شاور حين يستنجد بهم .

وقد تلكأوا فى الخروج من مصر بعد هزيمتهم عن « البابين » ولم يغادروا مواقعهم لانتظار فرصة أخرى للانقضاض على جنود شيركوه وصلاح الدين . ولذلك أسرعوا حين طلب منهم شاور الزحف على الإسكندرية لحصار صلاح الدين بها بعد أن أوغل عمه فى الجنوب .



ووضح أيضا أن شاور لم يكن على مستوى المسئولية الوطنية ، ولم يكن بالرجل الذى يوثق بكلامه ، إنه لا يهمه إلا الظفر بالحكم والبقاء فيه بأى ثمن ، ولو كان بقاؤه فيه يكلفه أن يكون تحت راية الاستعمار يفهم من ذلك استنجاده بملك الفرنج أكثر من مرة ، وهو يعلم تماما أن هذا الاستنجاد له تكاليفه وله ثمنه . فهؤلاء الفرنجة لا يأتون حبا فى عيون شاور أو إخلاصا له ، أو بدافع المروءة وفض المنازعات ، ولكن مجيئهم بهدف خاص لهم أولا وأخيرا وهو احتلال مصر واستغلال خيراتها ..

ولسائل أن يسأل أين دور المصريين فى ذلك ؟ أيظلون هكذا سلبيين يلعب بهم شاور وأمثاله وهم الخاسرون فى النهاية لأن الحرب لا تقع أولا وأخيرا إلا على كاهل الشعب الذى يقاسى شرها ويتجرع مرارتها ويدفع تكاليفها ؟ ؟

والواقع أن الشعب كان مغلوبا على أمره بعد أن جرده شاور من كل أسباب المقاومة كان شاور يحكم قبضته على البلاد ، وكان جائراظالما فلم يمكن أهل القاهرة من التعبير عن أنفسهم ، وإظهار استيائهم من تحالفه مع الصليبيين ، وسيأتى كيف كان يصنع بالزعماء ومن تسول له نفسه الاعتراض على تصرفاته هكذا كانت حال الشعب فى القاهرة وما حولها من البلاد .

أما فى الاسكندرية فقد كان الشعب على عكس ذلك ، فقد ضاق ذرعا بتصرفات شاور ، ولذلك رحب بصلاح الدين ترحيبا شديدا ، وفتح له أبواب المدينة ومكنه منها وهيأ له سبل الإقامة فيها ، ذلك أنه وجد فى ظل صلاح الدين المسلم الذى يعد من قواد نور الدين الغيور على دينه المحارب لأعداء الإسلام ، الذى يجرد حملاته على الصليبيين لقهرهم وطردهم من بلاد الإسلام ، وجدوا فى ظله الأمن والأمل فى التخلص من هذا الكابوس الذى جثم على أنفاسهم ، وقد عبر عن هذا المعنى شاعر من شعراء تلك الحقبة ، والشعر هو لسان حال الشعب :

أقول والأتراك قد أزمعت ... مصر إلى حرب الأعاريب

رب كما ملكتها يوسف الصديق ... من أولاد يعقوب



يملكها فى عصرنا يوسف	الصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدا	حقا وضراب العراقيب

وهذا الشاعر واسمه « العرقلة الدمشقى » يقصد بيوسف الأول النبى يوسف ـ عليه السلام ـ ويقصد بيوسف الثانى صلاح الدين الأيوبى ، وحين حوصرت الإسكندرية لم يجزع أهلها ،ولم ينفضوا من حول صلاح الدين ، بل صبروا معه على المحنة حتى انفرجت ..

وعلى الرغم من هزيمة الصليبيين فى معركتهم فى « البابين » فقد استفادوا فى النهاية ، لأن الصلح الذى تم بين الأطراف ، قضى أن يترك الفرنجة والنوريون مصر ويرحلون عنها .

والتزم أسد الدين وصلاح الدين بذلك ولكن الصليبيين لم يلتزموا ، فقد أبقوا وراءهم حامية من فرسانهم تحمى أبواب القاهرة ، ومندوبا عنهم يستعين به شاور ، وفى الحقيقة ليشارك فى شئون الحكم ، وأن يدفع شاور جزية سنوية تقدر بمائة ألف دينار للصليبيين (١) . لقد أصبحت مصر بذلك واقعة تحت الحماية الصليبية ..

الرحلة الثالثة إلى مصر

عاد صلاح الدين مع عمه إلى دمشق ، وأنهيا إلى نور الدين ما حدث وكان نور الدين فى أثناء مغيب أسد الدين وصلاح الدين فى مصر قد أغار على الصليبيين فى عدة مواقع وامتلك منهم قلعة « المنيطرة » وهى قلعة مهمة ، وخرب قلعة « اكاف » بالبرية ، وخرب كذلك قلعة « هونين » وهى فى بلد فى جبال عاملة تطل على نواحى مصر ، تقع عند التقاء الطريق القادم من صفد بالطرق الموصلة من « تبنين » إلى « بانياس » .

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين وصلاح الدين لم تثبت أقدام جيش نور الدين فى مصر ، إلا أنها وقفت على كثير من أحوال مصر وعرفت مداخل البلاد

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٧٥ .



ومخارجها ، ودرست نفسيات أهلها وعرفت مدى استعدادهم للتخلى عن شاور والفاطميين متى لزم الأمر ..

لقد أدركت هذه الحملة أن خليفة الفاطمين لا جدوى منه ولا حركة له ـ إن الذى يسير دفة الأمور شاور وبطانة الخليفة ، والخليفة حاضر كغائب . هو اسم على غير مسمى وشاهد على غير مبنى ، ولفظ بدون معنى .

لقد حصلت الحملة على فائدة من غير شك ، والحصول على المعلومات ليس بالشئ الهين ، على أن الحملة حققت أغراضها عسكريا أيضا ، فقد هزمت الصليبيين وجاست خلال الديار حتى وصلت إلى أقاصى البلاد من الجنوب ، واحتلت الإسكندرية فترة من الزمان . كل هذه مكاسب حققها أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين . ولم يغب الشعر عن تسجيل هذه الأحداث ، لذلك نسمع العماد الأصفهانى يستقبل أسد الدين فى دمشق وينشده قصيدة من أبياتها :

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ماعجزت عن نيله القدرُ

من يهتدى للذى أنت اهتديت له ... ومن له مثل ما أثرته أثر

وفيها يقول :

أوردت خيلا بأقصى النيل صادرة ... عن الفرات يقاضى وردها الصَدر

يَسَّرت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قُفْلاً فتحه عَسِرُ

قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت ... مآرب لك عنها أسفر السفر

ومن يكون بنور الدين مهتديا ... فى أمره كيف لا يقوى له المرر (١)

لقد بغت الإفرنج فانتصفت ... منها بإقدامك الهندية البتر

غرست فى أرض مصر من جسومهم ... أشجار خط (٢) لها من هامهم ثمر (٣)

---

(١) المرر : يقصد العزائم ، يعنى أن الذى يستضئ بنور الدين تقوى عزيمته ، والمرير والمريرة هى العزيمة .

(٢) الخط : شجر قوى تؤخذ منه السهام .

(٣) كتاب الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٣٧٢ .

وامتدح صلاح الدين وهنأه بالعودة المظفرة فقال :

ورقبنا كالعيد عودك فاليوم — به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف وإلى يعقوب — بالتهنئات جاء البشير
فلأيوب من إياب صلاح الدين — يوم به توفى النذور

وأشار إلى عودته إلى مصر مرة أخرى فقال :

ولكم عودة إلى مصر بالنصر — على ذكرها تمر العصور
فاستردوا حق الإمامة ممن — خان فيها فإنه مستعير (٤)

وأقام أسد الدين فى دمشق حتى أقطعه نور الدين مدينة حمص وأعمالها فسار إليها وسد ثغورها ، وضبط أمورها وحمى جمهورها .

ولكنه ظل على ذكره لمصر ، تراوده فى أحلامه ، وتتراءى له فى خياله إن لمصر سحرا لا ينسى وأثرا فى نفس شاهدها لا يبلى ، وقد حكى الرواة أن الذى يشرب من نيل مصر لابد أن يعود إليه . وأسد الدين لم يشرب فقط ولكنه ارتوى ، وروى أرضها أيضا من دماء فرسانها الذين حاربوا أعداءها فوق ثراها .

لقد ظل يتشوق إلى أرض مصر ، ولمس نور الدين ذلك منه فقال له : أما آن لك أن تسلو عن حب مصر ؟ لقد تعبت مرتين واجتهدت ولم يحصل لك ما طلبت ، وقد أذعنوا بالطاعة ، وشفعوا السؤال بالشفاعة ، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة .

كان نور الدين يهدئ من جيشان عاطفة أسد الدين نحو مصر انتظارا للحظة حاسمة، وهو فى الحقيقة كان أشد تشوقا لمصر منه فسكت أسد الدين على مضض ، ولكن الأحداث هى التى فرضت عليه العودة إلى مصر للمرة الثالثة ومعه صلاح الدين الأيوبى .

أسباب هذه الرحلة

كانت هذه الرحلة سنة أربع وستين وخمسمائة التى توافق العام الميلاددى ١١٦٨ م

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٣ .

وترجع أسبابها إلى أن الصليبيين نقضوا عهودهم مع شاور وأسد الدين ، وطمعوا فى امتلاك البلاد بعد أن خبروا طرقها وعرفوا مداخلها ومخارجها ، وأدركوا عظم ثروتها . لم يكتف الصليبيون بما نهبوه من أموال قدمها لهم شاور طعمة مستساغة فى نظير نجدتهم له فى المرة السابقة ، ولم يكتفوا بحاميتهم التى تركوها وراءهم فى القاهرة ، ولا بمندوبهم الذى أبقوه مشاركا فى الحكم ومتدخلا فى شئون مصر ، لم يكتفوا بكل ذلك ، بل أقبلوا بقضهم وقضيضهم يحاولون احتلال مصر وامتلاكها للأبد .

جاءوا وفى نفوسهم حنق وفى صدورهم غدر ، وفى قلوبهم طمع وفى عقولهم خطط ..

كان لسان حال الصليبيين : إن مصر لا مانع لها ولاحافظ ، وقد اتفقوا جميعا على غزوها ، على الرغم من أن « أمورى » ملك بيت المقدس الذى قاد الحملة السابقة كانت له تحفظات على هذه الحملة ، ولكنه اضطر تحت إجماع الآراء على المشاركة معهم .

لقد هيأ لهم ظنهم أن نور الدين فى غفلة عنهم ، وأن جنوده مفرقون فى البلاد الشامية ، وأن مصر لا مدافع عنها وإلى أن تستنجد بنور الدين ويجمع جيوشه يكون الصليبيون قد فرغوا من أمرها ووطدوا أقدامهم فيها .

ولعل الذى أغرى الصليبيين بذلك أصحاب النفوس الصغيرة الذين تسول لهم نفوسهم خيانة أوطانهم ، والاستعانة بأعدائها لتحقيق أطماع صغيرة وشهوات دنيوية حقيرة .

فقد كان هناك من أمثال ابن الخياط الذى كان من رجال الدولة الفاطمية فى أيام الوزير الصالح طلائع بن رزيك ، ورزئ بموته ، فامتلأت نفسه حنقا على شاور ، ومن أمثال « ابن قرحلة » وهو أيضا ممن كان يكن العداوة لشاور ، وقد سولت له نفسه أن يستعين بالصليبيين على قهر شاور لعله يمثل على أيديهم منزلة فى الدولة ، وفى سبيل ذلك صحب جيوشهم فى طريقها إلى القاهرة .

هذه النفوس المريضة هى أخطر أعداء الوطن ... ومنها يكون داؤه وفى القضاء عليها دواؤه .

طريق الفرنج إلى مصر

خرج الصليبيون من حصونهم فى سواحل الشام يظهرون أنهم يقصدون « حمص » لينشغل بها السلطان نور الدين عنهم .

واتجهوا صوب بلبيس فاحتلوها بعد مقاومة عنيفة وأعملوا فيها النهب والسلب ، لقد أبدى أهل بلبيس مقاومة شديدة ، وصمدوا لهذا العدوان ولم يستسلموا بسهولة ، ومكثوا خمسة أيام لم يتركوا شيئا ذا قيمة إلا استلبوه ونهبوه ، ثم أسروا جملة من أهلها وأحرقوا أغلب دورها وخربوا الباقى منها وبعد أن فرغوا من بلبيس اتجهوا نحو القاهرة ، فجند الناس أنفسهم للدفاع عنها خوفا من أن يحدث لها ماحدث لبلبيس

وخشى شاور أن يحتل الصليبيون وهم قادمون الفسطاط ، فأحرقها قبل قدومهم ، وظلت النار مشتعلة فيها ما يقرب من شهرين .

العاضد يستنجد بنور الدين

أدرك الخليفة خطورة الموقف فأرسل لنور الدين يستنجد به .

كانت رسالة الخليفة العاضد لنور الدين صارخة تشير إلى مدى ما وصل إليه الحال من فزع وخوف ، فقد ضمن الرسالة خصلات من شعور النساء ، قائلا : هذه شعور نساء من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ..

ولم يكن العاضد فقط هو الذى كتب لنور الدين يستغيث به فقد كتب شاور أيضا له يستغيث ، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفرا ، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبرا ، ويقول له : إن لم تبادر ذهبت البلاد ، وكانت الكتب مسودة بالمداد إشارة لما حدث فى البلاد من حالة الحداد ، وقد تضمنت ذوائب من الشعر تدل على أن النساء يستصرخن ، ولا تستصرخ النساء إلا حين يشتد الفزع ويكثر الهلع ويحيق بالأمة الهلاك .. هكذا قال الرواة .

لقد أدرك شاور أخيرا نتيجة ممالأته للعدو واستعانته به ضد أهله ووطنه وإخوانه المسلمين ، فقد حاقت به خطيئته ، وحلت به سيئات تدبيره وعواقب مكره وغدره .



لقد طالبه الصليبيون بأداء ما عليه من مال وفاء بما ضمنه لهم فى الحملة السابقة . ولكنه حين رآهم قد عادوا غادرين سقط فى يده ، وأدرك خطر رأيه وسوء تدبيره ، فماطلهم وهم يلحون فى الطلب ، ومازال يحاورهم ويداورهم حتى يأتى مدد نور الدين لينقذه من هذه الورطة الشديدة ، ويخرجه من هذه المحنة العنيفة .

استجابة نور الدين

كانت هذه فرصة بالنسبة لنور الدين أسرع فى انتهازها ، ونظر فلم يجد أمامه فارسا لهذه الحملة إلا أسد الدين ..

إن أسد الدين مشغوف بمصر والعودة إليها ومتطلع لها ، وها هى ذى الفرصة قد لاحت ، لقد كان نور الدين يكفكفه عن هذه الرغبة التى تملأ صدره حتى تأتى اللحظة المناسبة ، وها هى ذى اللحظة المناسبة قد جاءت ..

وكان أسد الدين قد علم بما حدث عن طريق الأخبار التى تتوارد فى نواحى البلاد، فأسرع تاركا « حمص » متجها إلى نور الدين فى دمشق قبل أن يطلبه .

واستدعى نور الدين صلاح الدين وأمره أن يسرع إلى حمص ليستدعى له أسد الدين على جناح السرعة .

فما أن غادر صلاح الدين دمشق قليلا حتى لقى عمه فى الطريق قادما ، فعاد معه إلى دمشق .

وسر نور الدين بقدوم أسد الدين فى الوقت المناسب ، وعلم أن هذا من تصاريف القدر ، واعتبر ذلك من البشارات بالنصر الذى سوف يصاحب هذه الحملة ، فإن من علامة الإذن التيسير .

وحين مثل أسد الدين بين يدى نور الدين أمره بالتوجه فورا إلى مصر على رأس حملة من الجنود والفرسان ..

وأصر أسد الدين على أن يصحب معه ابن أخيه صلاح الدين .

تأبى صلاح الدين

نظر أسد الدين إلى ابن أخيه قائلا : هيا يايوسف تجهز معى للخروج ولكن صلاح الدين رفض ، كان قد آلى على نفسه بعد عودته من مصر فى المرة السابقة ألا يعود إليها مرة أخرى ، فقد ذاق فى خلال الحصار الذى ضرب عليه فى الإسكندرية كثيرا من أنواع المشاق ، وأشرف فيها على الهلاك ..

وحين عاد جلس بين أبيه وإخوته يقص عليهم ما شاهده من أهوال وما قاساه من محن ، ووجد تعاطفا من إخوته معه ، ولكن أباه قابل ذلك بعدم اكتراث ، وأخذ يسخر منه ومن ضعفه قائلا له : إن المحن هى التى تصنع الرجال ، ولا يصنع الرجل العظيم إلا الألم العظيم ..

ولولا أن المحن هى التى تقوى القلوب وترفع الناس إلى أعلى الدرجات ما جعل الله الامتحانات وسيلة للارتفاع إلى أعلى الدرجات ، قال تعالى ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** [1] ﴾ وظل صلاح الدين مصرا على موقفه من عدم التوجه إلى مصر مرة أخرى ، فلما أصر عمه على أن يصحبه معه فى هذه المرة تمنع وأبى ، فتوسل أسد الدين فى إقناعه بالسلطان نور الدين .

ولنقرأ ما جاء على لسان صلاح الدين نفسه وهو يقص علينا مادار بينه وبين عمه وبين نور الدين حول ذلك وقد روى لنا ذلك صاحب كتاب الروضتين :

قال صلاح الدين : فالتفت إلى عمى أسد الدين وقال : تجهز يايوسف .

قال : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، فقلت ، والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا .

فقال عمى لنور الدين : لابد من سيره معى ، فترسم له ... يعنى أصدر له مرسوما ـ

---

(١) محمد ٣١ .

فأمرنى نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق إلا المسير .

فقال لىّ نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك .

فشكوت إليه الضائقه وقلة الدواب وما أحتاج إليه ، فأعطانى ما تجهزت به ، وكأنما أساق إلى الموت .

وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته فسرت مع عمى ، فلما استقر أمره وتوفى أعطانى الله من ملكها ما لاكنت أتوقعه (١) .

وفوق تدبيرنا لله تدبير

لقد ألح صلاح الدين فى التأبى على الاشتراك فى هذه الحملة ، ولكن المقادير كان لها شأن آخر .

لقد زهد صلاح الدين فى الخروج ومازال به نور الدين وعمه حتى قبل الاشتراك فى الحملة ، ولم يكن فى ذهنه أى شئ مما يراود أحلام الفرسان من مراتب ومناصب، وما يرسمونه فى خيالهم من مغانم ومكاسب ، ولعل هذا هو الذى هيأ له فيما بعد أن يكون ملك مصر ، وقديما قال الحكماء : لو وقعت قلنسوة من السماء لجاءت على رأس من لا يريدها .

ومن الأشياء التى تصادفنا أحيانا فى واقع حياتنا أن المتطلع للشئ لا يناله والزاهد فيه هو الذى يناله . وقد صدق ذلك بالنسبة لصلاح الدين وهذا يوقفنا على سر ما قاله الحكيم : وفوق تدبيرنا لله تدبير وتدبير الله محكم ، وقضاؤه نافذ ، وقد ادخر الله لمصر صلاح الدين بل ادخره للعالم الإسلامى بأسره ، وكان خروجه مع عمه فى هذه الحملة مقدمة لذلك كله .

ولم يكن العادل نورالدين وحده وراء موافقة صلاح الدين على الخروج مع عمه ،

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٩٤ .

بل كان نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين له يد فى ذلك أيضا فإنه قد رأى تمنع ولده على الخروج ، فنظر إليه فى حزم وقال : « غدا تحمل سيفك ، وتلبس درعك ، وتركب فرسك ، وتتبع عمك أنى سار » .

وبهذه الكلمات الهادئة الصارمة قطع نجم الدين أيوب على ولده سيل الخواطر المحزنة التى طافت برأسه ، ونطق الأب بهذه الكلمات وهو يبتسم فى وجه ابنه ابتسامة هادئة وادعة أغنته عن إتمام العبارة التى كان يريد أن يقولها له بعد ذلك ، فقد كان يريد أن يقول له بعد ذلك :

لن تريح نفسك يابنى وقد أراد أن يتعبك أبوك [١] .

الحملة فى مصر

وأخذت حملة نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الد ين الأيوبى طريقها إلى مصر .

وما أن تسامع الصليبيون بتوجه هذه الحملة إلى مصر حتى سارعوا بالفرار ومغادرة البلاد ، وقيل : إنهم حين رأوا التفاف المصريين حول أسد الدين وجنوده وترحيبهم بهم والتفافهم حولهم ، فروا عائدين خائبين دون أن يحققوا شيئا أو ينالوا مغنما ، بل إن مغانمهم القديمة ضاعت عليهم أيضا وأصبح حالهم كالصياد الذى أضاع ما فى شبكته طمعا فى صيد جديد .

وتغيظ ملك الفرنج « أمورى » من رفاقه الأمراء الصليبيين وأخذ يسبهم سبا قبيحا ، لأن رأيه كان فى عدم الخروج فى هذه الحملة ، ولكنهم أكرهوه على ذلك فسار معهم[٢] .

ونلاحظ أن الذى استنجد بنور الدين فى هذه المرة هو العاضد الخليفة ، لأنه قد ساءه جدا سوء تصرف وزيره ، وراعه أيضا أنه عمد إلى حريق الفسطاط الذى أتى

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ٢٩ .

(٢) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٣٩٠ .

عليها وأذهب بمعالمها وقد كانت عاصمة مصر الأولى فى عهد الإسلام ، ولذلك فإن الفسطاط لها بُعْد تاريخى مؤثر فحريقها يعنى إحراق جزء من كيان مصر الذى ارتبط بالإسلام منذ دخولها فيه ودخوله إليها .

والعاصمة فى أى بلد تمثل القلب الذى يبعث فيها الحركة والحياة والنشاط والأمل ، ولذلك يحرص أى مستعمر على احتلال العاصمة ليكون قد سيطر على الدولة التى يحتلها ، فإن لم يستطع احتلالها يكن قد أخفق فى حملته . وكثيرا ما يلجأ المدافعون عن أوطانهم ضد الغزاة إلى نقل عاصمتهم إلى أماكن أخرى حين يرون اقتراب العدو منها وليس يعنى نقل العاصمة إلى مكان آخر أن العاصمة القديمة أصبحت غير ذات مضمون كلا ، ولكن النقل يفيد استمرار الشعب فى المقاومة وإصراره على دحر الغاصب ، وتكوين مركز للمقاومة يستمد منه المجاهدون الأوامر ويتم فيه تدبير الخطط والتجهيزات .

عواصم مصر عبر تاريخها

ولنضيف إلى معلوماتنا بعض الحقائق عن تاريخ هذا الوطن العريق الذى نتنفس هواءه ، ونعيش فوق أرضه وتحت سمائه وننعم بخيراته نذكر عواصم مصر عبر تاريخها العريق المديد منذ فجرها الفرعونى حتى الآن .

يقول لنا الكاتب الراحل عاشق مصر « د / جمال حمدان » :

عواصم مصر التاريخية تبدأ مع توحيد القطرين ـ فى عهد مينا ـ بمدينة « منف » وهى « ميت رهينة ـ البدرشين حاليا » ثم لم تلبث أن ارتدت جنوبا إلى « أبيدوس وهى العرابة المدفونة » ثم عادت إلى « منف » مرة أخرى مع الأسرة الثالثة لتستقر فيها حتى الأسرة الثامنة لمدة أكثر من خمسة قرون .

ثم أصبحت عاصمة مصر « إهناسيا » على نفس خط عرض بنى سويف وذلك فى خلال الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وظلت العاصمة كذلك حوالى مائتين وثمانين سنة .

وابتداء من الأسرة الحادية عشرة أصبحت « طيبة ـ الأقصر » هى العاصمة الوطنية ، وظلت كذلك ثمانية قرون . وإن كانت متقطعة فقد انتقلت فى خلال ذلك لفترات إلى الفيوم ثم إلى أفاريس ـ فى عصر الهكسوس ـ ثم إلى تل العمارنة ـ ملوى ـ ولكنه انتقال مؤقت كان يعود الأمر إلى طيبة . حتى انتهى عصر الأسرة العشرين .

ومع بداية الأسرة الحادية والعشرين كانت العاصمة « تاينس » فى شمال شرق الدلتا . ومع الأسرة الثانية والعشرين كانت العاصمة « تل بسطة » فى الزقازيق ـ ومع الأسرة الرابعة والعشرين كانت العاصمة تنتقل بين « منف » و « سايس » ـ صالحجر ـ فى شمال غرب الدلتا . ومع الأسرة السادسة والعشرين استقرت العاصمة فى «سايس » وعادت العاصمة إلى منف بعد الأسرة الثانية والعشرين وذلك خلال الحكم الفارسى فى أواخر عصر الأسرات .

ثم انتقلت العاصمة إلى « الإسكندرية » لمدة ألف عام ، منذ الفتح المقدونى سنة ٣٣٢ ق م حتي الفتح الإسلامى سنة ٦٤١ م ولم تنتقل العاصمة إلى الفسطاط إلا مع الفتح الإسلامى ثم أصبحت « القطائع » هى العاصمة والقطائع أنشأها أحمد بن طولون واستمرت عاصمة فى عهد الطولونيين .

ثم أصبحت مدينة « العسكر »هى العاصمة وذلك فى عهد الإخشيديين ثم أصبحت القاهرة هى العاصمة مع بداية الخلافة الفاطمية فى مصر حتى وقتنا هذا (١) .

لقد انزعج الخليفة العاضد لحريق الفسطاط ، وانزعج الناس كذلك ، وأظهر هذا العمل الذى يدل على رعونة شديدة عجز الوزير شاور الذى كان يعهد إليه الخليفة بإدارة شئون الحكم .

وبين أن السبب الذى أدى إلى حرق الفسطاط كان وراءه شاور من غير شك ، لأنه هو الذى استعان بالفرنجة أصلا وأطمعهم فى البلادوأذاقهم حلاوتها بما أعطاه إياهم

---

(١) باختصار من كتاب القاهرة د/ جمال حمدان ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ كتاب الهلال

ويلاحظ أنه ذكر أن القطائع كانت بعد الفسطاط ، ولكن المشهور عند المؤرخين أن « العسكر » كانت قبل القطائع ـ راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٥٧٢ .



من مال هو فى الواقع جزية وهى ذل فى جبين البلاد، لأن الجزية إنما تؤدى من المضروبة عليهم فى نظير حمايتهم ، فكأن الذين يحموننا هم الفرنجة ، وممن يحموننا؟ من إخوة فى الإسلام لا يريدون لمصر إلا كل عزة وفخار ..

لقد كان هذا العمل من شاور هو العار الذى لا يمكن السكوت عليه من أجل هذا استنجد العاضد بنور الدين لينقذه من الصليبيين وشاور معا .

وإن كان شاور نفسه قد استعان بنور الدين أيضا ولكن كان هدف الاستعانة مختلفا . استنجد العاضد بنور الدين ليخلصه من شاور الذى كان أسّ البلاء ، واستنجد شاور بنور الدين ليمكنه من الاستمرار فى حكم البلاد ، وعلى أى حال فقد جاءت النجدة وحققت أغراضها وولى الصليبيون الأدبار مؤقتا ، دون أن ينسوا حلاوة مصر ، ولا ثروة مصر، ولا خزائن مصر وكيف يدسونها وقد بذل لهم شاور فى هذه المرة وحدها مائة ألف دينار من ألف ألف دينار قد اتفق على أن يعطيها لهم ؟؟

العاضد يكرم أسد الدين

وبمجرد وصول أسد الدين إلى القاهرة اجتمع بالخليفة العاضد الذى رحب به ترحيبا شديدا ، وأكرمه إكراما عظيما ، لقد خلع عليه ـ على عادة ما يفعل الخليفة بكبار القوم وعظماء الزوار ـ وأجرى عليه وعلى عساكره الجزايا الكثيرة ، وأكرم كبار ضباطه ومستشاريه الذين حضروا معه ، وفى مقدمتهم صلاح الدين ، وكان من كبار الأمراء الذين حضروا مع أسد الدين غير صلاح الدين : عز الدين جرديك وكان مملوكا خاصا لنور الدين ، ومقربا إليه ، وفارسا ممتازا ، وغرس الدين قليج ، وشرف الدين برغش ، وناصح الدين خمارتكن ، وعين الدولة بن الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وغيرهم ، وكان كل من هؤلاء عسكريا سياسيا يصلح لإدارة المعركة ويشارك فى أمور الدولة برأى ناضج وفكر ناصح ..

وحين رأى شاور احتفال العاضد بأسد الدين ومن معه داخله غيظ عظيم ، ولكنه كتم ذلك فى نفسه ، ولم يستطع أن يظهر ما ساوره من حقد خوفا من عساكر الشاميين التى جاءت مع نور الدين وهى ماتزال معسكرة فى ظاهر البلد ، وعلى أهبة الاستعداد لتلبية أى أمر يصدره أسد الدين شيركوه .

وكان شاور قد وعد أسد الدين أولا وثانيا وثالثا يعنى فى كل المرات التى جاءها إلى مصر بمال يؤديه إليه ، فلم يف إليه فى أى مرة .

وفى هذه المرة الأخيرة أضاف إلى وعده بالمال ـ حين أرسل إلى نورالدين يستنجده ـ أن يكون لنورالدين ثلث البلاد ، لم يف شاور بأى من ذلك ، وتعلل بالوعود ، وتذرع بالمماطلة وكان شاور داهية من الدواهى خبيث الطوية شديد الحيل والمكر ، واسع الحيلة كثير الدهاء ومن دهائه أنه كان يكثر من زيارة أسد الدين ، ويظهر الترحاب به ، والفرح بوجوده ، ولكن قلبه يكن له كل حقد وعداء .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

وفى يوم عزم شاور على أن يقيم حفلا لأسد الدين ومن معه من كبار القادة والأمراء ، وينتهز هذه الفرصة ليقبض عليهم ويتخلص منهم .

وأسر شاور بهذه المؤامرة لابنه الكامل وكان هذا الابن على غير أبيه فهاله ما سمع منه ونهاه عن هذا الأمر ، وقال له : والله لئن عزمت على ذلك لأحذرن منك أسد الدين ..

فقال شاور لابنه : يا بنى إن لم نقتل أسد الدين قتلنا .

فقال الكامل لأبيه : لأن نقتل ونحن مسلمون بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، فهم لم يتركوا البلاد إلا خوفا منه ، فإذا أمِنوا ذلك عادوا ، ولئن عادوا فلن يخرجوا حتى ولو سار الخليفة نفسه إلى نور الدين مستنجدا به .

فلما رأى شاور أن ابنه لم يوافقه على ما رسمه من خطة سكت مكرها إلى حين ، وفى نفسه ما فيها من إخفاء العداوة وانتهاز الفرصة المواتية للتخلص من أسد الد ين . ولم يخف على أسد الدين ما يعتمل فى نفس شاور ، لقد أدرك بفطنته أن شاور يكن له كل عداء وحقد وينتهز الفرصة المناسبة للانقضاض عليه ..

وكان لابد من مواجهة هذا الغادر قطعا لدابر الفتنة وقضاء على طمع الفرنج مرة

أخرى فى مصر لأن مخلبهم فى مصر إنما هو شاور وأضراب شاور ، وقد جرت عادة المستعمرين منذ القدم أن يستعينوا فى تحقيق مآربهم بمن يستميلونهم من ضعاف النفوس الذين تغريهم المادة من مال ومناصب ، فيمدون لهم حبال الآمال فيتعلقون بها ثم تكون منيتهم بعد ذلك على أيديهم بعد أن يحققوا لهم أطماعهم وأغراضهم ، وصدق الأثر الذى يقول « من اسنعز بقوم دون الله أذله الله على أيديهم » .

وكما حرص شاور على التخلص من أسد الدين حرص كذلك أسد الدين على التخلص من شاور .

وقد أراد الله بمصر خيرا حين أنجح أسد الدين فى تدبيره ، وأعانه على تخليص البلاد من شر هذا الثعلب المخادع الذى خرب البلاد وحرق الديار ، وجرأ العدو الكافر على احتلال الوطن والطمع فيه ..

وشجع الخليفة العاضد نفسه أسد الدين على وجوب التخلص من شاور بعد أن تكشفت له نيته الخبيثة وسوء تدبيره وتخريب ميزانية الدولة .

جاء فى تقرير لبعض المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة : لم يرب أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلف أموالهم مثل شاور ، وشاور هو الذى أطمع الغز و الأفرنجى فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها .

وضرب مثلا على ذلك بأنه بعد أن عاد من حصار الإسكندرية الذى اشترك فيه مع الصليبيين ، ضد صلاح الدين ومن معه فى أثناء الرحلة الثانية ــ التى سبق الحديث عنها ــ أكثر شاور من سفك الدماء بغير حق ، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار (١) .

التخلص من شاور

وكان لابد من تدبير خطة للتخلص من ذلك الماكر الذى لا يؤمن جانبه ..

وذكر الرواة أقوالا متعددة حول هذه الخطة .

---

(١) كتاب الروضتين ، والنكت العصرية ص ٨٧ ، ٨٨ .

فمن قائل : إن صلاح الدين دعاه إلى مسابقة بالخيول ثم استدرجه حتى خلا به بين كوكبة من فرسانه فقبضوا عليه وحبسوه فى خيمة ، ثم استصدروا أمرا من السلطان بقتله ، فقتلوه وحملوا رأسه إليه ..

ومن قائل : إن صلاح الدين فاجأه فى أثناء ركوبه على عادته وهو على هيئته فى الوزارة فباغته هو وعدة فرسان من جنوده فقبض عليه بعد أن فر حراسه من حوله . ووضعه فى خيمة حتى صدر الأمر من الخليفة بقتله .

ومن قائل : إن أسد الدين تمارض ، فقصد إليه شاور ليزوره ويطمئن على صحته جريا على العادة ، فلما دخل عليه وثب الفارسان جرديك ويرغش فقتلاه وأراحا العباد والبلاد من شره ..

وبقتل شاور خلا منصب الوزارة ، وكان لابد من أن يملأ ..

فصدر أمر العاضد بتولية أسد الدين وزيرا ، فجاءته الوزارة منقادة ، وكان هذا هو أول الطريق فى ضم مصر إلى ولاية نور الدين ، لتتخلص نهائيا من حكم الفاطميين .

استحقاق القتل لشاور

لقد كان قتل شاور ضرورة لابد منها بعد أن تبين خيانته العظمى للبلاد فقد ثبت أنه كاتب الصليبيين يستدعيهم ليخلصوه من أسد الدين وقال لهم : فى هذه المرة يكون مجيئكم عن طريق دمياط فى البر والبحر [1] .

جاء فى البداية والنهاية : أرسل شاور إلى ملك الصليبيين يقول لهم : قد عرفت محبتى ومودتى لكم ، ولكن العاضد والمسلمين لا يوافقوننى على تسليم البلد، وصالحهم ليرجعوا عن البلد بألف ألف دينار وعجل لهم من ذلك ثمانمائة ألف دينار [2] .

فقوله هذا وتصرفه معهم يدل على خيانته لوطنه ، وهذا أمر يستوجب القتل وأكثر

---

(١) الناصر صلاح الدين ص ٨٠ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٢٥٥ .

الملك المنصور أسد الدين

كان بين مجئ أسد الدين على رأس حملته إلى مصر وبين توليته الوزارة فيها بعد قتل شاور أيام معدودات ..

كان جنود أسد الدين معسكرين فى أرض اللوق على الباب المسمى بهذا الاسم ، وكان أسد الدين قبل أن يتولى الوزارة مقيما بين عساكره فاستدعاه الخليفة العاضد إلى القصر ، وخلع عليه الوزارة ولقبه بالملك المنصور ، واستقر أسد الدين فى دار الوزارة التى كانت قبله لشاور ومن قبله كانت لضرغام ومن قبلهما كانت للملك الصالح طلائع ابن رزيك .

وأرسل إليه العاضد منشور الوزارة ، وفيه تنويه بمنزلة أسد الدين ، وإعلاء لقدره خاصة على من قبله من الوزراء .

قال العاضد فى هذا المنشور : من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، سلام عليك فإنه يحمد إليك الله ، الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما ..

ثم قال له : « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا (١) .

لقد أراد العاضد أن يستميله إليه ، ويغريه بالوزارة ليختصه به وينتزعه من أحضان

---

(١) كتاب الروضتين ص ٤٠٢ .

نور الدين ليستأثر به دونه .. ولكن هيهات فإن قلب أسد الدين بيد نور الدين . وما جاء من الشام إلا ليبسط يد نور الدين على البلاد ، ويصل جناح مصر بجناح الشام فيلحق طيرها المسعود فى أفق المجد المنشود ، ويقضى على أحلام الطامعين ويقلم أظفار الغاصبيين ..

وأخذ أسد الدين يمارس سلطانه بمقتضى المرسوم الذى صدر إليه من الخلافة . فجعل ابن أخيه صلاح الدين ذراعه اليمنى ، وجعله مباشرا للأمور مقررا لها ، وقربه من الخليفة حتى صار زمام الأمر والنهى مفوضا إليه بما عهد فيه من كفاية ودراية ومقدرة وسياسة ..

ولم يكن للعسكريين الذين صحبوا أسد الدين فى حملته كلمة بجانب صلاح الدين مع وجود أسد الدين فى الوزارة . لقد عرفوا لصلاح الدين مكانته من عمه ، وقد أصبح أسد الدين الآن هو المفوض فى شئون الحكم صاحب الكلمة النافذة فى طول البلاد وعرضها . ولم يبق له مناوئ أو معارض بعد أن قتل شاور وقتل ابنه الكامل أيضا .

اختيار الكاتب

ولابد لكل وزير من كاتب ، يطلق عليه صاحب الرسائل ، وكاتب الوزير ، ومهمته تدوين كل ما يملى عليه من أوامر لتصدر بها القرارات المناسبة ، وتسجيل الأحداث التى تمر بها الدولة ، ويشتمل عليها ديوان الوزارة .

ويشترط فيه الذكاء والفطنة وحسن البراعة وحسن الأسلوب وجودة الخط ، فحين أسندت الوزارة إلى أسد الدين طلب من القصر أن يمده بكاتب ، فأمده بالقاضى الفاضل .

من هو القاضى الفاضل ؟

والقاضى الفاضل هو أبو عبد الرحيم بن على بن محمد بن الحسن بن الحسين اللخمى العسقلانى المولد ، المصرى الدار ،، المعروف بالقاضى الفاضل ــ وصفه

العماد الأصفهانى فى كتابه « الخريدة » بأنه رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة..

ولد القاضى الفاضل فى خامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان ، وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان ، فلهذا نسبوه إليها ..

أرسله أبوه إلى الديار المصرية ليتعلم فن الكتابة فيها ، ويتدرب على فن الأدب .

وكان رأس الكتاب فى ذلك الوقت فى مصر يوسف بن الخلال ، فلما جاءه القاضى وعرفه بغيته رحب به، ثم قال له : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجاب القاضى الفاضل : إنه ليس عندى من الآلات شئ سوى أننى أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة لأبى تمام فقال له ابن الخلال : فى هذا بلاغ .

ثم أمره أن يلازمه ، فلما تردد إليه وتدرب بين يديه أمره بعد مدة أن يحل شعر الحماسة ، يعنى يفسره . فحله القاضى من أوله إلى آخره فأعجب به ابن الخلاّل ، ثم أمره أن يحله مرة ثانية ، فحله . وكان ذلك كافيا لإثبات مهارته ..

ثم توجه القاضى الفاضل إلى الإسكندرية ، وحضر عند بعض علمائها وناظره ، فأعجب به واستكتبه ، فبرع فى الكتابة حتى حسده كتاب الإنشاء على فضله ، وخافوا من تقدمه عليهم [1] .

فلما طلب أسد الدين كاتبا رموا به إليه ليتخلصوا منه . ولكن كان فى ذلك جدّه وكمال أمره ..

وأعجب به أسد الدين ، ولم يزدد القاضى الفاضل كل يوم إلا تقدما ، حتى أصبح وزيرا لصلاح الدين فيما بعد ..

وفاة أسد الدين

ولم يطل أمد أسد الدين فى الوزارة . لم يمكث فى هذا المنصب سوى شهرين

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠٩ ، ج ٣ ص ٥٣٠ .

وسبعة أيام . ووافته المنية فجأة على غير توقع ، وهو مبتفتح الآمال فارغ البال ، قوى السلطان ..

وتحدث الرواة فى سبب وفاته فقالوا : كان موته بالبطنة وهى الداء الذى قتل قديما سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى ..

قال ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية : كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، تتوافر عليه التخم وينجو منها بعد معاناة شديدة ، فأخذه من ذلك مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم فقتله يرحمه الله (١) ..

كان ذلك فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة من الهجرة ..

ودفن أسد الدين بالقاهرة ، ثم نقل إلى مدينة الرسول ﷺ بعد مدة بوصية منه ، ليجاور صديقه الوزير جمال الدين الأصفهانى الذى سبقه إلى ذلك ..

ولم يجد العاضد بدا من إسناد الوزارة بعد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، الذى كان على يديه إنهاء الخلافة الفاطمية وإقامة الدولة الأيوبية ..

* * *

---

(١) النوادر السلطانية لابن شداد ص ٣٢ ، ٣٣ .

عهد جديد فى مصر

الناصر صلاح الدين

لمن تكون الوزارة ؟

خلا منصب الوزارة بموت أسد الدين ، وكثر المنافسون حوله ، وارتفعت الرءوس متطلعة إليه ، وأصبح كل أمير ورد من الشام فى صحبة أسد الدين يظن فى نفسه أنه أقدر من غيره وأحق بهذا المنصب من سواه ..

كان من هؤلاء الأمراء الياروقى الملقب بعين الدولة وكان هو رجلا قوى البأس، عنيد الرأى، صارما، كثير الجد ، وكان من أمراء الجيش المقدمين ، فما أن وارى أسد الدين التراب حتى جمع الجيش وأقنعهم بأنه أحق الناس بالوزارة بعد أسد الدين، فعليهم أن يقفوا فى طريق من تسول له نفسه التطلع إلى ذلك ..

وكان منهم شهاب الدين الجارمى وهو خال صلاح الدين الأيوبى ، وقد اعتبر نفسه الجدير بمنصب الوزارة ، وأراد أن يتخذ من ابن أخته سلما للوصول إلى هذا المنصب .

وكان من الأمراء قطب الدين بن تليل ، وهوأهل لهذا المنصب لو تولاه ، كان أقل الأمراء طمعا فيه ، ولكنه لم يكف مع ذلك عن إذكاء نار المنافسة بين الطامعين فى المنصب ، وغايته من ذلك أن يفيد من وراء أىّ متولٍّ لهذا المنصب ، على أنه هوالذى دفعه إلى ذلك حتى ظفر ...

كل ذلك والخليفة العاضد يسأل عمن يصلح لهذا المنصب ، فيرى أن كلَّ واحد من الأمراء يزكى نفسه .. وكان الوحيد الذى لم يزكِّ نفسه هو صلاح الدين . . كان زاهداً فى الوزارة ، تاركاً لغيره من الأمراء التنافس فى ذلك ، وقد اكتفى هو بمراقبة الموقف والنظر من بعيد ..

ولعلَّ العاضد كان موفقا فى اختيار صلاح الدين لهذا المنصب ، وكان قد أعجب برأيه وعقله وشجاعته . وقد ظهرت شجاعته عند العاضد حين أقدم على شاور فى موكبه وقتله حين صدر إليه الأمر دون توقف ..

يقول الرواة : لقد كادت الوزارة تصل إلى الياروقى لولا جهود رجل من الفقهاء كان صديقا لأسد الدين ولصلاح الدين ، وهو صاحب تأثير روحى فى نفوس أهل الشام ، وله مكانة مرموقة لديهم ، ويكنٌ له الجميع الحب والاحترام .. هو الذى يرجع إليه الفضل فى تولية صلاح الدين الوزارة .. ذلك الرجل هو الفقيه عيسى الهكّارى ..

جهود عيسى الهكارى فى تولية صلاح الدين الوزارة

وكان عيسى الهكارى أميرا كبير القدر صحيح الرأى ، نافذ البصيرة ، كان يشتغل بالفقه فى المدرسة الزجاجية بمدينة حلب ، واتصل بأسد الدين شيركوه وأحبه ، وجعل أسد الدين إمامه الذى يصلى وراءه الفرائض الخمس .

وصحبه أسد الدين فى أثناء ذهابه إلى مصر ، وكان معه حين تولى الوزارة .. وأحب عيسى الهكارى صلاح الدين حبا شديدا ، فلما توفى أسد الدين اتفق الهكارى مع بهاء الدين قراقوش على أن يحل صلاح الدين فى الوزارة مكان عمه أسد الدين وقد نظر الهكارى وقراقوش فى الأمر فوجدا أن هذا الأمر لا يتم إلا عن طريق الحيلة ، نظرا لتطلع الأمراء الشاميين لذلك المنصب ، فقد أخذ يخلو هذان الرجلان بالأمراء واحدا بعد الآخر ويكلمانهم بكلام منطقى حتى خلص الأمر لصلاح الدين .

وقد تأثر كل الأمراء بكلام الفقيه الهكارى والوزير قراقوش ما عدا الياروقى الذى ركب رأسه ، وصمم على موقفه ، ورأى أنه لا يستحق هذا المنصب إلا هو ، فلما رأى ميل العاضد لصلاح الدين ، غادر مصر مسرعا ولحق بالشام وهو فى منتهى الحنق والغيظ .

وسيأتى تعريف فيما بعد لكلا الرجلين فى مناسبته إن شاء الله تعالى .

ويبدو أن اختيار العاضد لصلاح الدين كان وراءه بعد سياسى غير كفاءته وشجاعته . .

ذلك أن العاضد نظر فى الأمر فوجد أن أقل الأمراء حاشية من الجيش هو صلاح الدين ، وهو أيضا أقل الأمراء سنا فظن العاضد أنه لا يستطيع السيطرة عليه لو تولى

الوزارة ،وأنه سوف يكون أداة طيعة فى يده ، يتصرف حسب رأيه ، ويسير فى اتجاه ما يراه ، وربما ـ كما ظن الخليفة ـ أن يتمكن بواسطته من القضاء على بقية الأمراء الشاميين فلا يكون هناك من يحاول التدخل فى شئون الخلافة من أهل الشام .. هكذا ظن الخليفة .. ولم يكن بعيد النظر فيما ظن .. فإن هذا الرجل الذى لم يكن طامعا فى الوزارة ، بل كان زاهدا فيها تماما ، نائيا عنها ، هو الذى استطاع فيما بعد أن يقضى على الخلافة الفاطمية ، ويقطع دابرها تماما ، وهكذا كان العاضد فى إصراره على تولية صلاح الدين كالساعى إلى حتفه بظلفه ..

لقد كان فى تمنع صلاح الدين عن الوزارة ونأيه عنها ، وإكراهه على توليها موجبا لأن يتمثل فى شأنه بعض المؤرخين بالحديث الذى يقول : « **إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل** (١) » ..

صلاح الدين الوزير

وصدر المرسوم من قصر الخلافة بتولية صلاح الدين الوزارة ، وخلقت الخلعة المناسبة لها ، وكانت فيما يحكيه الرواة عبارة عن عمامة بيضاء مطرز بالذهب ، وثوب « دبيقى » مطرز بالذهب ، وجبة تحتها « سقلاطون » ـ لعله « قفطان » مطرز بالذهب أيضا ، وطيلسان مطرز بالذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وتخت « وسرفسار » ذهب مجوهر ، وفى عنق الفرس مشدة بيضاء فى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى قوائم الفرس الأربع أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة ، وفى رأس الفرس مشدة بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ـ جمع بقجة وهى الصرة الكبيرة ـ ومع الفرس عدة من الخيل وأشياء أخرى ، ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ..

---

(١) الناصر صلاح الدين ص ٨١ ..

وقرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة ، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ، وكان يوما عظيما من أيام المملكة [١] .

ولقد ذكرنا أوصاف الخلعة كما دونها أبو شامة فى كتاب الروضتين .. ويروعنا منها كيف كانت تنفق الدولة ميزانيتها دون حساب ، ودون نظر إلى أحوال الشعب المسكين الذى يتضور جوعا ، والذى لم تنفق هذه الأموال الضخمة فيما يصلح أحوال البلاد ويقوى شأنها ويصلح أمرها حتى تستطيع الصمود فى وجوه الطامعين ..

إن الذهب الذى طرز ت به الخلعة ، وزينت به الفرس التى يركبها الوزير ، وهى فرس واحدة من مئات الأفراس التى توجد فى اصطبلات الخلافة يكفى للإنفاق على آلاف الفقراء ، ويمكن أن تقام به الجسور ، وتشق به الترع ، وتنشأ به المشروعات التى تصلح من أحوال البلاد والعباد ..

لعلنا بهذا نفطن إلى السر فى ضعف البلاد وتأخرها وعدم تمكنها من الدفاع عن نفسها حتى يطمع فيها الصليبيون ، وحتى تحتاج إلى جنود الشام لتدافع عنها ..

لقد كانت ميزانية الدولة فى يد الخليفة يتصرف فيها حسب هواه ، ومن ورائه الوزير الذى كان يلقب بالملك ، وله حق التصرف أيضا دون الرجوع إلى الخليفة فى كثير من الأمور ، ومن هنا ضاعت الدولة بين تعدد الرئاسات ، ودون النظر فيما يهم الرعية ويصلح شأنها ..

صدى الأحداث فى الشام

قال بعض الرواة إن تولية أسد الدين ومن بعده صلاح الدين الوزارة فى مصر لم تجد الصدى الطيب فى قلب نور الدين ..

لقد خشى من استبدادهما بالأمر فى مصر دونه ، وهو ما أرسل حملته إليها إلا لأن يكون الأمر له ، ولتكون مصر تحت إمرته فيكون الحكم فيها باسم السلطان نور الدين .

يقول بعض الرواة : حدثنى جماعة من أصحاب نور الدين أنه لما اتصل به نبأ

---

(١) كتاب الروضتين ص ٤٣٩ .

وفاة أسد الدين ، وتولى صلاح الدين الوزارة بعده ، وما انعقد له من المحبة فى قلوب الناس أعظم ذلك وأكبره ، وقال : كيف أقدم صلاح الدين على مثل ذلك دون أمرى .. وكتب فى ذلك عدة كتب .

قال : ولم يلتفت الملك الناصر إلى قوله إلا أنه لم يخرج عن طاعته ، ولم يفارق رأيه ومشورته .

وعلق بعضهم على ذلك بأن هذا مما تقتضيه الطبيعة البشرية ، وقد أجرى الله تعالى العادة بذلك إلا من عصم الله ..

ولكن الحقيقة أن نور الدين لم ينكر على صلاح الدين إلا إفراطه فى تفرقه الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته .. وقد كان نور الدين حريصا على هذه الأموال للاستفادة منها فى طرد العدو الغاصب والقضاء على الصليبيين فى بلاد الإسلام ، وقد أثر عنه أنه قال : بأموال الشام ينبغى لى أن أفتح مصر وبأموال مصر ينبغى أن أطرد الفرنج من الشام (١) ..

فإذا كان نور الدين قد ساءه ما يبذره صلاح الدين فهو من قبيل الحرص على تلك الأموال التى لم يحسن خلفاء البلاد استغلالها فى مصلحة الإسلام والمسلمين ..

وسيأتى أن نور الدين أرسل فيما بعد من يطلب من صلاح الدين حساب مصر وما آل إليه ..

ولئن كان نور الدين قد استاء من تولى صلاح الدين الوزارة فلخوفه من أن ينجرف فى تيار الشيعة ، وقد كان نور الدين سنيا يحارب الأفكار الشيعية بكل ما أوتى من قوة ، وقد أذل الشيعة فى حلب وترصد لهم وأبطل شعارهم حين حاولوا أن يظهروا هذا الشعار إلا أن نور الدين قام ببعض تصرفات تظهر ضيقه من صلاح الدين وعمه، فإنه قد انتزع حمص والرحبة من أولاد أسد الدين ، وقد كان نورالدين قد أقطع ذلك لأسد الدين قبل توجيهه إلى مصر ، ويؤثر عنه أنه قال فى أثناء مرضه : ما أخطأت

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ٢٥ .

إلا فى إنفاذى أسد الدين إلى مصر بعد علمى برغبته فيها ، وما يحزننى شئ كعلمى بما ينال أهلى من يوسف بن أيوب ، ثم التفت إلى أصحابه وقال : إذا مت فصيروا بابنى إسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها (١) ..

لقد تخوف نور الدين على سلطانه ، والملك عقيم كما يقول الحكماء ومعنى ذلك أنه يقطع العلائق بين الإخوة ويفرق بين الأصدقاء إذا ما توهم صاحب الأمر أن أخاه أو صديقه يطمع فيما تحت يده .. وأحداث التاريخ شاهدة بصدق ذلك ، وأذن الحاكم مرهفة السمع جدا لما يقال لها بشأن الأطماع فى الحكم ، مهما أكدت الوقائع كذبها ..

ونورالدين حاكم مصلح من غير شك وغيور على مصلحة الإسلام والمسلمين ، وقد وقف جهوده على غاية كريمة هى إخراج الصليبيين من بلاد الشام . ولكن ذلك لا يمنع أن يكون حريصا على سلطانه ، غيورا أيضا على دولته التى تحكم باسمه ..

صلاح الدين والعاضد

استقرت قدم صلاح الدين فى الوزارة ، وكأن هذا المنصب خلقه خلقا جديدا . إن المسئولية تبدل أطوار النفوس .

كتب المرحوم العقاد فى كتابه عبقرية عمر يقول : كان النبى ﷺ يعلم أن احتمال التبعة أو المسئولية خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات ، فيجنح اللين إلى الشدة ويجنح الشديد إلى اللين ، لأننا إذا قلنا أن رئيسا أصبح يشعر بالمسئولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه ، ولا يقدم باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول (٢) .

وهذا هو ما حدث بالنسبة لصلاح الدين ، كان قبل الوزارة يعيش حياته كما يعيشها أبناء المترفين ، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه كانت له نزوات ..

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٤٤١ .

(٢) عبقرية عمر للعقاد ص ١٢ .



فما أن تقلد هذا المنصب حتى تغير اتجاهه جملة وتفصيلا ، وشعر أنه ألقى عليه عبء له تقاليده وآدابه .. لقد أصبح مسئولا عن العدل وتطبيقه ،والشريعة وآدابها ، والدين وأحكامه . وأصبح تحت إمرته العلماء والقضاة والأمراء والساسة وكبار الموظفين ، ولا صلاح لهؤلاء جميعا إلا بصلاحه هو . لأن الناس على دين ملوكهم ، وإذا صلح الراعى صلحت الرعية ..

على أن هذا الشعور لا يراود إلا الموفق سعيد الحظ الذى يختاره الله للإصلاح والإنقاذ ..

فحين استقرت قدم صلاح الدين فى الوزارة قام فى الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة ، وأخذ ينظر فى أمور الدولة نظرة المدقق الذى يريد رأب الصدع وفتق الرتق وإصلاح الفساد ..

وبدأ بإصلاح نفسه ، فأقلع عن شرب الخمر نهائيا وكان بها مغرما ، وعدل عن اللهو ، وترك القنص والصيد ، وأحاط نفسه بنخبة من الصالحين والعلماء الذين يعينونه على تسديد الأمور وحسن التدبير فى مصالح المسلمين .

ووسع الناس بعدله وكرمه ، فأصبح عطاؤه غامرا الفقراء والمعوزين ، بعد أن كان العطاء يمنح الأمراء والمتخمين ..

قال أبو شامة فى تقريره عنه : استدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل ، وروى بفسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل ، وتيقظ للتدبير وسها عن السهو ، وتقمص بلباس الدين ، وحفظ ناموس الشرع ، وشمر عن ساق الجد والاجتهاد ، وأفاض على الناس من كرمه وجوده ، فورد عليه القصاد والزوار ، وأم مجلسه الخطباء والشعراء من كل مكان يتحفونه بالجيد من القول والرائع من الشعر .

وأحبه العاضد حبا شديدا حتى لقد بلغ من محبته إياه أنه كان يدخل إليه القصر راكبا ، فإذا حضر عنده أقام معه مدة فى قصره قد تمتد إلى عدة أيام وحكمه العاضد فى المال والبلاد ، حتى حسده الأمراء الشاميون على ما وصل إليه من منزلة

سامية ، ومرتبة عالية ، وكل ذى نعمة محسود ، لا سيما إذا كانت هذه النعمة تتصل بالحكم والتحكم فى مصائر الأمور ..

على أن ذلك كله كان باسم نور الدين لم يقطع صلاح الدين الدعاء له ، وكان يرى أنه يحكم البلاد بصفته نائبا عن نور الدين ، وإن كان ذلك فى الواقع يغض من شأن الخليفة العاضد الذى أمضه ذلك وأرقه وأدى فى النهاية إلى ملازمته الفراش ..

الشعراء يمدحون نور الدين وصلاح الدين

ولم يفت الشعر أن يسجل هذه الأحداث العظيمة ، فقد كان تولى صلاح الدين الوزارة فى مصر امتدادا لسلطان نور الدين إلى هذه الديار ومن أجل هذا امتدح العماد الأصفهانى السلطان نور الدين بقصيدة رائعة يتحدث فيها عن ذلك قائلا :

بملك مصر أهنئ مالك الأمم ... فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما ... وهل بعدلك شئ غير ملتئم؟
لله درك نور الدين من ملك ... بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
آثار عزمك فى الإسلام واضحة ... وسره لك باد غير مكتتم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها ... للأمن والعز والإقبال كالحرم
أنبت عنك بها قرما ينوب بها ... فى البأس عن عنتر فى الجود عن هرم(١)
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... فى عقد عز من الإسلام منتظم(٢)

وامتدح العماد صلاح الدين وهنأه بقوله:

أهنى الملك الناصر ... بالملك وبالنصر
وما مهد من بنيان ... دين الحق فى مصر
وما أسداه من بر ... بلا عد ولا حصر
وما أحياه من عدل ... وما خفف من إصر

---

(١) القرم : السيد ــ وعنتر بن شداد ، وهرم هو هرم بن سنان المشهور بالكرم.

(٢) الروضتين ص ٤٤٤ .



وإعلاء سنا السنة — في بحبوحة القصر
قد استولى على مصر — بحق يوسف العصر
وأحيا سنة الإحسان — في البدو وفي الحضر[1]

إصلاحات ومؤامرات

أخذ صلاح الدين يوجه همه إلى إصلاح الحكم فى مصر . فكان من ذلك أن أخذ يمد عنايته إلى جيش مصر ، ليصلح من شأنه ليكون عضد جيش الشام ، ويصيران معا يدا واحدة فى مواجهة العدو .

وكان نور الدين قد أمده بقوة جديدة على رأسها أخو صلاح الدين توران شاه بن أيوب ، فأعانه ذلك على مهمة الإصلاح التى بدأها .

وكان صلاح الدين قد أخذ فى استمالة قلوب الناس إليه بالجود أحيانا وبالعدل أحيانا وبالسياسة أحيانا وفى الحقيقة لا يأسر الناس إلا الإحسان إليهم ، وقد صدق الشاعر الحكيم فى قوله :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم — فطالما استعبد الإنسان إحسان

وأغدق المال على جميع العساكر المصريين والشاميين فدانوا له بالطاعة وأحبوه حبا شديدا ..

ولكن ذلك العمل لم يرض طائفة من الناس الذين رأوا فى صلاح الدين خطرا عليهم وقضاء على نفوذهم ..

وفى الحقيقة أن صلاح الدين قد خيب ظنون العاضد ، لأنه كان يريده أداة فى يده فإذا به يتحول إلى قوة تتحكم فى الأمور ، وتستبد بالحكم ، لقد أصبح فى نظر الخليفة صورة من الوزراء السابقين مع اختلاف . هو كمن سبقه فى استلاب الأمر من الخليفة ، ولكنه غيرهم فى أن توجه صلاح الدين كان للخير ومصلحة البلاد لا لمنفعة شخصية كما كان الوزراء السابقون يفعلون ..

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

وعلى أيٍّ فقد ضاق بصلاح الدين أصحاب المطامع والأغراض ، وفى مقدمة هؤلاء مؤتمن الخلافة ، وهو خصى اسمه جوهر ، كان يتحكم فى القصر ، ويستبد بالأمر . تنبه له صلاح الدين ورصد أعماله وعرف أنه سبب من أسباب فساد الحكم وتزيين الشر للخليفة ، فقرر التخلص منه فى الوقت المناسب ..

إلا أن هذا الخصى كان قد دبَّر فى نفسه أمرا وهو التخلص من صلاح الدين وأعوانه فى مصر . ولكن كيف يتم ذلك ؟ إنه لا يتم فى نظرهذا الخصى إلا بواسطة الصليبيين .

ونفذ الخصى عزمه بأن أرسل للصليبيين كتابا مضمونه أن يحضر الصليبيون فى حملة إلى مصر فحينئذ لابد أن يخرج صلاح الدين للقائهم بجنده ، فيؤخذ من بقى من أصحابه بالقاهرة بجنود الخلافة ثم يتبع من ورائه ويواجهه الصليبيون من أمامه ، فتكون الدائرة عليه .. هكذا رسموا وبيتوا .

وأيا كانت الخطة التى تضمنها خطاب مؤتمن الخلافة للصليبيين فإن هذا الخطاب وقع تحت يد صلاح الدين قبل وصوله ، وقبض على حامله عند قرية قريبة من بلبيس اسمها « البئر البيضاء » .

وقصة القبض على هذا العميل طريفة تستحق التسجيل . وفحواها أن رجلا من التركمان من رجال صلاح الدين كان فى هذا المكان فرأى مع رجل فقير يلبس ثيابا ممزقة نعلين جديدين ليس بهما أثر للمشى وهو يحملهما فى يده ، فأنكرهما فأخذهما مع صاحبهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ، ففتق صلاح الدين النعلين فوجد فيهما المكاتبة المشار إليها ، فتحرى صلاح الدين عن صاحب الخط فعرف أنه كاتب يهودى ، فاستدعاه وحين أدرك هذا الرجل أنه مقتول نطق بالشهادتين وأعلن إسلامه . وطمأنه صلاح الدين ومازال به حتى اعترف تفصيليا بالمؤامرة المرسومة ، وأن المحرك لها مؤتمن الخلافة . فأمنه صلاح الدين ولكنه جعله تحت الملاحظة ..

وكتم صلاح الدين ما اطلع عليه . ولكن الخصى خامره شعور خفى باطلاع صلاح الدين على ما نوى ، فاحترس ، ولزم القصر خوفا وحذرا .

وأمد صلاح الدين فى حبل الإغضاء عنه ، وعدم التحدث فى شأنه وموضوعه . حتى غلب على ظن هذا الخصى أن صلاح الدين لا يعرف عن المؤامرة شيئا ، وأمن على نفسه . وتجرأ على الخروج من القصر .

وفى يوم خرج من القصر قاصدا قرية الخرقانية القريبة من قليوب ، وكان له بها منزل يقصده الفترة بعد الفترة لاقتناص لذاته ، وقضاء بعض أوقاته .

فأرسل صلاح الدين خلفه من هجم عليه وقطع رأسه ، واستراح من خبثه ومكره . ولكن السودان ثاروا ضد صلاح الدين ثورة عنيفة ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، وكانت لهم هيبة فى الدولة يعمل أى وزير حسابها ، وحسب العاضد أن ثورة السودان سوف تخلصه من صلاح الدين ولذلك حين جرد صلاح الدين جيشه للقضاء على هذه الثورة ، ونشبت معركة حامية حول القصر ، أمرالعاضد جنوده بالقصر أن يقذفوا جنود الشام بالحجارة والنشاب .

وعند ذلك هدد توران شاه ــ شقيق صلاح الدين ـ بإشعال النار فى قصر العاضد وإحراق منظرة الخلافة . فتراجع الخليفة فورا عن موْقفه وأصدر أمرا لتوران شاه يقول له فيه : دونكم هؤلاء الكلاب أخرجوهم من بلادكم .

وكان السودان يعتمدون على تأييد الخليفة لهم ، فلما رأوا تخاذله عنهم ، وإصداره أمرا بقتالهم وإخراجهم فتّ ذلك فى أعضادهم ، فجبنوا وتخاذلوا وأسرعوا يفرون ويهربون فى كل جانب .

وتبعتهم سيوف الشاميين تقتل فيهم وتحرق الدور التى يلجئون إليها حتى قطع دابرهم ولم يبق لهم شأن بعد ذلك .

كما أمر صلاح الدين بإشعال النار فى ثكنات حرس الخليفة وكانوا جماعة من الأرمن ، وبذلك أخرس أصواتهم ، وقطع عليهم التفكير فيما فكر فيه السودان قبلهم .

لقد قطع صلاح الدين بذلك أصابع الخيانة وقضى على رءوس الفتنة التى كان يمكن أن تقف فى طريقه حين يفكر فى جهاد الصليبيين واستئصال شأفتهم .

وبذلك استتب الأمر لصلاح الدين فى الوزارة بهذه الأعمال الكبيرة ، ولم يبق فى طريقه إلا طائفة الإقطاعيين الذين يستبدون بالأموال والأراضى دون بقية الرعية ، ويدفعهم الحرص على أموالهم وممتلكاتهم إلى ممالأة العدو ومساندة الفاسدين . فما كان من صلاح الدين إلا أن تخلص من هؤلاء أيضا ووزع ممتلكاتهم ، وأحل محلهم جماعة من المخلصين له حتى يضمن الأمن والاستقرار .

وكان فى كل ذلك لا يفعل شيئا إلا باسم نور الدين ، وهذا هو الذى أبقى الرباط بينه وبينه قائما . ولم يفعل شيئا من ذلك باسم الخلافة ، وهذا هو الذى أزعج منه الخليفة العاضد ، ولكن صلاح الدين كان مطمئنا إلى عمله ، لأنه يفكر فى مصلحة الإسلام وعلم أن الذى يعمل فى مصلحة الإسلام هو الملك العادل نور الدين ، أما العاضد فقد أفسده المحيطون به ولم تعد مصلحة الإسلام تهمه فى قليل ولا كثير .

وثبتت قواعد صلاح الدين فى مصر ، وقوى أمره ونفوذه ، ولم يعد التخلص من الخلافة فى مصر إلا مسألة وقت . وكان حين يكتب لنور الدين لا يكتب له باللقب الذى منحه العاضد بل كان يكتب له وهو فى منتهى التواضع والخضوع ، احتفاظا بالعلاقة الطيبة معه ، لأن المصلحة تقضى بذلك ، وهو لا يستطيع أن يحقق هدفه الغالى بدون مؤازرة نورالدين .

* * *

اعتداء صليبى على مصر

لعلنا نتذكر الرسالة التى أرسلها شاور إلى الصليبيين يستنجد بهم ضد أسد الدين شيركوه ، وقال لهم : فى هذه المرة يكون قدومكم إلى دمياط برا وبحرا .

وقتل شاور ولم ير استجابة الصليبيين لرسالته ..

لقد فكر الصليبيون جيدا ، وأدركوا أن الشام ومصر أصبحتا جبهة واحدة ومعنى ذلك القضاء عليهم وعلى وجودهم فى الشرق العربى ، وعلى ذلك فلابد من إفساد أمر هذه الوحدة ، وإيجاد جو من القلق والرعب يعيش فيه الناس حتى لا يهدأ بالهم ويتفرغوا للصليبيين ..

لقد أرادوا أن يطبقوا قاعدة : خذ العدو قبل أن يأخذك ، أو قاعدة المثل الدارج الذى يقول : « تغد بفلان قبل أن يتعشى بك » ، وهذا كله يترجم عن قلق الصليبيين وخوفهم من المستقبل .

لقد رأى الصليبيون أن هناك قواعد بحرية قوية فى يد المصريين ومن شأن هذه القواعد أن تهدد سلطان الصليبيين ، ومن أمثال هذه القواعد البحرية الإسكندرية ودمياط ، فلابد من زعزعة استقرار المصريين فى هذه القواعد حتى لا تكون سيادة بحرية إلا للصليبيين فقط ، وبذلك يضمنون سلامتهم وبقاءهم وسيادتهم فى البحر وأراد الصليبيون فى الشرق أن يجندوا الرأى الصليبى العام فى أوروبا فأرسل « أمورى » وفودا إلى مختلف أنحاء أوروبا تنهى إلى الحكام هناك مدى الخوف والرعب الذى يعيش فيه الصليبيون فى الشرق ، وأن المسلمين يبيتون النية لأخذ بيت المقدس وبقية الأماكن التى يسيطر عليها الصليبيون ، فلابد من إجهاض هذه النيات قبل أن تصبح حقيقة واقعة وعلى ذلك فمن الضرورى تجريد حملة قوية على دمياط لأخذها وامتلاكها . لقد ذهبت الوفود إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وصقلية ولم تأت سفارة هذه الوفود بنتيجة ، فكان لزاما على « أمورى » ملك بيت المقدس أن يستنجد ببيزنطة ، وسرعان مالبى امبراطور بيزنطة طلب أمورى وأعد أسطولا كبيرا ، غادر مياه الدردنيل فى يوليو سنة ١١٦٩م واتجه إلى قبرص حيث انضمت إلى هذا الأسطول

بعض القطع الأخرى ، ثم توجه هذا الأسطول إلى صور ثم عكا حيث اجتمع القادة الأوروبيون مع إخوانهم الصليبيين لوضع الخطة اللازمة لغزو مصر عن طريق مينائها القوى « دمياط » ثم السيطرة عليها سيطرة تامة ، يشير إلى ذلك ماتضمنه المرسوم الذى أصدره الملك « أمورى » والذى يتضمن ضرورة تخصيص جزء من إيرادالمدن المصرية الغنية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والإسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم لهؤلاء الذين اشتركوا فى الغزو [1] .

فهذا يدل على أن هذه الحملة جاءت وفى نيتها السيطرة الكاملة على مصر ، والبقاء فيها للأبد .

وجاء الأسطول الصليبى المجهز تجهيزا قويا فى البحر ، وصحبته عن طريق البر حملة جرارة بدأت من عسقلان ، وأخذت طريقها إلى الفرما ، ومنها إلى دمياط ..

وقد اصطحب الغزاة معهم كل ما يلزم من أدوات الحصار والقتال والهجوم والتدمير .. وعسكر الأسطول أمام دمياط ولكنه لم يستطع دخول الميناء لأن هناك سلاسل حديدية قوية كانت ممتدة بعرض الشاطئ فى الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء .. كان مجئ الأعداء إلى دمياط فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

مواجهة صلاح الدين للغزو

وكان خبر حملة الصليبيين قد نما إلى صلاح الدين ، ولكنه كان يظن أنها تستهدف بلبيس أو الإسكندرية أو القاهرة . تلك الأماكن التى سبق أن جاء إليها الصليبيون ولذلك فقد أسرع بتحصين تلك الأماكن وإقامة الاستحكامات اللازمة حولها ولكنه فوجئ بأن العدو خالف ظنه ، جاء إلى مكان غير متوقع وهو دمياط . وتحرج موقف صلاح الدين ، وهو فى وقت مازالت فيه المؤامرات الداخلية تحاك له، بعد إيقاعه بالسودان تلك الوقعة العنيفة التى تحدثنا عنها .

ولم يبق أمامه إلا الاستنجاد بنور الدين ، فهو الذى يستطيع أن يمده بالقوة والعتاد

---

(١) الناصر صلاح الدين ص ٨٦ ..

حتى يتمكن من صد هذا الهجوم الغادر ، وأرسل رسالة فورية إلى نور الدين يقول له : إن خرجت من مصر خلفني أهلها بسوء ، وإن قعدت عن دمياط أخذها الفرنج وجعلوها معقلا لهم يتقوون بها على أخذ مصر كلها [1] .

ومع ذلك فإن صلاح الدين لم يقعد حتى يأتيه مدد نورالدين ، ولم ييأس ولم يستسلم ، بل شد العزم ، وعقد الهمة على الجهاد ، وأخذ يعبئ جيشه لدرء هذا الخطر المفاجئ .

وأرسل خاله شهاب الدين وابن أخيه تقى الدين عمرعلى رأس فرقة قوية من الجيش استطاعت دخول دمياط ، وأخذت فى دفع الأعداء وصدهم .

وأخذ صلاح الدين يمدهما بالسلاح والذخيرة والمؤونة اللازمة مما أضعف موقف المهاجمين .

وتفتقت أذهان المصريين الدهاة عن حيلة أحدثت أثرها القوى فى أسطول الصليبيين ، فقد استغل أهل دمياط ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة ، فكانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى فتنزل به أعظم الضرر ، مما اضطر الأسطول إلى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة [2] فخفف ذلك من قوة الحصار ..

وازدادت قوات صلاح الدين فى دمياط ، وتأهبت لملاقاة قوات الصليبيين ، فى الوقت الذى اشتد الجوع بقوات الصليبيين بعد أن فقدت مؤونتها ، وكانوا يظنون أنهم سيتمكنون من احتلال دمياط بسرعة ومنها تكون ذخيرتهم ومؤونتهم .

واقترح القائد البيزنطى على أمورى أن يقوم الصليبيون بهجوم شامل على دمياط للتخلص من وطأة الجوع ، ولكن أمورى عارض هذا الاقتراح بشدة لأنه أحس بكثرة جنود صلاح الدين فى المدينة وقوة استعدادهم .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٠ .

(٢) الناصر صلاح الدين ص ٨٨ ..

وبذلك دب الخلاف فى صفوف الصليبيين ، وأحسوا بالضعف والتخاذل ، ففكروا فى فك الحصار والعودة من حيث أتوا وفى الوقت نفسه كان نور الدين قد أرسل إلى مصر أمدادا من الجيوش يتبع بعضها بعضا ، ولم يكتف بذلك ، فقد انتهز هذه الفرصة فأرسل إلى حصون الصليبيين فى الشام جيوشا أخذت فى مهاجمتها ودكها وأسر من فيها واغتنام أموالها ، وبذلك غنم وأسر وقتل أعدادا كبيرة من الصليبيين ..

وكان هذا سببا آخر من أسباب سرعة الصليبيين فى الجلاء عن دمياط . قال ابن الأثير فى تشبيه الصليبيين فى فشلهم هذا إنهم أصبحوا كالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين (١) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية على دمياط فشلا ذريعا ، وضاعف من شدة الخسائر التى حاقت بها أن الأسطول البيزنطى فى أثناء رجوعه لم يستطع بحارته السيطرة عليه بسبب ما أصابهم من جوع وإرهاق فغرق كثير من قطعه ، وظلت الأمواج تتقاذف جثث الجنود وتلقيها على الشاطئ لتكون عبرة لمن يعتبر ..

أثر الحملة فى تدعيم موقف صلاح الدين

وكان لهزيمة الصليبيين أثر كبير فى تدعيم موقف صلاح الدين وتثبيت أقدامه فى مصر .. وقد أمده العاضد تقديرا لجهوده بألف ألف دينار ، فأنفقها صلاح الدين على تقوية الجيش وكانت هذه لفتة ذكية منه ، ولمحة تدل على نبل غايته وشرف مقصوده .

وكان نور الدين قد أرسل والد صلاح الدين إليه مع إمدادات الجيش التى جاءت لصلاح الدين ، ليكون معينا لولده فى إدارة شئون الحكم وليحثه على سرعة قطع دابر الخلافة الفاطمية فى مصر ..

وقد أحسن العاضد استقبال والد صلاح الدين ، وخرج لتلقيه بنفسه إكراما لولده وتقديرا لجهوده ، ثم أقطعه الإسكندرية ودمياط له ولولده من بعده (٢) ..

(١) ابن الأثير ـ التاريخ الباهر ص ١٤٤ ..

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٠ ..

قال الدكتور قاسم عبده قاسم : لقد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين الأيوبى هو بطل هذه الحقبة الحرجة فى تاريخ المنطقة العربية آنذاك ، وكانت وزارة صلاح الدين فى خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه ، وكان فشل مشروع أمورى بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٦٦٥ هـ / ١١٦٩ م وحصارهم الفاشل لميناء دمياط على مدى خمسين يوما بمثابة الإعلان عن أن هذا القائد الشاب قد دعم حكمه ، وأطمأن إلى سلامة مركزه السياسى[١] .

ضرورة الارتباط بين مصر والشام

وقد ثبت يقينا الآن بعد هذه الحملة الصليبية أنه لابد من تقوية الصلة بين الشام ومصر ، بعد أن امتدت أطماع الصليبيين ووسعوا دائرة اعتداءاتهم وأطماعهم ، ولا سبيل إلى قمع هذه الاعتداءات والأطماع إلا بأن يكون المصريون والشاميون يدا واحدة . وأصبح الهدف الآن أمام نور الدين هو البحث عن وسيلة لتقوية الاتصال بين القاهرة ودمشق لتدعيم هذه الرابطة بين القطرين .

لقد نظر نور الدين فوجد الصليبيين يحكمون سيطرتهم على الأردن ووادى عربة بما فيه من حصون ، ويعنى ذلك تحكمهم فى صحراء النقب بين البحر الميت والبحر الأحمر ، وكانت أيلة تحت قبضتهم ، وبذلك أصبح الطريق البرى بين مصر والشام مقطوعا ، وقد مكن هذا الموقف الصليبيين من إغارتهم على القوافل المتنقلة بين الحجاز ومصر والشام .

وكان لابد من تأمين هذه القوافل بأن تصحبها قوات عسكرية نشيطة أو القيام بحركات عسكرية مضادة تشغل الصليبيين عن مهاجمة القوافل العربية العابرة ، وقد حدث أن لجأ نور الدين إلى الإغارة على حصن الكرك سنة ١١٧٠ م ليمكن قافلة يقودها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من العبور إلى مصر [٢] .

لقد أصبحت الوحدة بين مصر والشام هدفا حيويا لنور الدين ، ولكن لن يتم ذلك

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ١٤٢ ..

(٢) الناصر صلاح الدين ص ٩٠ .

إلا بإسقاط الخلافة الفاطمية التى تقف حجر عثرة فى هذا الطريق الذى يحقق انتصار المسلمين الخارق على الصليبيين ، ولذلك أخذ نور الدين يلح على صلاح الدين بضرورة الإسراع فى إسقاط هذه الخلافة لتحقيق هذا الحلم .. ولكن لكل شئ أوان، ولكل أمر عدة والحاضر يرى مالا يرى الغائب وإن غداً لناظره قريب ..

بين الناصر والعاضد

كان لانتصار الناصر صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة دمياط هذه أثر طيب، وقد تلقى العاضد هذا الخبر باستحسان كبير وفرح شديد ..

وفى يوم جاءه صلاح الدين وجلس إليه وأخذا يتذاكران فى أخبار هذه الموقعة ، فأخذ صلاح الدين يثنى على نور الدين ثناء شديدا ، ويذكر من أخباره ووقائعه مع الصليبيين ما يدل على صبره وشجاعته وجهاده ورغبته فى نصرة الإسلام ..

فأراد الخليفة العاضد أن يعرف المزيد عن أخبار هذا السلطان فقال له صلاح الدين: ماذا أقول لك يا أمير المؤمنين أكثر من أن هذا الرجل لا يشغله أى شئ عن تحقيق أمله فى إخراج الصليبيين من بلاد المسلمين ، ورفع راية الإسلام فوق كل حصن يحتله هؤلاء الملاعين ..

إنه يا أمير المؤمنين لا لذة له فى الحياة إلا الحث على الجهاد وتدريب الجنود على القتال والاستعداد للحرب ، وتعريفهم معنى البطولة والاستشهاد فى سبيل الله .

فسأله العاضد : وكيف يقضى نور الدين وقت فراغه ؟

فقال صلاح الدين : إن نور الدين لا فراغ لديه على الإطلاق فهو إما فى ميدان الحرب يجاهد الصليبيين ، وإما فى ساحات التدريب بين جنوده يشهد تدريباتهم ويراقب مناوراتهم ، ويشجع الأبطال منهم على مزيد من التقدم والبطولة ، فإذا ما وجد وقت فراغ عنده بعد ذلك فإنه يقضيه فى حلقات العلم وسماع الأحاديث الشريفة .

فقال العاضد : لله دره ما أعظمه من بطل ، وما أفضله من قائد .

فقال صلاح الدين : وإنه ليظل فى أوقات اشتداد البلاء على المسلمين مؤرقا لا يقر



له جنب ، ولا يغمض له جفن حتى يطمئن على سلامة الناس وارتفاع البلاء .

أرأيت يا أمير المؤمنين حين جاء الصليبيون فى المرة السابقة وقد وصله خطابك مستنجدا به ؟ إنه كان فى منتهى الانشغال بسبب ذلك ، ولقد أرسلنى وعمى إليك على رأس حملة قوية وخرج بنفسه فى وداعنا ، وهو يحثنا على الإسراع ، ويشجعنا على لقاء العدو ، وألا تأخذنا به رحمة ، لقد كان همه الوحيد إنقاذ مصر من هؤلاء المعتدين، ولم يعد إلى دمشق ، بل ظل مقيما برأس الماء على الحدود ينتظر ورود المبشرات التى تبشره بانتصار المسلمين على الفرنجة أو برحيل الفرنجة عن البلاد ، فلما وصل إليه ذلك فرح وحمد الله وسجد لله شاكرا وأمر بضرب البشائر فى سائر بلاده وبث رسله بذلك إلى الآفاق .

واستطاب العاضد الحديث عن نور الدين ، وكأنما أراد صلاح الدين أن يقدم صورة واضحة عن هذا السلطان للعاضد لعله يزيل بذلك ما كان قد علق فى ذهنه من أقوال الوشاة والمغرضين الذين لا هم لهم إلا إفساد صور النابهين والمخلصين . فقال صلاح الدين : ثم إنه غيور على المسلمين ، برا بالفقراء ، عطوفا عليهم كأنه لهم أب رحيم ، وأقص عليك قصة تشير إلى ذك .

فقال العاضد : ما هذه القصة ؟

قال صلاح الدين : إن خزائن من المال كانت مرصودة للإنفاق على مقومات الجهاد وما يتعلق به . وضاقت يده ذات مرة وعجز بيت المال عن أداء بعض الأعطيات للجند .

فقال له بعض مستشاريه : إن فى بلادك إدارات كثيرة وصلات عظيمة وأوقافا وقفها أهل الخير على الفقهاء والفقراء والقراء والصوفية فلو استعنت الآن بها كان أفضل .

فما تظن أن يكون رد نور الدين على هؤلاء ؟

قال العاضد : بماذا رد ؟

قال صلاح الدين : لقد غضب نور الدين غضبا شديدا وقال : والله إنى لأرجو

النصر بهؤلاء القوم ، لأن النبى ﷺ قال : ﴿ **إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** ﴾ فكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى بدعائهم وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطئ ، وأصرف هذه الصلات إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطئ وقد تصيب ؟ ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه لهم ، فكيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

فقال العاضد : لله ما أعظمه وما أحكمه ! هكذا يكون القائد الحكيم ..

قال صلاح الدين مواصلا حديثه عن نور الدين : والله يا أمير المؤمنين ما علمنا شيئا فى هذه الدنيا يمكن أن يشغل نور الدين عن الجهاد فى سبيل الله ، ولو لحظة ، وإن أحدنا إذا أراد أن يحدثه ويضمن إقباله عليه وانقياده إليه قرأ عليه حديثا شريفا فى موضوع الجهاد ..

ولقد ذكر بعض من جاءوا قريبا من الشام أن نور الدين حين نزل الفرنج بدمياط ، هاله ذلك ، وكان فى مجلس علم وقرئ عليه جزء من حديث رسول الله ﷺ ، وكان هذا الحديث مسلسلا بالتبسم فطلب منه بعض الحاضرين أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من علماء الحديث ، فغضب نور الدين وقال : إنى لأستحيى من الله تعالى أن يرانى مبتسما والمسلمون بدمياط محاصرون بالفرنج ..

إنه كان يؤمن بالأثر الذى يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وقد ملأت هذه السيرة نفس العاضد إعجابا بنور الدين ، وقال لصلاح الدين : لقد أكرمه الله أن وجد من حوله من يعينه على مهمته ، وهيأ له بطانة كريمه تحثه على الخير وتشجعه عليه ، وهذا من إكرام الله له . وإننى لأنظر إلى من حولى هنا فلا أجد إلا وزراء لا هم لهم إلا جمع المال والتنازع فيما بينهم على الملك والسلطان [1] ..

فقال له صلاح الدين : يحفظ الله مولاى ويقيه سوء العاقبة .

وكانت سيرة نور الدين جديرة بأن تروى فعلا لتكون نموذجا لكل من يتصدى لقيادة المسلمين وتولى أمورهم ..

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ٤٠ ، ٤٢ ..

وإن مثل هذا القائد يسدده الله ويرشده ، وينير بصيرته إكراما له حتى إنه ليرى بعين البصيرة ما لا يراه غيره . كما حدث لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين كان مشغولا بأمر الجهاد ، رأى وهو واقف يخطب على منبر المسجد النبوى فى المدينة جيشا من جيوش المسلمين فى الشام يكاد يحصر ويطوقه العدو من خلفه ، فهتف به فى أثناء خطابه قائلا يا سارية الجبل .

ومن العجيب أن سارية سمعه ، وتنبه فأخذ حذره ، ونجا وانتصر ، وأخبر بالواقعة حين رجع سالما غانما إلى المدينة .

ومما يدل على اهتمام نور الدين بأمر المسلمين ، ومتابعته لأخبار الحملة التى أرسلها إلى مصر لصد الصليبيين عن دمياط ، أنه كان يظل متهجدا طول الليل يدعو الله بالنصر للمسلمين والهزيمة لأعدائهم ..

ورأى إمامه الذى كان يصلى به النبى ﷺ فى المنام يقول له : بشر نور الدين بأن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة وقد سبقت الإشارة إلى هذه الرؤيا ..

رؤيا عجيبة لنور الدين

وقد رأى نور الدين فى أثناء انشغاله بحرب الصليبيين رؤيا أفزعته وهالته .

رأى فى نومه أن النبى ﷺ جاءه وأشار إلى رجلين أشقرين وهو يقول : أنجدنى من هذين ..

رأى نور الدين هذه الرؤيا ثلاث مرات فى ليلة واحدة ..

فأرسل فى طلب الوزير جمال الدين الموصلى وكان معروفا بالتقوى والصلاح وقص عليه رؤياه .

فقال له الوزير : وما قعودك ؟ هذا أمر حدث فى مدينة الرسول ﷺ ليس له غيرك، فاخرج الآن إلى مدينة الرسول ﷺ واكتم أمرك .

وما طلعت الشمس حتى كان نور الدين فى طريقه إلى المدينة ، حتى بلغها بعد مسيرة ستة عشر يومًا ..

وقصد المسجد وصلى فى الروضة الشريفة . ثم جلس لا يدرى ماذا يفعل واستدعى أهل المدينة فوزع عليهم الهدايا والهبات التى كان قد حملها معه ثم قال : هل بقى أحد لم يأخذ حظه ؟

قالوا : لم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس صالحان غنيان ، لا يأخذان من أحد شيئا، بل إنهما يكثران الصدقة على أهل الحاجة ..

قال : على بهما .

وجئ بالرجلين ، فرأى فيهما شبها من ذينك الرجلين اللذين رآهما فى المنام ـ وأشار إليهما النبى ﷺ ـ ولكنهما كانا فى حديثهما مثالا للتقوى والصلاح .

وإن أهل المدينة ليشهدون لهما بكثرة الصيام والصلاة والصدقة ، وإنهما ليلازمان الصلاة فى الروضة ، ويكثران من زيارة الحجرة النبوية والبقيع وبقية المشاهد الأخرى فى المدينة ، ولا يردان لسائل حاجة .

ولكن ذلك لم يبدد ما وقر فى نفس نور الدين من وساوس وشكوك حولهما فقصد إلى دارهما وكانت قريبة من الحرم ، فرأى فيها مالا كثيرا ، وأخذ يجوس خلال الدار يتفقد حجراتها وأفنيتها ، ثم رفع حصيرا فى إحدى الغرف فإذا تحته سرداب صوب الحجرة النبوية .

واضطربت المدينة المنورة حين بلغها النبأ ، وأصبح الناس بين مصدق ومكذب ، ولكن الرجلين ـ وقد برح بهما الضرب ـ اعترفا لنور الدين بالسر الخطير .

قالا: لقد أوفدهما الصليبيون فى زى حجاج من المغرب ، وأمدوهما بأموال طائلة للاحتيال على سرقة جثمان الرسول ﷺ .

فأمر نور الدين بضرب أعناقهما .

ثم عمد إلى الحجرة النبوية فحفر حولها خندقا عظيما حتى بلغ منابع الماء ، ثم صب الرصاص حتى ملأ الخندق ، وصار منه سورمتين لا تنفد منه يد آثمة ولا ينال منه يد الزمان [1] .

---

(١) فى ظلال الحرمين لكامل حته ص ١٤٧ دار المعرف . وقد نقل صاحب هذه القصة عن بعض =

إن اختصاص نور الدين من بين حكام العالم الإسلامى بهذا العمل دليل على إخلاصه الشديد ، واهتمامه بأمر المسلمين وحرصه على المحافظة على الدين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،والله ذو فضل على المؤمنين .

وانتهت الخلافة الفاطمية

كان نور الدين حريصا حرصا زائدا على إنهاء الخلافة الفاطمية ، وقد حث صلاح الدين على سرعة تنفيذ هذا الأمر عن طريق قطع الدعاء فى الخطبة يوم الجمعة للخليفة الفاطمى والاستبدال به الدعاء للخليفة العباسى فى بغداد .

ورأى أن هذا الأمر لا ينبغى أن يكون فى كتاب يرسله نورالدين إلى صلاح الدين بل يجب أن يحمله رسول من قبله إلى صلاح الدين . وإن أحق وأفضل من يحمل هذه الرسالة هو نجم الدين أيوب نفسه والد صلاح الدين ..

هو الرجل الذى تؤهله خبرته وحنكته السياسية ، وتاريخه النضالى وغيرته الشديدة على مصلحة الإسلام للقيام بهذه المهمة ..

وعلى ذلك فقد أرسله نور الدين مفوضا عنه لولده صلاح الدين لينهى إليه هذا الأمر ويحمله على ضرورة تنفيذه ، وقد انتهز نور الدين فرصة إرسال الإمدادات لصلاح الدين فى أثناء حصار الصليبيين لدمياط فأرسل نجم الدين على رأس قوة ، ليبدو أن إرساله أمر طبيعى لا هدف من ورائه إلا الإمداد بالجنود ، وإن كان بعض الرواة يذكر أن صلاح الدين نفسه هو الذى طلب من نور الدين أن يمده بأبيه ليكمل له السرور فى مصر .

وجاء أيوب إلى مصر . وأحسن العاضد استقباله كما أسلفنا .

قال أبو شامة : خرج العاضد لتلقيه عند ظاهر باب الفتوح تحت شجرة « الإهليلج » وهى شجرة جميلة الشكل مورقة مظلة ذات ثمر منه ما هو أصفر أو أسود حين ينضج، وكانت هذه الشجرة تزرع بكثرة خارج باب الفتوح حيث كانت صحراء واسعة شرقى

= المراجع ، ولكننا نرجح أن تكون هذه القصة حدثت مع والد نور الدين وهو عماد الدين زنكى لأنه هو الذى كان جمال الدين وزيرا له ..



الخندق فى الرمل ، إليها كانت تنتهى عمارة خطة الحسينية من جهة باب الفتوح ، فعرف هذا المكان باسم هذه الشجرة .

ولم يكن من عادة الخليفة الخروج لاستقبال أحد خارج قصره . ولكن خروجه لاستقبال والد صلاح الدين يدل على المنزلة التى وصل إليها ، وأن إكرام الوالد من إكرام الولد . ولذلك كان هذا الاستقبال من أعجب ما شهده الناس فى هذه الأيام ، وخلع العاضد على نجم الدين أيوب ، ولقبه بالملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا .

وأعظم صلاح الدين لوالده من البر والتعظيم ما أحرز به الشكر والأجر ، وأراد أن يتنازل لأبيه عن الوزارة ولكن نجم الدين أبى وقال له : يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له ، فما ينبغى أن نغير موقع السعادة ، فحكمه صلاح الدين فى الخزائن كلها [1] . وكان ـ رحمه الله ـ كريما جوادا ..

وأقطع الخليفة نجم الدين الإسكندرية ، ودمياط والبحيرة ، كما أقطع ابنه شمس الدولة ، توران شاه ، قوص وأسوان وعيذاب ..

لقد غمر العاضد هذه الأسرة بالفضل رجاء أن يكون أفرادها أعوانا له على الزمان ، ومخلصين له فى خلافته ، وما يدرى ما أعده القدر علي يد هذه الأسرة بالنسبة له .

وخلا نجم الدين بابنه صلاح الدين وأسر إليه ما يريده نورالدين ، وأبلغه أن الخليفة المستنجد بالله العباسى أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه فى تأخير إقامة الدعوة له بمصر . وما جئت أنا إليك إلا تعجيلا لتنفيذ هذا الأمر ، وها هى ذى رسالة نور الدين إليك . وقد جاء فى نهاية هذه الرسالة وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة ، قبل هجوم الموت ،وحضور الفوت ، لا سيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته .

وأجاب صلاح الدين بأنه غير مقصر فى هذا الأمر ، وأنه هو شغله الشاغل ، ولكن

---

(١) كتاب الروضتين ص ٤٦٥ نقلا عن ابن شداد ..

لكل أمر عدته ، وهذا الأمر لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة ، بل يحتاج إلى تدبير وتقدير حتى يتم على الوجه الأكمل . وما علينا إلا أن نتحين الفرصة المناسبة لذلك .

وأرسل صلاح الدين رسالة للملك العادل نورالدين يعتذر إليه بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك ، لميلهم إلى العلويين، وكانت وجهة نظر صلاح الدين سليمة ، فهو لم يضع قدمه فى مصر إلا منذ شهور قلائل وقد حيكت ضده مؤامرات ومؤامرات أما الفاطميون فلهم فى مصر قرنان وأكثر من الزمان ، ومن المستحيل إزالة هذا الأمر من أذهان الناس دون تهيئة له ..

وظل صلاح الدين يعلل نور الدين بالمعاذير ، حتى جاءت سنة سبع وستين وخمسمائة واتفق أن الخليفة العاضد مرض ، ولزم الفراش ، وانتهز صلاح الدين هذه الفرصة ، وعزم على قطع الخطبة له . .

وجمع صلاح الدين مستشاريه ، واستشارهم فى هذا الأمر ، فمنهم من أبدى رأيه صريحا فى قطع الدعاء عن الخليفة الفاطمى وإثباته للخليفة العباسى . ومنهم من عارض ولكنه خشى من غضب نور الدين فوافق على مضض .

وصادف أن جاء إلى مصر رجل من علماء العجم يعرف بالأمير العالم ، واجتمع معهم ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال : أنا أبتدئ بالخطبة ولا تتعرضوا أنتم لذلك، وكان هذا الرجل هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبى المضاء البعلبكى ولكن القاضى الفاضل كان له رأى آخر ..

قال القاضى الفاضل : الرأى عندى أن نبدأ أولا بقطع الزيادة التى تضاف إلى الأذان عند الشيعة ، وهى عبارة « حى على خير العمل » ثم نرقب رد الفعل ، فإن تكلم الناس عرفنا أن الوقت لم يحن بعد ، وإن سكتوا ، انتقلنا إلى خطوة أخرى .

واتفقوا على هذا الرأى ، وأمروا المؤذن فى المسجد الجامع أن لا يضيف إلى الأذان هذه العبارة ، واستمع الناس إلى الأذان لأول مرة منذ قرنين فلم يجدوا عبارة « حى على خير العمل » بين ألفاظه ، ولم يستغربوا ذلك ، كأنه لم يحدث شئ جديد .

واستمر المؤذن فى أذانه بهذه الصورة لمدة يومين فكانت الحال على ما هى عليه، فكان ذلك إيذانا بالخطوة الأخرى المرتقبة ...

واتفق الرأى على ألا يصلى صلاح الدين الجمعة فى المسجد الجامع ، بل يصلى فى مسجد آخر ، أما أبوه نجم الدين ومعظم الأمراء فليصلوا فى المسجد الجامع ، ويصعد الخطيب المنبر ، ويتحدث فى خطبته الأولى عن معان عامة فى الدين ، وفى الخطبة الثانية يقطع الدعاء عن العاضد ، ولا يذكر اسمه فى الخطبة إطلاقا وليرقبوا أثر ذلك فى النفوس . وتطوع لإلقاء هذا الخطاب رجل عالم من الموصل ، يطلق عليه الأمير العالم وقد ذكرنا اسمه قبل ذلك . وكان الغرض من ذلك أنه إذا ما حدث كلام أو اعتراض حول هذا الأمر اعتذر عنه أولا بتغيب صلاح الدين ، وثانيا بأن الخطيب غريب لا علم له بتقاليد الخطبة فى هذه الديار .

واعتلى الخطيب المنبر ، ووعظ وذكر ، فلما جاءت الخطبة الثانية ، دعا للمسلمين عامة ولم يذكر اسم العاضد على الإطلاق ولم يدع له بل دعا لصلاح الدين فقط وللأئمة المهديين عموما وصلى الناس الجمعة خلف الإمام وانصرفوا إلى بيوتهم دون أن يتحدث أحد منهم بما سمع ورأى .

فلما كانت الجمعة التالية ، صعد الخطيب المنبر وحين جاءت الخطبة الثانية قطع الدعاء عن العاضد ودعا للخليفة العباسى صراحة وبذلك انقطعت الخلافة الفاطمية رسميا فى مصر ، وأصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية فى بغداد ـ كما كانت قبل قرنين من الزمان ـ لقد تم هذا الانقلاب سلميا دون أن تراق فيه نقطة دم واحدة ، وهذا من أعاجيب الانقلابات .

أثر ذلك عند العاضد

كان العاضد كما قلنا مريضا ، لم يشهد ما حدث بنفسه ، ولكن الخبر بلغه وعلم أن اسمه انقطع من الخطبة ، فتحسر لذلك حسرة شديدة عجلت بوفاته .

وقيل إن سبب وفاته لم يكن التحسر والحزن ـ وهذا سبب كاف فعلا من أسباب الموت ، وكثيرا ما يموت الإنسان كمدا وحزنا ـ ولكن هناك سبب آخر هو الانتحار ..

فقد قال بعض الرواة : إنه امتص فص خاتمه وكان تحته السم فمات لساعته ،

ولئن كان ذلك قد حدث فعلا فهو سوء خاتمة والعياذ بالله .. وهو دليل على أن هذا الخليفة لم يكن على صلة وثيقة بالله ، ولم يكن فعلا من السلالة الطاهرة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

وقيل : إنه عثر من شدة الاضطراب حين بلغه الخبر فسقط سقطة أودت بحياته ولعل ذلك هو الأوفق والأصح .

وحين نما خبر موته إلى الناصر صلاح الدين تأثر وحزن ، وقال : لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة .

فقال القاضى الفاضل : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة ما مات وأتبع ذلك تاليا قوله تعالى ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير**﴾(١) .

كان بين قطع الخطبة عن العاضد وبين موته عشرة أيام ، حيث قطعت الخطبة فى أول المحرم وتوفى هو فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة وقد تأثر صلاح الدين لموته ، وجلس للعزاء ، وأغرب فى الحزن والبكاء ـ على ما يقول العماد الأصفهانى ـ وبلغ الغاية فى إجمال أمره والتوديع له إلى قبره .

ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه ، ووكل عليه بهاء الدين قراقوش وأمره بإحصاء ما فيه واستنابه عليه حتى أصبح لا يدخل شئ ولا يخرج من القصر إلا بعلمه وتحت سمعه وبصره .

ونقل أولاد الخليفة إلى دار مشهورة اسمها دار « برجوان » فى حارة تعرف بهذا الاسم متفرعة من شارع الجيش فى القاهرة قريب من باب الشعرية .

وسميت الدار والحارة بهذا الاسم نسبة إلى « برجوان » الذى كان وزيرا للحاكم بأمر الله الفاطمى وقد قتل سنة ٣٩٠ هـ وكان مشهورا بالبزخ والترف والغنى ، وهذه

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

مظاهر كانت واضحة فى أثناء العصر الفاطمى فى أوجه وعزه ، وبلغ من ترفه وعزه أنه وجد فى خزائنه عند مقتله ألف سروال دبيقى ، وعدد ضخم من الآلات الموسيقية المختلفة ، والطرف الثمينة النادرة ..

وكان عزلهم فى هذه الدار إجراء ضروريا حتى لا يفكر أحد من شيعتهم تنصيب واحد من أبناء الخليفة ولو كان طفلا مكان أبيه والنداء به خليفة ، وكانت هذه سنة معمولا بها .

ولكن صلاح الدين ـ رحمه الله ـ أجرى على أولاد العاضد وأهله الأرزاق الهنية والعيشة الرضية ، عوضا عما فاتهم من الخلافة [1] .

وكان الخليفة العباسى الذى وصلت الخطبة باسمه هو اللخيفة المستضئ بالله بويع له بالخلافة يوم مات أبيه فى تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة وفى تولية المستضئ قال الشاعر العماد الأصفهانى :

قد أضاء الزمان بالمستضئ	وارث البرد وابن عم النبى
جاء بالحق والشريعة والعدل	فيا مرحبا بهذا المجئ
فهنيئا لأهل بغداد فازوا	بعد بؤس بكل عيش هنى
ومضى إن كان فى الزمن المظلم	بالعود فى الزمان المضى [2]

دلالة الأسماء

وللأسماء دلالة على الأحداث فى بعض الأحيان ، وكان النبى ﷺ يتفاءل بالطيب منها وكان يغير بعض أسماء أصحابه إلى أسماء أخرى ذات دلالة تبشيرية .

روى نافع عن ابن عمر أن كثير بن الصلت كان اسمه قليلا فسماه النبى ﷺ كثيرا ، وأن مطيع بن الأسود كان اسمه العاصى فسماه مطيعا ، وأن أم عاصم زوج عمر كان اسمها عاصية فسماها جميلة ، وكان يتفاءل بهذا الاسم .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢ .



وروى يعيش الغفارى أن النبى ﷺ أتى بناقة فقال : **من يحلبها** ؟

فقام رجل : فقال : أنا . فقال ﷺ **ما اسمك** ؟ قال : مرة قال : **اقعد** .

ثم قام آخر ، فقال له : **ما اسمك** ؟ قال جمرة . قال : **اقعد** .

قال يعيش : ثم قمت أنا فقال : **ما اسمك** ؟ قلت : يعيش . قال : **احلبها** .

ومن تفاؤله ﷺ بالأسماء مايرويه إياس بن مالك بن أوس الأسلمى عن أبيه قال : لما هاجر النبى ﷺ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه مروا بالجحفة ، فقال النبى ﷺ : لمن هذه الإبل ؟ قال : لرجل من أسلم . فالتفت النبى ﷺ لأبى بكر وقال : سلمت إن شاء الله عز وجل ، فأتاه أبى فحمله على جمل .

وروى ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب فى ترجمة بريدة الأسلمى : كان النبى ﷺ لا يتطير ولكن يتفائل ، فركب بريدة فى سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سهم ، فتلقى النبى ﷺ فقال : **من أنت** ؟ قال : أنا بريدة . فالتفت النبى ﷺ إلى أبى بكر فقال : **يا أبا بكر برد أمرنا وصلح** . ثم قال له : **ممن أنت** ؟ فقلت : من بنى سهم . قال : **خرج سهمك** (١) .

إن هذا يعنى أن هناك دلالة خفية بين الاسم والمسمى . قال ابن كثير : والعاضد فى اللغة القاطع ، ومنه الحديث الشريف ﴿ **لا يعضد شجرها** ﴾ أى لا يقطع شجرها . وكان هذا الاسم للخليفة الفاطمى فى مصر إشارة لقطع دولتهم وانتهاء أمرها (٢) فصادف الاسم مسماه .

كان مولد العاضد فى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، وتوفى فى سنة سبع وستين وخمسمائة ، فكأنه عاش إحدى وعشرين سنة .

---

(١) هذه النصوص من كتاب : النبى ﷺ فى مرآة أصحابه ـ عبد الحفيظ فرغلى ص ١٧١ ، ص ١٧٢ . المكتب الثقافى القاهرة .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

صلاح الدين يرسل لنور الدين

وأرسل صلاح الدين إلى نورالدين يخبره بذلك ، وأنه قطع الخطبة عن العاضد ووصلها بابن عباس ، كما أرسل خطابا إلى سدة الخلافة ببغداد يبشر الخليفة المستضئ بذلك ، وقد كتب هذا الخطاب بقلم الكاتب البليغ القاضى الفاضل وهذا بعض ما جاء فيه نذكره استشهادا لبلاغة القاضى الفاضل وبيان أسلوبه فى الكتابة :

« .... أضحى الدين واحدا بعد ما كان أديانا ، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صما وعميانا ، والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة فى شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا ، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ، ونثرت أقلامهم الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذوا منهم كل مخنق ، وقطع دابرهم ووعظ آيبهم غابرهم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم ، ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح ، ويقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة .. وترفع دونه الحجب المعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة .. » (١)

إرهاصات سبقت عودة الخلافة العباسية

وكان كل شئ فى مصر مؤذنا بسقوط الخلافة الفاطمية وانتهائها ، فقد أصبح الخليفة عاجزا عن إدارة الأمور ، وقد استبد الوزراء وأصحاب المطامع ، ولم يعد فى مقدوره فعل شئ ، حتى لقد رأينا كيف استعان شاور بالفرنجة لإقراره فى الوزارة .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٤٩٦ .



وكيف استباح البلاد لنفسه وجعلها غنيمة له يعطى منها من يشاء ويحرم من يشاء ، حتى لقد جعلها كلأً مباحا للفرنجة بما خصصه لهم من مال هو حق الشعب وسبب حياته ، ومال الله الذى استخلفه فيه فأساء فيه السيرة وحرم أهله منه .

وهذا من أشد أنواع الظلم ، والظلم مؤذن بخراب العمران .

وإذا اشتد الظلم ، وكثر الفساد ، وعم الاضطراب تطلع الناس إلى المنقذ الذى يخلصهم مما هم فيه من شقاء وظلم . وإذا عز وجود هذا المنقذ فى واقعهم راودهم فى أحلامهم من ينقذهم ، وتمثل لهم فى خيالهم من يأخذ بيدهم ، وقد أصبح حال الناس كذلك فى آخرالدولة الفاطمية .

ومن الرؤى التى عبرت فى هذا الأمر ما حكاه ابن المارستانى فى سيرة الوزير ابن هيبرة وكان وزيرا للمقتفى ثم للمستنجد الخليفة العباسى حتى سنة ستين وخمسمائة . قال : من عجيب ما جرى فى أمرالمصريين أن الفقيه الزاهد أبا محمد عفيف بن المبارك الأحمدى ـ رأى فى منامه سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مسامِتٌ للقبلة ، وله لحية سوداء فيها طول ، ويهب أدنى نسيم فيحركها ، ويظهر أثر حركتها وظلها فى الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك ، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها ، وسأل من حضر عن هذا الذى رآه فقال له : قد استبدل الناس بإمامهم فاستقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماما برا تقيا ، واستيقظ الفقيه من نومه .

وبلغ ابن هبيرة خبر هذه الرؤيا ، فقال : إن تعبيرها يشير إلى أن الإمام الذى بمصر يستبدل به ، وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللحية السوداء .

وأصر الوزير على هذا التأويل ، وقوى عنده حتى أصبح كأنه حقيقة واقعة وحتى كتب لنور الدين بضرورة العمل على قطع خطبة العاضد والدعاء للخليفة العباسى .

أثر ذلك فى مصر

أشاع صلاح الدين بعد موت العاضد الدعاء للعباسيين ، وأعلن ذلك رسميا فى الدولة، ولم يظهر رد فعل من عامة الشعب كأن الناس من طول ما مر بهم من أحزان وآلام ومظالم لم يأبهوا بما حدث .

ولكن المستفيدين من وراء الحكم الفاطمى هم الذين تأثروا بذلك .

وتنفس أهل السنة الصعداء ، وشعروا بكثير من الارتياح وأقبلوا على الإسماعيليين يتبعونهم ويقبضون عليهم .

ويعنى بالإسماعيليين أولئك القوم الذين ينسبون إلى الطائفة الإسماعيلية الباطنية ، وقد وجدت فى ظل الفاطميين الأمن والسلام .

الطائفة الإسماعيلية

ولأن الإسماعيلية كانت ذات تأثير سياسى ، ولها أهداف تعمل على تحقيقها ، وربما ارتكبت الجرائم والمؤامرات فى سبيل ذلك ، وقد أفرخت فى ظل الدولة الفاطمية كان لزاما أن نخصها ببعض الحديث ، لاسيما وقد كان لها فرع فى القاهرة ، وحدث اعتداء من بعض أفرادها على صلاح الدين الأيوبى سنتحدث عنه فيما بعد .

جاء فى كتاب بيان للناس الذى أصدره الأزهر الشريف ما يلى :

الإسماعيلية فرقة باطنية انتسبت للإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام ، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان .

وهم أجداد الفاطميين والقرامطة ، يعتقدون التناسخ والحلول ، وبعضهم يدعى ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وبعضهم يدعى رجعة الإمام بعد موته بصورة التناسخ.

وهذه الفرقة طائفتان إحداهما فى الهند وتسمى « البهرة » ويتركزون فى «بومباى» يعترفون بالأركان الخمسة الواردة فى الحديث الشريف « بنى الإسلام على خمس ...» رواه البخارى ومسلم ..

ويزيدون على ذلك ركنا سادسا اسمه « الطهارات » ويتضمن تحريم الدخان والموسيقا والأفلام ، وهم فى صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ، ويحتفلون بغدير خم فى الثامن عشر من ذى الحجة كل عام ، حيث تمت فيه الوصية لعلى بحديث ﴿ **من كنت مولاه فعلى مولاه**﴾ والطائفة الأخرى فى «سلمية» بسوريا وفى زنجبار وشرقى افريقيا وتسمى الأغاخانية نسبة إلى زعيمهم «أغاخان» (١) .

وينقسم الإسماعيليون أقساما متعددة منهم القرامطة الذين اعتدوا على الكعبة سنة ٣١٩ هـ وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه ، وهاجموا الحجاج وقتلوا منهم عددا كبيرا وهم يطوفون بالبيت الحرام ونهبوا الكعبة ..

ومنهم الفاطميون الذين أسسوا دولتهم فى المغرب ثم استقروا فى مصر حتى انتهت دولتهم سنة ٦٦٧هـ .

ومنهم الحشاشون الذين تآمروا على الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأرادوا اغتيال الخليفة الفاطمى الآمر بن المستعلى ، ومؤسس هذه الفرقة الحسن بن الصباح الذى كان متعطشا للدماء ، وكانوا متعاطفين مع الصليبيين ، ومنهم غير ذلك .

ولعل أسلم هؤلاء الفرق هم طائفة البهرة الذين يعترفون بالإمام المستعلى الفاطمى ومن بعده الآمر ومن بعده الطيب ولذلك يسمون الطيبية ، وهم إسماعيلية الهند واليمن، وهؤلاء تركوا السياسة وعملوا بالتجارة فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة ، والبهرة لفظ هندى قديم معناه التاجر (٢) .

قال ابن المارستانى فيما أورده أبو شامة فى كتابه الروضتين : استطال أهل السنة على الإسماعيلية بعد سقوط العاضد ، وتتبعوهم وأذلوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك إسماعيليا أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية

---

(١) الموسوعة الذهبية د/ فاطمة محجوب ج ٣ ص ٥٩٩ ، نقلا عن الموسوعة الميسرة ، وبيان للناس من الأزهر الشريف ج ٢ ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق : الموسوعة الذهبية ص ٦٠١ .

بذلك ، حتى جلا أكثرهم عن مصر إلى البلاد وفرح الناس بذلك ، وكتبت به الكتب إلى الأقطار وتحدث به السمار (١) .

ومؤدى ذلك أن المصريين لم يتأثروا بسقوط الخلافة الفاطمية ، بل على العكس ابتهجوا .

وجاء فى بعض المصادر أن الإسماعيلية فى مصر لم يحركوا ساكنا أصلا ،عندما انقرض نسل أئمة الفاطميين فى مصر ، وقد اختفت الإسماعيلية من مصر ومن شمالى افريقية بسرعة عجيبة (٢) ، وهذا يدل على ما سبق أن قلناه : إن مصر ظلت عقيدتها سنية على الرغم من وجود الخلافة الفاطمية ،وهذه الخلافة لم تستطع التأثير على طول ما مكثته فى مصر فى عقائد الناس .

نور الدين يرسل للخليفة العباسى رسميا

وأرسل نور الدين باعتباره باسط سلطانه على مصر بعد خلع العاضد ووفاته ونائبه فيها هو صلاح الدين – أرسل إلى الخليفة فى بغداد شهاب الدين أبا المعالى بن أبى عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ فى كل مدينة يمر بها ، جاء فى هذه البشارة: أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منها جه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ومصر والقاهرة ،وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة ، وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التى مضت من قبله ..

إلى أن قال : فملكنا الله تلك البلاد ، ومكن لنا فى الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض ومن إقامة الفرض ، وتقدمنا إلى من استنبناه – يعنى صلاح الدين – أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك (٣) .

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٥٠١ . (٢) دائرة المعرف الإسلامية ج ٣ ص ٣٨٦ .
(٣) كتاب الروضتين ص ٥٠٢ .

وسار ابن أبى عصرون بهذا المنشور متجها إلى بغداد يقرؤه فى كل مدينة يحل بها، حتى وصل بغداد فاستقبل فيها استقبال الفاتحين ، وقوبل بما هو أهله من التبجيل والتكريم ، وأنعم عليه الخليفة كما أرسلت التشريعات الخاصة بصلاح الدين ..

الخليفة يكرم نور الدين وصلاح الدين

أرسل الخليفة إلى كل من نور الدين وصلاح الدين خلعا وتشريفات تليق بمقام كل منهما ، أرسل ذلك مع رسول خاص من قبل الخليفة هو عماد الدين صندل وهو من كبار المقربين للخليفة ، وكان إرسال هذا الرسول وحده تكريما فى حد ذاته ، فما بالك بما حمله من الطرف والهدايا النفيسة التى تشير إلى قدر المهدِى ومنزلته السامية ؟

ولم تقتصر الهدايا والخلع التى جاءت من قبل الخليفة على صلاح الدين وحده ، بل وسعت أهله والأمراء المحيطين وكبار رجال الدولة والقضاة والعلماء وغير ذلك من وجوه الناس .

مصادرة أموال الخلافة الفاطمية

أمر صلاح الدين وزيره بهاء الدين قراقوش بالتحفظ على أموال الخلافة فى القصور المختلفة المنبثة فى كل مكان وإحصاء ذلك ، وتدوين ما فى داخل هذه القصور من تحف ومقتنيات نفيسة فى سجلات تمهيدا للتصرف فيها .

وقد نفذ قراقوش الأمر تنفيذا دقيقا ، ولم يوجد فى خزائن القصور من الأموال شئ له قيمة لأن الوزير شاور كان قد بدد كل شئ بسوء تدبيره .

ولكنه وجد ذخائر كثيرة وتحفا نادرة وجواهر قيمة ، وأراد صلاح الدين أن يقلل نسل الفاطميين فى مصر ، ففرق بين الذكور والإناث منهم ، ليكون أسرع إلى انقراضهم ، بحيث جعل النساء تقيم فى مكان والذكور يقيمون فى مكان آخر ..

واستعرض الجوارى والعبيد فأطلق منهم من كان حرا ، وأعتق من رأى إعتاقه ، ووهب من أراد هبته .

ووزع من نفائس القصر على المقربين والأمراء والأصحاب ،وأطلق البيع فى أشياء كثيرة ، ومن جملة ما بيع المكتبة الفاخرة التى كانت من عجائب الدنيا حيث لم يكن

فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها كان بها من تاريخ الطبرى وحده ألف ومائتان وعشرون نسخة ، وجملة كتبها ألفا ألف وستمائة الف كتاب ـ ٢,٦٠٠٠٠٠

وكان بيع هذة المكتبة من الخسائر العظيمة ، كان يمكن أن تحفظ تراثا باسم الدولة على أن تضيف إليها وتجدد فيها وترم ما أتلف منها ، وبذلك تحفظ للعلم ذخائره ، وللفكر أثره ، وللمعرفة قدرها وجلالها ولكن الذى حبب فى التخلص منها ما كان يوجد فيها من كتب تحمل فكر الرافضة .

كان من الذين ندبوا حظ هذه المكتبة العماد الأصفهانى حيث قال عند ذكرها : أخذت ذخائر القصر ، ومن جملتها الكتب ، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة ـ لاحظ الفرق بين عدد الكتب هنا والعدد المتقدم ـ مؤيدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى ، واقتطعه التعدى ، وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام .

الشعر يسجل الحدث

وانتهت الدولة الفاطمية ، وقامت الدولة الأيوبية . ولم ينس الشعر أن يسجل هذا الحدث الفريد ، فقال شاعر دمشق حسان بن نمير المسمى بالعرقلة الدمشقى :

أصبح الملك بعد آل على ... مشرقا بالملوك من آل شاذى
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ... ومصر تزهو على بغداد
ماحووها إلا بحزم وعزم ... وصليل الفولاذ فى الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كان بها ... كالخصيب والأستاذ(١)

يشير بآل على إلى الفاطميين ، ويقصد بالخصيب أحد أمراء مصر وهو الخصيب ابن عبد الحميد وإليه تنسب منية ابن الخصيب كان فى عهد الرشيد ، أما الأستاذ فهو كافور الأخشيدى وكان يلقب بالأستاذ .

---

(١) الخريدة للعماد الأصفهانى قسم شعراء الشام ج ١ ص ٢٠٣ ..

مسئوليات صلاح الدين

منغصات ومؤامرات

لم يصف الجو لصلاح الدين فى مصر كما ينبغى ، فعلى الرغم من النجاح العظيم الذى حققه بعد أن تولى الوزارة وقضى على مؤامرة مؤتمن الخلافة ، وانتصر على السودان فى ثورتهم ، وانتصر على الفرنج فى دمياط ، وأعاد الخلافة العباسية إلى مصر وبسط يد نور الدين على مصر ، لم يصف له الجو وكان أهم ما يؤرق جفنه ويشغل باله هو غضب نور الدين .

وكان صلاح الدين ينتظر من نور الدين أن يكون راضيا عنه تمام الرضا بعد هذه الإنجازات الضخمة التى تمت على يديه ، ولكن الأنباء كانت ترد إليه لتخبره بأن نورالدين غاضب منه .

ولكن ماسر هذا الغضب مع أن صلاح الدين لم يحدث منه ما يسبب ذلك ؟

وإننا لنستعير قلم المؤرخ المدقق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ليحدثنا بأسلوبه الجميل الذى حلل به هذه القضية فيقول :

لم تلبث الوحشة أن دبت بين صلاح الدين ونور الدين عقب إسقاط الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١م ، بسبب تحديد العلاقة بين الأول والثانى ، أو تحديد الخيوط التى تربط صلاح الدين بسيده نور الدين فحتى ذلك الوقت كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيرا شرعيا للخليفة الفاطمى ، فضلا عن أنه كان ينفذ التعليمات الصادرة له من سيده نور الدين بوصفه نائبا عنه وقائدا لقواته فى مصر ، ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة العاضد صفا الوقت لصلاح الدين – على قول أبى المحاسن – وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود .

ولعله من الواضح أنه كان لزاما على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ، ويختار لنفسه أحد طريقين ، فإما أن يظل على ولائه لنور الدين



بوصفه نائبا عنه فى مصر ، وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل فى أى لحظة قرار نقله ـ أو فصله ـ وإحلال من يحل محله فى حكم مصر ، وإما أن يستقل عن نورالدين ، ويخرج عن طاعته ، ويجعل من نفسه ملكا على مصر مما يعرضه لنقمة نورالدين وهجمات جيوشه .

وليس من شك فى أن صلاح الدين الذى خبر أحوال مصر وأدرك أهميتها ومدى ثروتها عز عليه أن يتخلى عنها ويحرم منها لمجرد حرصه على ولائه لنور الدين ، وتشير الشواهد كلها إلى أنه أخذ يمكن لنفسه فى مصر ، ويستعد لما عسى أن يتعرض له إذا تطورت العلاقات بينه وبين نور الدين تطورا سيئا . من ذلك أن صلاح الدين زار الإسكندرية وتفقد تحصيناتها ، كما أخذ يفكر فى برقة طمعا فى ثروتها [١] .

ويضرب لنا ابن الأثيرمثلا لحالة الوحشة التى سادت العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمى فيقول : إن صلاح الدين خرج من مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١م بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين لمهاجمة حصن « الشوبك » فى وادى عربة ، ولم تستطع حامية الحصن الثبات فى المقاومة ، فطلبت إعطاؤها مهلة عشرة أيام للتسليم ، ولكن صلاح الدين لم يلبث ـ وهو أمام الشوبك ـ أن علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته وعندئذ تخوف صلاح الدين من نوايا سيده نور الدين ، وأدرك أنه من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك لحين حضور نور الدين إليه ؛ إذ ربما استغل نور الدين الفرصة وقبض على صلاح الدين وعزله عن منصبه ، بعد أن تضخم نفوذه فى مصر ..

لذلك أسرع صلاح الدين بالانسحاب إلى مصر قبل وصول نور الدين في أواخر اكتوبر ١١٧١م معتذرا بأنه لابد له من الإسراع بمساعدة أخيه الذى يحارب بقايا أتباع الفاطميين بالصعيد ، وبأن ثورة العلويين تنذر بالانفجار فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته [٢] .

---

(١) المقريزى ـ السلوك ج١ ص ٤٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٦٧ .

على أن مثل هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه فى مصر (١) ..

على أن صلاح الدين لم يكن يفكر وحده فى هذا الأمر ، بل كان يفكر معه أبوه وكاتبه القاضى الفاضل ، كان صلاح الدين يستأنس برأيهما ، ويستمع إلى إرشادهما .

وقد حدث حوار بين هؤلاء الثلاثة صاغه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة بأسلوبه الشيق تحت عنوان « سحابة صيف » نذكره لطرافته وعلاقته بما نتحدث فيه .
قال الأمير الشيخ لابنه الملك الناصر :

أتدرى يابنى منذ كم تغير عليك قلب مولانا نور الدين محمود ؟

قال الناصر : أحسب أن ذلك يا أبى منذ قبلت وزارة العاضد ، وأخذت خلعة الوزارة قبل أن يأتى منه إذن بهذا القبول .

قال الشيخ : هو ذلك يابنى ، فمنذ يومئذ والغيرة منك تدب فى قلبه ، والحذر من أن تصير مستقلا عنه بمصر يشغل باله ويثير هواجسه .

قال الناصر : والله يا أبتى ، لقد صبرت منه على حز المدى ـ قطع السكاكين ـ ووخز الإبر ، وما قدر أحد من أصحابه إلى الآن أن يجد على ما يعتبره ذنبا ، وكم اجتهد هو نفسه أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يستطع ، وقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لا يصبر أحد على مثلها ، لعلى أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتى ، فما أبلغته مأربه قط .

قال الشيخ : نعم ما فعلت يا ولدى ، فإن ملكك وسلطانك رهن بهذه الخطة التى تسلكها مع رجل لا قبل لك به ، ولا ينصرك أحد عن مخالفة أمره أو الخروج على طاعته .

قال صلاح الدين : تلك خطتى مع نور الدين ، وخطتى مع غير نور الدين ممن

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٩٥ ـ ص ٩٨ .

أخافهم على نفسى ، ولا يوافقنى أحد على منابذتهم .

قال الشيخ : ومن هم أولاء يا ولدى حتى أعينك عليهم بقدر استطاعتى ؟

قال صلاح الدين : إنهم إخوتى ، وإنهم لينظرون إلى بالعين التى عرفها يوسف من إخوته ، وقد بت أخشى سعيهم ، وأنا أعرف فى الوقت نفسه أن إقطاعهم بمصر لا يقوم بكرمهم ، ولذلك أحاول من حين لآخر أن أشغلهم عنى بفتوح يعود خيرها عليهم من جهة ، وتكون ردءا لنا جميعا إذا فكرنور الدين فى مباغتتنا من جهة ثانية .

قال الشيخ : ونعم هذا الرأى أيضا يابنى ، ولكن ما الذى تم فى أمر هذه الفتوح التى شغلت بها إخوتك ؟

قال صلاح الدين : هذا أخى شمس الدولة قد أذنت له فى دخول النوبة ، فدخل فاتحا ، فلما لم يجد فيها شيئا عاد وطلب أن نسيره إلى اليمن ، فأذنت له فى ذلك ، وغدا يذهب إلى هناك ، و يقتل الخارجى الذى ظهر بتلك البلاد ، ودعا الناس فيها إلى قبر أبيه بعد إذ جعل عليه قبة من ذهب ، وسماه كعبة ، وحمل الناس على الحج إليه ، والانصراف عن الكعبة .

قال الشيخ : ياله من غبى نزق ، لهو عندى أشد حمقا من هذه الفئة التى أورثنا الله ملكها ، والتى حبسنا سلالتها فى القصر الفاطمى ، لا يتصل فيه نساؤهم برجالهم كيلا يتناسلوا ويكثر عددهم .

قال صلاح الدين : ذلك ما فكرت فيه جيدا ، وذلك منذ وكلت بهم الخادم بهاء الدين قراقوش ، وهو جندى باسل ، وفارس مغوار ، وقد أظهر من الصدق والأمانة فى صيانة القصر الفاطمى ما جعلنى أثق فيه وأطمئن إليه .

قال الشيخ : ما أكثر ما تشغل بالك يابنى ، وما أكثر ما تدبر من أمر ، ووددت لو أن مولانا نورالدين يرضى عنك فى كل ذلك ، ويرضى عن هذه الفتوح التى تشغل بها إخوتك ، فلا يرى فيها إضاعة للوقت والمال ، ولا يرى فيها تبديدا للعساكر الذين ينبغى لهم أن يحاربوا الفرنج فى الجهة التى تفصل بينك وبينه وهى جهة « الكرك » .

وفى هذه اللحظة دخل القاضى الفاضل ، واستأذن فى الجلوس ، وبدأ يسمع طرفا من هذا الحديث ثم قال :

ليأذن لى الأمير أن أقول فى مسألة الكرك رأيا ربما اقتنعتم به .

قال الأمير : قل يا عبد الرحيم فإنا منصتون لك .

قال : الرأى عندى يا مولاى ألا نخلى المنطقة التى تفصل بيننا وبين نورالدين ــ وهى منطقة الكرك ــ فهى وإن كانت بأيدى الفرنج ، بل فى يد طاغية من طغاتهم يقال له ارنولد ــ والمسلمون يسمونه أرناط ــ إلا أنها يا مولاى الخليج الذى يعصمنا مؤقتا من بطش نور الدين ، ويجعلنا فى مأمن من ذلك المارد العظيم ، وذلك حتى تتم أمورنا وتثبت أقدامنا ، ونكون بحيث لا يستطيع أن يخرجنا من ديارنا لمجرد أنه يرغب فى ذلك ، أو لأنه يريد الانتقام منا حين لا يتيسر لنا تنفيذ مشيئته كذلك .

قال الشيخ : الرأى عندك إذن أن تبقى هذه المنطقة مؤقتا فى يد الطاغية ؟

ثم التفت إلى ابنه وقال له : وأنت يا يوسف ؟

فسكت صلاح الدين برهة قصيرة من الزمن ثم قال له :

مسألة يجيب عنها صلاح الدين القائد السياسى إجابة ربما لا يرضى عنها صلاح الدين التابع التقى .

فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ، ونظر إلى ابنه نظرة فيها شئ كثير من الشعور بالغرابة ، ثم قال له :

الآن وقد استحكمت ــ أى بلغت الذروة فى الحكمة ــ وتقدمت بك السن ، قل : ما الذى تعنيه بما ذكرت ؟

قال صلاح الدين : الحكمة فى رأى هذا الكاتب ، فليس من الصواب فى شئ أن نستجيب لنورالدين فيما يطلبه إلينا من محاربة الفرنج فى هذه الأرض التى تقع بيننا وبينه . نعم . هى فى يد ارنولد وهو رجل يسخر بالمسلمين ، ويأسر من يمر منهم بأرضه كلما أمكن ذلك ، ويقول لهم : ادعوا محمدا من قبره كيما يخلصكم من يدى ،

وقد نذرت لله أن أقتله متى أمكننى الله منه ، وسيكون قتلى له يومئذ دفاعا عن شرف محمد ﷺ ودفاعا عن دينه الذى ندين به [1] .

وكنا نود أن نستطرد فى سرد بقية هذا الحوار الممتع الذ ى دار بين هؤلاء الفرسان الثلاثة إلا أننا نخلص منه إلى بيان ما كان يساور قلب صلاح الدين من هم ، ويراود خاطره من قلق ، وإن كان قد مُكِن له فى الأرض كما مُكِن ليوسف ـ عليه السلام ـ من قبل ، وأخبر الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿**وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين**﴾[2] .

على أننا لا ينبغى أن نغفل عن دور الحاقدين فى إيغار صدر الملك العادل نور الدين ضد صلاح الدين . ذلك أن أولئك العائدين إلى الشام من أمراء الجنود الذين كانوا رفقاء صلاح الدين فى الحملة التى أرسلها نور الدين إلى القاهرة ، وأخطأتهم الوزارة بعد وفاة أسد الدين ، لم ينسوا حسدهم لصلاح الدين ، ولا غيرتهم منه ، وأخذوا يدسون له عند نور الدين حتى أثاروه عليه ..

وفى الحقيقة أن صلاح الدين لم يتنكر لنور الدين ، بل ظل على وفائه له ، ويحاول العمل على تحسين العلاقات بينه وبين سيده نور الدين حتى لا يشعر أنه يريد الانفصال عنه والاستئثار بالحكم ، ومما يدل على ذلك أنه كان حريصا على الخطبة باسمه بعد الخليفة العباسى ، وعلىَ أن تضرب النقود باسمه ، وحرص على أن يصله بالهدايا الثمينة من كنوز قصر الخلافة الفاطمى .

ولكن محاولات الوشاة الدنيئة من أولئك الرفاق الذين امتنعوا عن خدمة صلاح الدين فى مصر وعادوا إلى دمشق استطاعت أن تؤثر بعض التأثير فى نفس نور الدين، حتى كادت أن تقع اضطرابات وفتن لولا أن أطفأ الله هذه الفتنة ، وعاد الصفاء إلى قلبى البطلين ورجعت الثقة والمحبة بينهما كما كانت ، واستمر صلاح الدين تحت

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ص ٥٧ ، ص ٦٤ .

(٢) يوسف : ٥٦ .

الولاء الاسمى لنور الدين حتى توفى نور الدين رحمه الله سنة ٥٦٩هـ [1] .

نور الدين يفكر فى السفر إلى مصر

وإنه لمما يدل على مدى الحنق الذى أصاب نور الدين بسبب ما فعله الوشاة عزمه على السفر إلى مصر للقبض على صلاح الدين وإخراجه منها .

وسبب ذلك فيما يرويه ابن الأثير أن نور الدين كاتب صلاح الدين بخصوص محاصرة الكرك ، وأمره أن يتقدم هو بجيشه ويأخذ فى المحاصرة وسوف يلحقه بجيشه ويلتقيان هناك .

وخرج صلاح الدين فعلا من القاهرة فى العشرين من محرم سنة ٥٦٧ هـ ، ولكنه فى الطريق بدا له الرجوع إلى القاهرة ، وذلك أن أصحابه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، وكان نور الدين قد خرج وأقام محاصرا الكرك وأخذ ينتظر صلاح الدين دون جدوى ، حتى أرسل إليه صلاح الدين يعتذر عن الحضور بسبب المشكلات التى ثارت فى مصر .

فشق ذلك على نور الدين ، وغضب ، وثار وصمم على المضى إلى مصر لتأديب صلاح الدين .

وبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمى ليأخذ رأيهم فى هذا الأمر ، وأعلمهم ما عزم عليه نور الدين ، واستشارهم فيما يجب عليهم عمله .

فانبرى ابن أخيه تقى الدين يقول : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه على ذلك بعض الشباب المندفعين ..

فقام نجم الدين أيوب وشتم تقى الدين ، و شتم أولئك الشبان المندفعين ، ووصفهم بأنهم حمقى لا يعرفون شيئا . ثم نظر إلى ابنه صلاح الدين وقال له : أنا أبوك ، وهذا

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ـ عبد الله ناصح علوان ص ٤٢ .

خالك ، أتظن أن هناك من يحبك أكثر منا ؟ أو هناك من يريد لك الخير مثلنا ؟

فقال صلاح الدين : لا .

فقال نجم الدين : والله لو رأيت أنا وخالك نورالدين لا يسعنا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف ما ترددنا لحظة فى ذلك . فإذا كنا نحن كذلك فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه هنا من الأمراء والعساكر لو رأى واحد منهم نور الدين وحده لا يستطيع أن يثبت فوق سرجه ، ولا يسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، اعلم يا ولدى أن هذه البلاد كلها له . وقد أقامك فيها نائبا عنه ، فإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجئ ؟ إنه يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد . ثم قال نجم الدين للمجتمعين كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده ، ويفعل بنا ما يريد .

فتفرقوا على هذا . وكتب أكثرهم بذلك إلى نور الدين .

وخلا نجم الدين بابنه بعد ذلك فقال له : إنك جاهل قليل المعرفة ، أتجمع يابنى هذا الجمع الكبير وتطلعهم على ما فى نفسك ؟ فماذا يكون الأمر لو أن نور الدين بلغه عنك أنك تمنع منه البلاد وتدفعه عنها ؟ إنه إذن يجعلك أهم الأمور عنده وأولاها بالقصد وصيرك العدو الوحيد له ، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا ، بل كلهم يكونون إلبا عليك معه ، وجميعهم يسلمونك إليه . أما الآن ، وبعد هذا المجلس فسوف يكتبون إليه بما جرى ، ويبلغونه ما قلته لهم ، وعليك الآن أن تكتب إليه بسرعة ، وتعرفه بأنك تحت أمره ورهن إشارته ، ولا داعى لأن يكلف خاطره الوصول لأخذك ، بل يرسل نجابا بحبل يضعه فى عنقك ويجرك إليه . فإنه إن سمع هذا منك عدل عما يقصد نحوك ، وينشغل عنك بما هو أهم لديه .

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فسكت فعلا نور الدين وعدل عما كان يقصده ، وعفا عما حدث . وهذا الخبر يدل على حصافة نجم الدين وحسن سياسته وبعد نظره .

ولم يكتف صلاح الدين بإرسال رسالته إلى نور الدين ، بل بادر بإرسال هدية قيمة

إليه ، تتمثل فى مصنوعات دقيقة ، وعطور ثمينة ، وأقمشة رائعة ، وحيوانات نادرة ، وجواهر وفصوص وغير ذلك مما كانت خزائن قصر الخلافة تحتويه ..

ويحكى بعض الرواة أن هذه الهدية الثمينة لم تقع من نور الدين بموقع وقال بعد أن شكر لصلاح الدين : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلة الإقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبى تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته   على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغورالشام مفتقرة إلى السداد ، ووفور الأعداد من الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة والمصونة بالإمداد (١)

ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، بل قام بنفسه فى العام التالى بمهاجمة حصن الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية القريبة لإثبات حسن نيته لسيده نور الدين .

والكرك قلعة مرتفعة تحيط بها أودية إلا من جهة الربض ، وقد حصنها « فولك » صاحب بيت المقدس حوالى سنة ١١٤٢م شرق البحر الميت لتكون قوة لبيت المقدس . وقد حاصر نور الدين هذه القلعة بعد وصول نجم الدين أيوب إلى مصر ، متوقعا وصول صلاح الدين لمؤازرته ولكن صلاح الدين اعتذر كما بينا ، فلما كان عام سنة ١١٧٣م حاصرها صلاح الدين .

أما الشوبك فهى حصن أيضا بناه الملك « بلدوين » الأول صاحب بيت المقدس سنة ١١١٥م جنوب البحر الميت على منطقة عالية ليسهل عليه مهاجمة القوافل المارة بهذا الطريق إلى مصر أو منها ، وسمى الجبل الذى بنيت عليه القلعة « مونت رويال » .

قال ابن شداد: وهذه أول عزوة عزاها صلاح الدين من الديار المصرية ، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٥٢٤ .

الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصدا لها فحاصرها ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشئ فى تلك الدفعة . وحصل ثواب القصد [1] .

فهذه بعض المنغصات التى نغصت بال صلاح الدين ، وليس هناك شئ أشق من أن يكون هناك خلاف بينه وبين سلطان نصب نفسه لجهاد عدو مشترك ، لا سبيل إلى النصر عليه إلا باتحاد الكلمة ، والتوافق التام ، والثقة المتبادلة ، والإخلاص الذى لا يكدره شك .

مؤامرات

كان صلاح الدين وزيرا ثم حاكما فى دولة كانت مهدا لحكومة شيعية لأكثر من قرنين من الزمان ، ولابد أن يكون المهيمنون على الحكم والملتصقون به والمقربون منه متأثرين بالمذهب الشيعى الذى له مبادئه وأحكامه .

أما صلاح الدين فهو سنى شافعى ، يختلف مع أولئك فى المذهب وبعض العقائد . ولابد أن ينظر المتصلون بالقصر الفاطمى إليه نظرة حقد وعداوة ، ومن ثم فقد حدثت مؤامرة مؤتمن الخلافة التى تحدثنا عنها سالفاً ، وثورة السودان التى قضى عليها صلاح الدين أيضا ...

وهدأت الأمور نسبيا ، ولكن الفتنة لم تمت ..

ما زال للفاطميين أنصار كانوا ربائب نعمتهم ، وقد رأوا ما فعله صلاح الدين من إقصاء أسرة الخليفة ، وحجزهم فى بيت برجوان بعيدا عن قصر الخلافة ، وحجز النساء عن الرجال حتى لا يتناسلوا ويكثروا . فأدى ذلك إلى حقد دفين فى قلوب أنصارهم ينتظر الفرصة المناسبة للتنفيس والثورة ...

وقد أحس صلاح الدين بأن قضاءه على ثورة السودان ليست بكافية ، فقد أراد القضاء عليها نهائيا حتى لا تتجدد ، وهذا ما دفعه إلى أن يغزو السودان عن طريق

(١) النوادر السلطانية لابن شداد ص ٣٦ .



أخيه ، ليقضى هناك على بقية الطوائف التى ما تزال ثائرة أو عساها أن تثور [1] .

مؤامرة عمارة اليمنى

ولم يخب حدس صلاح الدين فى توقع الفتنة والشر من أنصار الخلافة البائدة ، فسرعان ما نشبت مؤامرة تزعمها شاعر اسمه عمارة اليمنى ، من هو عمارة اليمنى ؟ هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن ريدان الحكمى اليمنى ، الملقب بنجم الدين ، الشاعر المشهور .

أصله من تهامة باليمن من مدينة يقال لها : مرطان ، من وادى وساع ، بينها وبين مكة من الجنوب مسيرة أحد عشر يوما .

وقد ولد ونشأ بهذه المدينة ، ويقال : إنه بلغ الحلم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ورحل إلى زبيد فى اليمن سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ــ وكانت زبيد تسمى مدينة العلماء ــ وأقام بها ، واشتغل فيها بالفقه ، فى بعض مدارسها ، لمدة أربع سنوات .

وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسيره أمير مكة قاسم بن هاشم رسولا إلى القاهرة ، فدخلها سنة خمسين وخمسمائة فى شهر ربيع الأول . وكان الخليفة الفاطمى فى ذلك الوقت هو الفائز بن الظافر ،وكان الوزير هو الصالح طلائع بن رزيك ..

مدحه للخليفة

وحين وصل إلى القاهرة ، وطلب الإذن بالمثول بين يدى الخليفة ، وأذن له أنشده قصيدة يمدحه بها نقتطف منها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق ، عندى للركاب يد ... تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظرى ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفدا إلى كعبة المعروف والكرم

(١) مصر فى العصور الوسطى د/ على إبراهيم حسن ص ١٤٣ .

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ... ماسرت من حرم إلا إلى حرم؟

حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم

وفيها يقول :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا ... فوز النجاة وأجر البرفى القسم

لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفراج للغمم

ومنها فى مدح الخليفة والصالح معا :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ... عقود در فما أرضى لكم كلمى

ترى الوزارة فيه وهى باذلة ... عند الخلافة نصحا غير متهم

زيادة النيل نقص عند فيضهما ... فما عسى يتعاطى هاطل الديم(١)

وقد انتقد الأدباء قصيدته حيث قال : الحمد للعيس ، ولم يقل الحمد لله . أما أبياتها فهى فريدة فى نوعها ، وإن كانت العقيدة الشيعية تسيطر عليها حيث أوضح ذلك صراحة حين قال : أقسمت بالفائز المعصوم..

والشيعة يعتقدون العصمة فى الإمام ، وأنه يحل فيه جزء إلهى فالقسم به قسم بالله جل الله وعلا علوا كبيرا .

فاستحسن الفائز والصالح قصيدته وأجزلا صلته .

وظل عمارة مقيما فى مصر حتى شوال سنة خمسين فى أرغد عيش ، ثم عاد إلى مكة ، ومنها إلى زبيد .

ثم توجه إلى مكة أيضا فى العام القابل فأوفده أمير مكة أيضا برسالة إلى الخليفة فى مصر ، فتوجه إليها فى هذه المرة وأقام بها ولم يغادرها ثانية . وكان عمارة فى أول أمره فقيها شافعيا متعصبا للسنة ، وكان أديبا ماهرا ، وشاعرا مجيدا .

ولكن العطاء الزائد والمنح الكثيرة والإكرام الفائق الذى وجده فى ظل الخليفة وطلائع بين رزيك فى مصر جعله يدين بالولاء لهما .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ـ ترجمة عمارة اليمنى .

حزنه على فقد الخليفة العاضد وزوال الخلافة الفاطمية

وحين توفى العاضد وزالت الدولة الفاطمية حزن حزنا شديدا ، ورثى العاضد والدولة الفاطمية بقصائد باكية منها هذه القصيدة التى نستشهد منها بما يلى :

ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما ، لا على صفين والجمل

وقل لأهلهما والله ما التحمت ... فيكم قروحى ولاجرحى بمندمل

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على[1]

المؤامرة

اغتم عمارة اليمنى غما شديدا بضياع الخلافة الفاطمية ، وأصابه هم عظيم بسبب ذلك ، وأصبح لا يقر له قرار ، بعد أن مات رب نعمته ، وزالت دولة أسرته ، وأخذ يفكر فى إعادة هذه الدولة التى ذهبت مرة أخرى إلى الوجود ، بعد أن شيعت إلى مثواها الأخير ، و تلقى العزاء فى دفنها الكبير والصغير .

لقد اعتبر عمارة الأيوبيين مغتصبين الحق من أصحابه ، وصغر فى نظره أمر صلاح الدين حتى أصبح يطلق عليه لقب « المملوك الصغير » ، وأخذ يجمع حوله كل موتور ، ويناجى كل محزون على فقدان الخلافة ، حتى اجتمع من هؤلاء جم غفير من المصريين والسودانيين والتركمانيين والحاسدين لصلاح الدين والحاقدين عليه ، وغيرهم ممن تأثرت مواردهم المالية بانتهاء الخلافة .

وقرروا فيما بينهم القيام بانقلاب ضد صلاح الدين ، والإطاحة به وعينوا الخليفة الذى يقوم بالأمر ، والوزير الذى يدبر له الحكم وكاتبوا فى ذلك ملك الافرنج فى بيت المقدس « أمورى » ليستعينوا به ، كما كاتبوا أيضا راشد الدين سنان رئيس الإسماعيلية

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٧ .

المعروفين بالحشاشين ، وانضم إليهم بعض كبار الموظفين في الدولة الذين كانوا يدينون بالولاء للفاطميين . من أمثال عبد الجبار بن إسماعيل الملقب بداعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة، وعبد الصمد الكاتب ، وجماعة من بنى رزيق من أسرة شاور الوزير السابق والعوريس ناظر الديوان [1] .

لقد كانت مؤامرة كبيرة وخطيرة ، وضاعف من خطورتها أن عمارة اليمنى الذى تولى كبر هذه المؤامرة اتفق مع ملك صقلية النورماندى على مهاجمة الشواطئ المصرية ، فى الوقت الذى تقوم فيه الثورة ضد الأيوبيين فى القاهرة [2] .

وبدأ تنفيذ المؤامرة فعلا ، فقد أرسل ملك صقلية أسطولا كبيرا مكونا من ٢٨٢ قطعة وذلك في آخر سنة ٩٦٩ هـ يوليو ١١٧٤ م وحاصر الإسكندرية بالمجانيق والدبابات لمدة ثلاثة أيام . . .

لقد جاء هذا الأسطول مزودا بثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل ، وتمكن هؤلاء المعتدين من قتل سبعة رجال من أهل الإسكندرية ، وأغرقوا بعض سفن المسلمين الراسية في الميناء ، ونزلوا على الشاطئ ونصبوا ثلاثمائة خيمة وزحفوا لمحاصرة الإسكندرية ، وأقاموا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار لضرب المدينة بحجارة سود عظيمة .

كان صلاح الدين فى فاقوس فى ذلك الوقت ، وبلغه الخبر بعد نزولهم الإسكندرية ، فشرع فى تجهيز العساكر وإعداد آلات القتال ، واستعد لمنازلتهم .

ولم يكد يلتحم الفريقان حتى أيد الله جند صلاح الدين بنصره ، وتمكنوا من حرق دبابات العدو ، واستمر القتال حتى عصر اليوم الرابع من نزولهم فلم يهبط الليل حتى أصلاهم المصريون نارا حامية ، وأغرقوا سفنهم ، وولت بقية مراكبهم منهزمة ، وقتل كثير من الفرنج ، وغنم جيش صلاح الدين كثيرا من الآلات والأمتعة والأسلحة ،



(١) كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق .

وعاد المعتدون خائبين إلى بلادهم يجرون أذيال الذل والصغار [١] .

وإن كان ملك صقلية لبى رغبة عمارة اليمنى فى الاشتراك فى المؤامرة وحضر فإن ملك بيت المقدس « أمورى » لم يلب ، فقد أخلف وعده مع عمارة والمتآمرين وبخاصة بعد أن علم بالفشل الذريع الذى منيت به غارة الصقليين ، ثم بالقضاء على أعضاء المؤامرة وزعيمهم عمارة اليمنى .

كيف علم صلاح الدين بالمؤامرة ؟

لقد أفشى سر هذه المؤامرة التى كان أعضاؤها حريصين على إنجاحها واحد منهم وهو زين الدين على بن نجا .

كان واحدا منهم ، وقد ظل مشتركا معهم حتى عرف الخطة كاملة ، ثم نقل تفاصيلها إلى صلاح الدين [٢] . فتتبع صلاح الدين أصحابها وقبض عليهم واحدا واحدا ولم ينج منهم أحد وقد اعترفوا جميعا باشتراكهم فى المؤامرة وكان جزاؤهم القتل والصلب أو النفى ولم يتعرض لجنوده الذين اشتركوا فى المؤامرة ، وتغاضى عنهم لعلهم يرتدعون عن غيهم [٣] .

وكان عمارة قد مهد لهذه المؤامرة حين زين لصلاح الدين وجوب غزو اليمن حتى يستطيع المتآمرون الانفراد بصلاح الدين بعد ذهاب أخيه شمس الدين على رأس فرقة كبيرة من الجيش إلى اليمن . وصلب عمارة اليمنى ، وحق له أن يصلب بعد أن نجم نفاقه ، وظهر شقاقه ، وظهر سوء عقيدته على فلتات شعره ولسانه ، فقد نسبوا إليه أنه قال قصيدة مطلعها :

العلم مذ كان محتاج إلى العلَم ... وشفرة السيف تستغنى عن القلم

وفيها هذا البيت :

---

(١) صلاح ـ د / الرمادى ص ٢١ .

(٢) مفرج الكروب لابن واصل ص ٤٨ .

(٣) مصر فى العصور الوسطى ص ١٤٥ .

قد كان أول هذا الدين فى رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم[1]

فكان هذا البيت كافيا لأن يقتل . قال العماد الأصفهانى : فأفتى فقهاء مصر بقتله ويجوز أن يكون هذا البيت مدسوسا عليه . واستراح صلاح الدين من هذه المؤامرة . ولكنه لم يسترح إلا قليلا حتى فوجئ بمؤامرة أخرى .

مؤامرة أخرى

لقد قامت مؤامرة أخرى دبرها رجل اسمه كنز الدولة ، وهو مصرى من أبناء الصعيد ، نزح إلى أسوان بعد فتنة مؤتمن الخلافة وثورة السودانيين .

واستطاع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود السودانيين وغيرهم من أنصار الفاطميين ، وحين آنس من نفسه القدرة على مناهضة صلاح الدين أعلن الثورة ضده ، وقام بحركة يهدف منها إلى إعادة الخلافة الفاطمية فى مصر مرة أخرى .

وقصد كنز الدولة « قوص » وقتل بعض أمراء صلاح الدين ، فجرد له صلاح الدين عسكرا عظيما بقيادة أخيه سيف الدين ، وتمكن من القضاء على هذه الثورة وقتل زعمائها ، وكان ذلك فى صفر سنة سبعين وخمسمائة .

فتنة عباس بن شادى

وفى إحدى مدن الصعيد مدينة اسمها « طود » خرج منها رجل اسمه عباس بن شادى وأعلن الثورة ضد صلاح الدين ، وثارفى بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس ، وكان ذلك قبل ثورة كنز الدولة السابق فانفتل له سيف الدين بن أيوب وتمكن من القضاءعليه قبل أن يتوجه للقضاء على كنز الدولة فى قوص [2] .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٥٦٢ .

(٢) مصر فى القرون الوسطى ص ١٤٥ .

وفاة نور الدين

نحن نميل إلى أن صلاح الدين ظل وفيا لنور الدين طول حياته ، ولم يحاول أن يحدث منه ما يعكر الصفو بينهما . وأن ماحدث من تصرفات قد تبدو فى ظاهرها دالة على أن هناك خلافا بين هذين الزعيمين الكبيرين ، وأن هناك بوادر انشقاق من صلاح الدين ضد نور الدين فإن وراءها إما تحريض من الوشاة لنورالدين بدافع الحسد لصلاح الدين وإما ظروف قاهرة حالت بين الوفاء ببعض الالتزامات من جانب صلاح الدين ، مما ترك فرصة لسوء الظن وتأويل المتأولين .

والذى يدل على أن صلاح الدين كان وفيا لنور الدين أنه ظل متمسكا بأنه يحكم مصر نيابة عن نور الدين ، فالخطباء يخطبون باسم الخليفة العباسى ، ويدعون له أولا ، ثم يتبعونه الدعاء لنور الدين ، ثم يأتى الدعاء لنائبه فى مصر صلاح الدين . وكانت العملة باسم نور الدين وظلت كذلك حتى وفاة نور الدين . وبعد وفاته أيضا بزمن . وربما كان نور الدين فى داخله على يقين من إخلاص صلاح الدين له ، يشير إلى ذلك الخطاب الذى كتبه نورالدين بخطه للشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ـ رحمه الله ـ وهو بحلب ليوليه قضاء مصر ـ وصورة الخطاب مايلى :

« حسبى الله وكفى ، وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير . غير خاف عن الشيخ ما أنا عليه ، وفيه : وكل غرضى ومقصودى فى مصالح المسلمين وما يقربنى إلى الله ، والله ولى التوفيق ....

أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ، فهى من الفتوحات الكبار التى جعلها الله دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق ، فله المنة والحمد ، إلا أن المقدم على كل شئ أمور الدين التى هى الأصل ، وبها النجاة ..

والآن فقد تعين عليك وعلى أن ننظر إلى مصالحها ، ومالنا أحد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أن أولى أمورها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتى عند الله ، فيجب عليك ـ وفقك الله ـ أن تشمرعن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله .

وقد كتبت هذا بخطى حتى لا يبقى على حجة ، تصل أنت وولدك عندى حتى أسيركم إلى مصر والسلام ، بموافقة صاحبى واتفاق منه : صلاح الدين ، وفقه الله فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاه الله خيرا وأبقاه ، ففى بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الإسلام ، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » [1] فنهاية هذا الخطاب يشير إلى ثناء نور الدين على صلاح الدين وشكره له .

وفاة والد صلاح الدين

ومن الأسباب التى جعلت صلاح الدين يترك محاصرة الكرك ويعود إلى القاهرة بعد أن اتفق مع نورالدين ، الخبر الذى وصله عن مرض والده نجم الدين ، بعد أن سقط من فوق فرسه حين شب به عند باب النصر ، فحمل إلى منزله مريضا ..

وقد يبدو أن هذا السبب ليس كافيا لرجوع رجل عسكرى من الميدان ، ولكن حين يكون هناك من ينوب عنه ويقوم مقامه ويغنى غناءه فإن الرجوع ليس أمرا منكرا .

وقد انتهز بعض الوشاة هذا الرجوع ليوغروا صدر نوز الدين عليه . ولو أن صلاح الدين عاد بدافع الاحتراس من نور الدين ــ كما يقول بعض الرواة ــ فإن ذلك لا يجافى ولاءه لنور الدين ، والمثل الدارج يدعو إلى الحذر وينفر من الخيانة فيقول: احترس ولا تخون .

وعلى أى فقد رجع صلاح الدين ليجد أباه قد فارق الحياة .. وتألم صلاح الدين لوفاة والده وقال :

وتخطفته يد الردى فى غيبتى هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع؟

وحزن صلاح الدين على والده ، وعزى نفسه بنفسه بما قاله فى الشطر الثانى من البيت السابق .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٣ .

ودفن نجم الدين بجوار أخيه أسد الدين فى بيت الدلر السلطانية ، ثم نقلا معا بعد سنتين إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ حيث دفنا بها معا بجوار الوزير جمال الدين الأصفهاني . وكانت وفاة نجم الدين فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة ..

وفاة نور الدين

وفى الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة انتقل نورالدين إلى جوار ربه بعد مرض لم يمهله أكثر من عشرة أيام ..

وقد قال ابن الأثير : كان نور الدين عازما قبل موته على السفر إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، لأنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته . وأيد ابن شداد فى النوادر السلطانية هذا القول حيث قال : ولقد حكى لى صلاح الدين قال : كان يبلغنا عن نورالدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه و نلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده ، قال : وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شئ من ذلك . ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته ـ رحمه الله تعالى ورضى عنه ـ (١) .

لقد حل الموت مشكلة عويصة جدا . فلو انشغل نورالدين بحرب صلاح الدين استجابة لمن يزين له ذلك ، وتأثرا بأقوال الوشاة الذين يفسدون بين الناس لما أفلح الأميران معا . ولتمكن الصليبيون من مقامهم إلى مالا نهاية . ولكن الله ـ جل وعز ـ اختار نور الدين لجواره ـ قبل أن ينفذ عزمه ـ راضيا مرضيا ، وادخر لجهاد أعدائه صلاح الدين ليواصل جهود نورالدين فيما كان قد بدأ به من القضاء على هؤلاء الأعداء الطامعين ...

قال أبو شامة : ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدى صلاح الدين من بعده لقرت عينه ، فإنه بنى على ماأسسه نور الدين من

---

(١) النوادر السلطانية ص ٣٧ .

جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ـ رحمهما الله تعالى [1] .

طرف من سيرة نور الدين

وقد تحدثنا فى أثناء ما مر بنا من حديث عن كثير من مناقب نور الدين الذى كان لا شغل له إلا الجهاد ، ولا حديث له إلا عنه ، ولا تفكير له إلا فيه ، ولا سعى له إلا له وقد شبهه الناس فى زهده وورعه بعمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنه ـ

وقد ذكر هذا التشبيه ابن الأثير فى كتابه ، وعبارته بنصها : لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نورالدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ونضيف إلى ماسبق أن ذكرناه طرفا آخر من سيرته لتكون ذكرى ينتفع بها وزادا يتزود به العلماء والمصلحون والقادة وأولو الأمر وذوو الشأن ، فإنما الإنسان سيرة تروى وأثر يذكر ، ونستعين فى ذلك بما ذكره ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى كتابه البداية والنهاية ..

* من صلاحه : قال كان ـ رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعا للآثار النبوية ، محافظا على الصلوات فى الجماعات ، كثير التلاوة ، محبا لفعل الخيرات ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا فى الإنفاق على نفسه وعياله فى المطعم والملبس ، حتى قيل: إن أدنى الفقراء فى زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا .

واستفتى العلماء فى مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئا ، ولو مات جوعا .

وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم ، فكان يقتات منها .

* من عدله : ذكر ابن الأثير أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة إذ رأى رجلا يحدث آخر ، ويومئ إلى نورالدين .

فبعث الحاجب يسأله عن شأنه ، فإذا هو رجل معه رسول من قبل الحاكم ، وهو

---

(١) كتاب الروضتين ج١ ص ٥٨٢ .



يزعم أن له على نور الدين حقا يريد أن يحاكمه إلى القاضى . فلما رجع الحاجب أعلم نور الدين ، فترجل وانطلق مع خصمه ما شيا إلى القاضى « الشهرزورى » . وأرسل نور الدين إلى القاضى ألا تعاملنى إلا معاملة الخصوم . فحين وصلا إلى القاضى وقف نورالدين مع خصمه أمام القاضى ، حتى انفصلت الخصومة والحكومة ، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق ، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل ، فلما تبين ذلك قال نور الدين : إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دُعِى إليه ، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا « شجنكية » لرسول الله ـ أى بمعنى خدم وحراس على شريعته ـ فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه ، فما أمر به امتثلناه ، وما نهانا عنه اجتنبناه ، وأنا أعلم أنه لا حق للرجل عندى ، ومع هذا أشهدتكم أنى قد ملكته ذلك الذى ادعى به على ووهبته له ...

وهو أول من ابتنى دارا للعدل ، وكان يجلس فيها فى الأسبوع مرتين وقيل : أربع مرات .

وكان أسد الدين شيركوه قد عظم شأنه فى عهده ، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك ، وكان القاضى كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين .

فلما ابتنى نور الدين دار العدل ورأى أسد الدين نور الدين يجلس فيها تقدم إلى نوابه أن لا يدعوا لأحد عنده ظلامة وإن كانت عظيمة ، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم ، أو يوقفه مع خصم من العامة . ففعلوا ذلك .

فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم ير أحدا يستعدى على أسد الدين سأل القاضى عن ذلك ، فأعلمه بصورة الحال . فسجد نورالدين شكرا لله ، وقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم ..

*من حكمته : كان يكثر اللعب بالكرة فعاتبه رجل من الصالحين فى ذلك ، فقال له : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد .

وركب يوما مع بعض أصحابه والشمس فى ظهورهما والظل بين أيديهما لا يدركانه ثم رجعا فصار الظل وراءهما ، ثم ساق نور الدين فرسه سوقا عنيفا وظله يتبعه فقال لصاحبه : أتدرى ما شبهت هذا الذى نحن فيه ؟ شبهته بالدنيا تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها .

وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فصاغه شعرا فقال :

مثل الرزق الذى تطلبه — مثل الظل الذى يمشى معك

أنت لاتدركه مستعجلا — فإذا وليت عنه تبعك

* من شجاعته : كان شجاعا صبورا فى ميدان الحرب يضرب به المثل فى ذلك ، وكان يقول : تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لى ذلك ، ولو كان فى خير ولى عند الله قيمة لرزقتها ، والأعمال بالنية .

قال له قطب الدين النيسابورى : بالله يامولانا لا تخاطر بنفسك ، فإنك لو قتلت قتل جميع من معك ، وأخذت البلاد ، وفسد حال المسلمين . فقال له : اسكت يا قطب الدين فإن قولك هذا إساءة أدب على الله ، ومن هو محمود ؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلى غير الله الذى لا إله إلا هو ؟

* من ورعه وأدبه : كان يجمع المشايخ والصوفية والعلماء ويكرمهم ويعظهم وكان يحب الصالحين ، وقد نال بعض الأمراء مرة عنده بعض الفقهاء وهو قطب الدين النيسابورى فقال له نور الدين : ويحك ، إن كان ما تقول حقا فله من الحسنات الكثيرة الماحية لذلك ما ليس عندك مما يكفر عنك سيئات ما ذكرت إن كنت صادقا ، على أنى والله لا أصدقك ، وإن عدت ذكرته أو أحدا غيره بسوء لأوذينك . فكف عنه .

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسرانى أنه رأى فى منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين ، فأمره بأن يكتب منشورات بوضع المكوس والضرائب عن البلاد وإبطالها ، وقال له : هذا تأويل رؤياك ، وكتب للناس ليكون منهم فى حل مما كان قد أخذ منهم ، ويقول لهم : إنما صرف ذلك فى قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونساءكم وأولادكم .

ومفهوم ذلك أن الضرائب الباهظة ظلم وعواقبها سيئة تستوجب التوبة وطلب المغفرة من الله واستحلال مؤديها حتى لا يكون خصما للحاكم بين يدى الله .

* سماعه المواعظ وعدم غضبه من الواعظ : كان فى زمانه واعظ صالح اسمه أبو عثمان المنتخب بن أبى محمد الواسطى ، وكان من كبار الصالحين ، يعظ الناس لوجه الله ، ولا يقبل من أحد شيئا ، أنشد نورالدين أبياتا تتضمن ما هو متلبس به فى ملكه . قال له :

مثل وقوفك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل: نور الدين رحت مسلما فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت فى كأس المظالم طائش مخمور ؟
عطلت كاسات المدام تعففا وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى فردا وجاءك منكر ونكير ؟
ماذا تقول إذا وقفت بموقف فردا ذليلا والحساب عسير ؟
وتعلقت فيك الخصوم وأنت فى يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت فى ضيق القبور موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية يوما ولا قال الأنام : أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة فى عالم الموتى وأنت حقير
مهد لنفسك حجة تنجو بها يوم المعاد ويوم تبدو العور

فلما سمع نو ر الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدا ، وأمر بوضع المكوس والضرائب فى سائر البلاد (١) .

لقد أفاض الرواة والمؤرخون فى سيرته ، وأثنوا عليه بكل خير ، ولو لم يكن له من عمل إلا أنه جاهد الصليبيين وأرغمهم فى كثير من المواقع ورفع من شأن الإسلام لكفاه ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٧٧ ـ ص ٢٨٣ .

ويكفى أن يكون من حسناته صلاح الدين الأيوبى الذى أكمل رسالته ، وحمل الراية من بعده ، وواصل جهاده ، فجزاهما الله عن الإسلام خيرا .

وكان رحمه الله كريما متواضعا ممدحا ، ومن مدائح أسامة بن منقذ فيه قوله :

فى كل عام للبرية ليلة ... فيها تشب النار للإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران : نار قرى ونار جهاد
أبدا يصرفها نداه وبأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له فى كل جيد منة ... أبهى من الأطواق فى الأجياد
أعلى الملوك يدا ، وأمنعهم حمى ... وأمدهم كفا ببذل تلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا ... من غير مسألة ولا ميعاد
لازال فى سعد وملك دائم ... مادامت الدنيا بغير نفاد[1]

وهناك مدائح ومراث لا تحصى فيه . ودفن نور الدين بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى قبر يجاور مدرسته التى بناها لأصحاب أبى حنيفة ــ رضى الله عنه ــ وكان مذهبه حنفيا . وتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكانت سنه دون البلوغ ..

إسماعيل بن نور الدين ينعى والده إلى صلاح الدين

وكتب العماد الأصفهانى خطابا على لسان الملك إسماعيل بن نور الدين الذى تولى مكان والده . قال فيه :

أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظم أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل....

وما هنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلا أمر الفرنج خذلهم الله ــ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل .. فقد ادخره لكفايات النوائب ، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب ، وأمله ليومه وغده ، ورجاه لنفسه وولده ، ومكنه قوة لعضده فما فقد رحمه الله تعالى إلا صورة والمعنى باق ، والله تعالى حافظ وواق .

---

(١) المرجع السابق



وهل غيره ـ دام سموه ـ من مؤازر ؟ وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر ؟

وقد عرفناه المقترح ، ليروض برأيه من الأمر ما جمح ، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجرى على العادة الحسنى فى إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ما ذكرناه ، راغبا فى اغتنام ثنائنا وشكرنا ..

صلاح الدين يعزى

وكتب صلاح الدين فور سماعه الخبر إلى الملك إسماعيل معزيا ومواسيا ، وجاء فى آخر كتابه : « وأما العدو خذله الله تعالى ـ فوراءه من الخادم من يطلبه طلب الليل النهار والسيل للقرار ، إلى أن يزعجه من مجاثمه ، ويستوقفه عن مواقف مغانمه ، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه » ولم يقصر صلاح الدين فى واجبه ، وكان الله قد أكرمه بالقضاء على كل المؤامرات والعقبات التى بذرت له ووضعت أمامه . وأصبح متفرغا للعدو الحقيقى المتمثل فى الفرنج الذين يحتلون أعز وأغلى ما يدافع عنه الأحرار .....

صلاح الدين يرث التركة بأثقالها

أصبح العبء ، كله على كاهل صلاح الدين ..

لقد تلفت صلاح الدين إلى أمراء نور الدين فإذا بهم يتوزعون مملكته الواسعة التى أجهد نفسه فى تكوينها وتوحيدها ، لتكون قوة كبرى تقف فى وجه أطماع الفرنجة ، وتستطيع أن تواصل جهودها العظيمة فى خدمة الإسلام ..

لقد اقتسم الأمراء الذين حول نور الدين هذه المملكة بينهم ولم يحافظوا على وحدتها ، وتنافسوا بينهم تنافسا أدى إلى تمزق الدولة ..

اعتلى إسماعيل وهو الولد الوحيد لنور الدين عرش المملكة وكانت سنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ووقع فريسة سهلة تحت القوى المتصارعة حوله من الأمراء .

ولم تلبث الجزيرة والموصل أن أصبحت تحت حكم سيف الدين غازى وهو ابن عم إسماعيل وانفرد أحد الأمراء وهو شمس بن الداية بحلب وانفرد أمير آخر وهو شمس الدين بن المقدم بدمشق ، وأدى ذلك إلى ضعف الدولة ، وبالتالى إلى استرضاء الصليبيين كما فعل شمس الدين بن المقدم الذى لم يقو على قتال الصليبيين فاسترضاهم بمال يدفعه إليهم ، وبذلك صار الأمر إلى ما كان عليه قبل استيلاء نور الدين على دمشق ..

ولقد أحاط بالملك إسماعيل حزبان من الأمراء حزب الحلبيين الذى يميل إلى بقاء إسماعيل فى حلب كما كان فيها نورالدين من قبل . وحزب الدمشقيين الذى يريد نقل العاصمة إلى دمشق لإرجاعها إلى مجدها القديم ، وتاريخها العبق ، ومنزلتها التى كانت لها قبل اتخاذ نور الدين حلب عاصمة لدولته .

وتنازع الحزبان تنازعا كبيرا أدى إلى استنجاد الحلبيين بالصليبيين لحل هذه المشكلة ، واستنجد الدمشقيون بصلاح الدين كى ينصرهم فى قضيتهم [1] .

ولم يكن هناك خيار أمام صلاح الدين . لقد أوجب هذا النزاع التدخل ، وتأخره عن التدخل يعنى استفحال الخطر وعدم التمكن من إيقافه عند حد ..

ولكن قبل ذهابه إلى الشام كان قد قام بعدة أعمال عظيمة نشير إليها فيما يأتى :

دعوته إلى المحافظة على وحدة الدولة

استمر صلاح الدين فى ولائه لنور الدين فى صورة ابنه الوريث إسماعيل . فقد أظهر له الولاء والخضوع ، وخطب له على المنابر فى مصر ، وضرب النقود باسمه ، لقد أراد أن يظهر للشاميين أنه مازال تابعا لنور الدين ونائبا عن ملكه فى ديار مصر ، كما أظهر غيرته على هذه المملكة ورغبته فى للمحافظة عليها ولذلك أرسل إلى الوزير شمس الدين بن المقدم وزير الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين يلومه على ما فرط منه ويقول له : إذا لم تخلصوا الخدمة للملك

---

(١) مصر فى القرون الوسطى ص ١٤٧ .



الصالح إسماعيل ولم تحافظوا على ملكه تماما فسأحضر بنفسى وأحافظ على حقوقه .

ولكن هذه الرسالة لم تأت بالنتيجة المطلوبة ، فقد استمر النزاع قائما ، واشتد التنافس ، وبلغ من ضراوة هذا التنافس أن أخذ هؤلاء الراغبون فى السلطة يفكرون فى الاستعانة بالصليبيين ليظاهروهم فى الوقوف أمام صلاح الدين لو فكر فى الزحف على الشام .. وقد حدث ذلك فعلا حين استولى سعد الدين كمشتكين على حكم حلب ، وقبض على شمس الدين بن الداية الذى كان حاكما عليها وألقاه فى السجن هو وأسرته ، ثم اتصل بملك بيت المقدس ليكون معه جبهة ضد صلاح الدين . وكان صلاح الدين قبل أن تصل الأمور إلى هذا الحد فى الشام قد تمكن من أن يقوم بعدة خطوات مهمة فى طريق توحيد الصفوف فى افريقيا واليمن .. وأن يقوى جيشه ويطوره ليتمكن من مجابهة ما يجد من أحداث ..

فتح اليمن

كان قد أرسل أخاه إلى اليمن ليقضى على عوامل النزاع فيها بين الطوائف المتناحرة ، فقد كان الحمدانيون فى صنعاء والنجاحيون فى زبيد يتنازعون على الحكم، كما ظهر فيها رجل ادعى أنه المهدى المنتظر وأظهر كثيرا من الفتن والقلاقل فى اليمن .

وفى زمن قياسى استطاع شمس الدين توران شاه بن أيوب أن يفتح اليمن ويحدها ، فقد سار فى النيل حتى وصل إلى مدينة قوص ثم سار برا حتى بلغ ساحل البحر الأحمر ، ثم ركب البحر حتى جدة ، ثم سار حتى وصل إلى اليمن ، وتوغل فى أراضيها واستولى على زبيد وعلى بعض الحصون الأخرى ، ويقال : إنه فتح وحده ثمانين حصنا ومدينة باليمن .

ويبدو أن اليمنيين رحبوا به وساعدوه على تخليصهم مما كانوا فيه من فرقة وخلاف وفوضى ، ثم استقر فى مدينة تعز نائبا عن أخيه صلاح الدين فى حكم البلاد . وكان قبل ذلك قد فتح بلاد النوبة وسيطر عليها . وبذلك أصبحت مصر والنوبة واليمن جبهة واحدة .

والذى حدا بصلاح الدين إلى السيطرة على اليمن ـ بجانب القضاء على النزاع فيها ـ هدف سياسى بعيد يتصل بالقضاء على الصليبيين . هو أن اليمن مفتاح البحر الأحمر الذى تطل عليه الحبشة ، ولا يخفى على الباحث أن الحبشة معقل من معاقل المسيحية ، وقد خشى صلاح الدين أن يستغل الفرنج نياتهم المستترة تحت ستار الدين فيجد الاستعمار فى الأرض الحبشية مكانا خصبا ومجالا فسيحا ، فيصبح صلاح الدين محاطا بنارين إحداهما على سواحل البحر المتوسط وتتمثل فى الإمارات الصليبية فى الشام ، والأخرى تتمثل فى الحبشة من أرض أفريقية (١) .

استيلاؤه على أيلة

وكان صلاح الدين قد استطاع الاستيلاء على أيلة التى تقع على خليج العقبة ، وذلك فى سنة ١١٧١م ، وكان الصليبيون قد استولوا عليها سنة ١١١٦ م وأدمجوها فى مملكة بيت المقدس تحت إمرة بارونية الكرك ومونت ريال ..

وبعد استيلائه عليها ترك بها حامية تسيطر عليها (٢) .

وتحدثت الموسوعة الذهبية عن كيفية الاستيلاء عليها قالت : قال القاضى الفاضل: وفى سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجمال ، وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة ، وكانت قد ملكها الافرنج وامتنعوا بها ، فنازلها فى ربيع الأول ، وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر وشحنها بالمقاتلة والأسلحة ، وقاتل قلعة أيلة فى البر والبحر ، حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر ، وقتل من بها من الإفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره وعادإلى القاهرة فى أخرى جمادى الأولى (٣) .

---

(١) صلاح الدين ـ دكتور جمال الدين الرمادى ص ٢٣ ، ص ٢٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٣٥٨ ـ مادة أيلة ـ

(٣) الموسوعة الذهبية د/ فاطمة محجوب ج ٦ ص ٢٨٤ .

رد فعل السيطرة على أيلة

تمثل أيلة موقعا « استراتيجيا » رائعا على خليج العقبة ، واستيلاء صلاح الدين عليها يمكنه من تهديد كل المواقع الصليبية المجاورة مثل : الشوبك ، ووادى عربة .

وقد ظل هذا الموقع تحت سيطرة صلاح الدين بعد استرداده أكثر من عشر سنوات ودعنا نسبق الأحداث قليلا لنتحدث عن رد فعل الاستيلاء عليها وما ترتب على ذلك .

كان « ارناط » من أمراء الصليبيين الذين لا يعرفون شيئا عن أصول الفروسية أو الالتزام بالكلمة ، بل كان نموذجا سيئا للحاكم المتغطرس الذى لا يراعى عهدا ولا ذمة، قال عنه أبو شامة فى كتابه الروضتين إنه : أغدر الفرنجة وأخبثها وأمحضها عن الردى والرداءة ، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة (١) .

وكان أرناط فى أسر المسلمين فى قلعة حلب منذ سنة ١١٦٠ م ، كان قد أسر حينما قام بإغارة فاشلة على بعض الجهات لمجرد الرغبة فى السلب والنهب ، ولم يطلق سراحه إلا فى سنة ١١٧٥ م عندما حاصر صلاح الدين حلب فاستنجد « كمشتكين » حاكمها بالصليبيين فآزروه ، فكافأهم بإطلاق أسراهم ، وكان من بينهم « أرناط » صاحب حصن الكرك. وفور خروج أرناط من الأسر فكر فى الاستيلاء على « أيلة » وتمكن من بناء عدة سفن استطاع أن يستولى ببعضها على جزيرة القلعة المسماة بجزيرة فرعون ، وهى جزيرة مواجهة لأيلة .

وسارت بعض السفن الأخرى تجاه الموانى المصرية فى البحر الأحمر ، وأخذت تعربد فى البحر وتهدد السفن التجارية القادمة إلى مصر والآيبة منها ، واستطاع الصليبيون أن يصلوا إلى « عيذاب » ونزلوا على شاطئها ، وأخذوا منها مركبا كان ينقل الحجاج المصريين ، وعاثوا فى الشاطئ فسادا ، واستولوا على بعض السفن المحملة بالبضائع كانت قادمة من اليمن .

ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شواطئ الحجاز واستمالوا بعض الأعراب الذين هم

---

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

أشد كفرا ونفاقا فدلوهم على الطريق الموصلة إلى مكة والمدينة وقد أبلى صلاح الدين فى الرد على هؤلاء بلاء حسنا .

لقد أرسل قائد أسطوله الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى أيلة ، فحاصرها بأسطوله القوى ، وظفر بمراكب الفرنج فأحرقها وأسر من فيها ثم أسرع يتعقب سفنهم فى البحر الأحمر حتى وصل إلى « عيذاب » فشواطئ الحجاز فأحرق سفنهم الموجودة هناك ، وكان أكثرها على شاطئ الحوراء ، فدمرها جميعا ، بعد أن أطلق أسرى المسلمين وتعقب الذى نزلوا إلى الشواطئ من الجنود ، وكانوا قد لاذوا بالفرار إلى الكهوف والشعاب ، ولكن حسام الدين ظفر من الأعراب بكثير من الخيول التى أعانت على الظفر بهؤلاء الهاربين جميعا . وساق بعضهم كما تساق الأبدان إلى الحرم ، ونحرهم فى منى كما تنحر البدن عقابا لهم وزجرا لغيرهم .

وأرسل الباقين إلى الإسكندرية والقاهرة وقتلوا جميعا ليكونوا عبرة لمن يعتبر ، كان ذلك فى فبراير سنة ١١٨٣ هـ (١) .

فتح شمال افريقيا

ويبدو أن أنصار الفاطميين فى شمال افريقيا حاولوا أن يثيروا الفتن والقلاقل هناك فأرسل صلاح الدين قائده بهاء الدين قراقوش فى بعثة تمكن فى أثنائها من فتح برقة وطرابلس والجزء الشرقى من تونس الحالية إلى قابس ، كان ذلك فى عام ١١٧٣هـ وبذلك أصبحت مصر والنوبة واليمن وشمال افريقيا جبهة واحدة (٢) .

التوجه إلى الشام

أصبح من الضرورى أن يتوجه صلاح الدين إلى الشام لمعالجة الموقف المتدهور هناك وانتهز فرصة الدعوة التى وجهت إليه للاستنجاد به من دمشق فتوجه مسرعا

---

(١) راجع فى ذلك مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ١٢٧ ، ص ١٢٨ والروضتين لأبى شامة ج ٢ ص ٢٧ ، والسلوك للمقريزى ج ١ ص ٧٩ ، ورحلة ابن جبير .

(٢) صلاح الدين ـ د/ جمال الدين الرمادى ص ٢٤ .



إلى هناك ، ولم يبال بالعقبات التى فى طريقه من قبل الإمارات والحصون الصليبية لقد اخترق الصحراء وهو على تمام الثقة بالله من أنه سوف يعينه وينصره ويخذل أعداءه . لقد وصل إلى بصرى واستقبله أميرها بالترحاب ثم زحف إلى دمشق فوصلها فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وبمجرد وصوله إليها ذهب إلى بيت والده فيها وأقام فيه ، واسترجع ذكرياته القديمة وملعب صباه هناك .

واستقبل صلاح الدين فى دمشق استقبالا طيبا ، وفتحت له أبواب القلعة وتسلمها ، ولم يكن هدف صلاح الدين من هذه الزيارة الاستيلاء على دمشق ، ولكن الهدف هو جمع الكلمة وتوحيد الصف العربى ، لأن هناك عدوا مشتركا يكيد للجميع بدون استثناء ، ولا يمكن الانتصار عليه بدون اتحاد .

لقد صرح صلاح الدين فى أثناء مقامه فى دمشق قائلا : لو استمرت ولاية هؤلاء القوم يعنى الأمراء المتنازعين ، تفرقت الكلمة وطمع الكفار فى البلاد ، وقال أيضا : إنا لا نؤثر للإسلام ، وأهله إلا ما يجمع شملهم ويوحد كلمتهم [(١)] .

وقال : أنا مملوك الصالح ، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه ، وللتدليل على ذلك أخذ يخطب له فى البلاد باسمه ، ويضرب النقود باسمه[(٢)] .

وأكد مرة أخرى على أن مجيئه إلى الشام ما هو إلا لحماية الصالح من أخطار الصليبيين ، ولاسترداد أملاكه التى استولى عليها أتابك الموصل فى الجزيرة . وأخذ صلاح الدين ينفذ سياسته فى إعادة الجبهة الإسلامية إلى سابق عهدها التى كانت عليه فى عهد السلطان نور الدين حيث كان يبسط نفوذه من شمال العراق إلى الشام فمصر، وبذلك يستطيع أن يجابه الصليبيين فى قوة وعزم .

وانتهز فرصة وجوده فى دمشق فأبطل ما جد بعد موت نور الدين مما كان قد

---

(١) مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ١٨ .

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١١٣ نقلا عن الكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

ألغاه فى حياته ، من ضرائب ومكوس وغير ذلك من المنكرات ، لقد أعاد صلاح الدين السيرة النورية كما كانت ، فلهج الناس بالثناء عليه ، وحمدوا الله على ما أذاقهم من نعمة على يديه .

وعين صلاح الدين أخاه إسماعيل سيف الإسلام طغتكين بن أيوب حاكما على دمشق باسم الصالح إسماعيل ، وقد سجل الشعر هذه الخطوة المباركة التى قام بها صلاح الدين فى دمشق فقال أبوالوحش سبع بن خلف بن محمد الأسدى الشاعر يمدح صلاح الدين فى قصيدة منها :

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا

لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا

رأيت جلق ثغرا لا نظير له ... فجئتها عامرا منها الذى خربا

نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا

أحييتها مثلما أحييت مصر ، فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا

هذا الذى نصر الإسلام فاتضحت ... سبيله و أهان الكفر والصلبا[1]

فى الطريق إلى حمص

ومكث صلاح الدين فى دمشق ريثما أقام ميزان العدل ، وأعاد الحق إلى نصابه وكانت كنوز القلعة وأموالها سلمت إليه حين سلمت إليه مفاتيحها فوزع ذلك كله على الفقراء والمحتاجين وأصحاب الحقوق ولم يحرز منها لنفسه أو لأحد من ذويه درهما واحدا ، حتى خرجت الجموع الشعبية تهلل له ، وتهتف باسمه ، وتدعو له أن يحفظه الله ذخرا للإسلام ، وعونا للدين وناصرا للشريعة ، ثم أخذ يؤكد مكاتباته السابقة لبقية الأمراء فى الأماكن المجاورة بضرورة الوحدة وإعادة الديار التى اغتصبوها لسيدها وابن سيدها الذى أسسها وهو الملك الصالح إسماعيل ، مذكرا لهم بأنه ما جاء إلى هنا إلا لجمع كلمة الإسلام وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد

---

(١) الخريدة ، للعماد الأصفهانى ـ قسم شعراء الشام ج ١ ص ٢٤٢ .

نورالدين وكف الأذى عنه [1] وقطع أطماع الطامعين فيه ولكن هذه المكاتبات لم تأت بصدى يذكر .

فاتجه إلى حمص ، واستطاع أن يفتحها ، ولكن قلعتها استعصت عليه فترك حولها من يحاصرها من جنده ، ويحفظ المدينة ويدبر شئونها ثم اتجه إلى حماه وكان عليها ،عز الدين جورديك ، وهو واحد من الأمراء الذين كانوا معه فى مصر ، ولم يرتضوا توليته الوزارة للعاضد ، وعادوا إلى دمشق ، وقد أراد جوديك منع البلد من صلاح الدين ومقاومته ولكن صلاح الدين أفهمه بأنه ما جاء مستعمرا بل جاء فى طاعة الصالح إسماعيل ليعيد إليه حقه ويحفظ عليه بلاده ، وقد اقتنع جرديك ففتح له أبواب حماه وأراد صلاح الدين أن ينتفع بجهود عز الدين جرديك فأرسله إلى حلب لإقناع حاكمها سعد الدين كمشتكين بتسليمها لأصحابها بدلا من الحرب التى لا تعود إلا بالخراب والوبال على البلدة وأهلها وحاكميها ، وكان سعد الدين هذا قد اغتصب البلد من حاكمها شمس الدين بن الداية ، وأودعه هو وأولاده السجن . ولكن سفارة عز الدين جوديك فى حلب لم تأت بنتيجة ، بل بالعكس ، لقد قبض كمشتكين على جوديك وأودعه السجن مع ابن الداية ولم يكتف بذلك بل راسل الفرنجة ليتقوى بهم ويساعدوه على الصمود فى وجه صلاح الدين ، وكان ذلك بعد أن استعان بعدو لدود لصلاح الدين هم طائفة الإسماعيلية الحشاشين الباطنية ، وزعيمهم فى ذلك الوقت هو راشد الدين سنان ، وطريقة هؤلاء واضحة هى الاغتيال والطعن فى الظلام .

وكان الملك الصالح إسماعيل فى ذلك الوقت مقيما فى حلب ولكنه لصغر سنه لم يستطع أن يفعل شيئا بل إن كمشتكين جعله تحت سيطرته حتى وافق على كل تصرف يقوم به ، موهما إياه أنه يعمل من أجله ومصلحته ، ولما علم صلاح الدين أن رسوله إلى حلب قبض عليه وأودع السجن وبالتالى فشلت وساطته أسرع إلى حلب ، وحاصرها حصارا شديدا ولم ينزعج المحاصرون فى الداخل انتظارا لما سوف يسفر عنه اتفاقهم مع الصليبيين والحشاشين .

---

(١) صلاح الدين ـ عبد الله ناصح علوان ص ٤٩ .

وكأن هؤلاء الحلفاء كانوا في انتظار هذه الفرصة فأسرعوا في اقتناصها وبدأ كل فريق من هؤلاء يفكر في الاستفادة منها على طريقته الخاصة محاولا تحقيق ما يرنو إليه من أهداف .

فحلب بالنسبة للصليبيين مركز استراتيجي لا يعوض واستقلالها يعني تفتيت الوحدة التي يريد صلاح الدين أن يقيمها والخلاص من صلاح الدين بالنسبة للإسماعيلية أمل طالما حلموا بتحقيقه لأنه هو الذي قضى على الخلافة الفاطمية التي ينتمون إليها ويستظلون بظلها .

اسباب أخرى وراء الاستعانة بالإسماعيلية

وأشار ابن أبي طي – فيما يرويه أبوشامة – إلى أسباب أخرى وراء استعانة أهل حلب بالإسماعيلية .

قال : كان لدى أهل حلب ميل شديد للإسماعيلية ، بل كانت مهدا لهم ومركزا من مراكز دعوتهم ، واستطاع نور الدين أن يقضي على نشاطهم وأن يبطل مذهبهم حتى مات نور الدين وقام ابنه مقامه .

فلما حاصر صلاح الدين حلب ورأى سعد الدين كمشتكين شدة الحصار خشي أن يميل أهل حلب إلى صلاح الدين فيساعدوه على احتلالها كما فعل أهل دمشق فأشار على الملك الصالح أن يطيب قلوب العامة ويستميلهم إليه فجمعهم في الميدان ، وأقبل عليهم بنفسه وخاطبهم قائلا : أنتم الوزر لي والملجأ الذي ألجأ إليه ، أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجئ إليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابكم عندي بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندي يحل محل الولد ، وخنقته العبرةوسبقته الدمعة وارتفع صوته بالبكاء فافتتن به الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا : نحن عبيدك وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنالك ، وأقبلوا بالدعاء له والترحم على أبيه . فأعجبه ذلك منهم ، فاشترطوا عليه أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة ، وأن يجهر في الأذان بجملة حي على خير العمل ، وأن يذكر في الأسواق ويتلى أمام الجنائز أسماء الأئمة الاثني عشر و أن يصلوا على

أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى رئيسهم المعروف بالتشيع «الشريف الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحسنى » وأشياء أخرى اشترطوها . وكان هذا كله قد أبطله نور الدين فى مدة حكمه .

فأجابهم الصالح إسماعيل إلى ذلك كله فحيى المذهب الإسماعيلى بعد أن كان قد مات وظهر التشيع مستعلنا بعد أن كان قد اختفى ولعل الأمل قد راودهم فى ظهور دولتهم من جديد ، ولكن ذلك لا يكون إلا إذا تخلصوا من هذا الذى قضى على هذه الدولة فى مصر ، ثم جاء برجليه إلى هنا ..

فلماذا لا ينتهزون هذه الفرصة و يستعينون بإخوانهم فى «مصياف » ليظاهروهم على التخلص من صلاح الدين ؟ لأنه لو نجح فى احتلال حلب لقضى عليهم مرة أخرى وأمات مذهبهم كما أماته من قبل نور الدين منذ سنين .

المؤامرة

ويروى لنا الدكتور عبد اللطيف حمزة أخبار هذه المؤامرة فيقول :

جمع الأمراء الحلبيون جمعهم ، وكادوا للناصر كيدهم ، والتفوا بالملك الصالح إسماعيل يستغلون طفولته وبراءته فى إثارة شعور المسلمين ضد صلاح الدين ثم طفق أولئك الأمراء الحلبيون يستعينون على هذا السلطان الكريم بجميع أعدائه فى بلاد الشام

وكان من أعدائه فرقةخطيرة تعتصم بالجبل ، وتبدو مصدر قلق دائم لهذا الرجل ، وهذه الفرقة الخطيرة المزعجة هى فرقة الحشاشين الذين يسمون أنفسهم بالإسماعيلية وتمت الموافقة بين أمراء حلب من جهة وأمراءهذه الفرقة الخطيرة المزعجة من جهة ثانية على اغتيال الملك الناصر صلاح الدين .

ودخلت جماعة منهم عليه فى خيمته التى كان بها ، ورفع القاتل السيف ليقتل به الناصر صلاح الدين ، وإذا بالعناية الإلهية تكشف عن هذه المؤامرة الغادرة .

فقد ألهم الله جنديا من جنود صلاح الدين ليمسك بتلك اليد الغادرة الآثمة فى الوقت المناسب ، فى نفس اللحظة التى هوت بالسيف على رقبة صلاح الدين وكادت تفصلها

فصلا عن سائر الجسد ، وخرج السلطان من خيمته إذ ذاك مضطرب القلب زائغ البصر يحاول التماسك أمام هذا الحادث ، وبعد برهة عاد إلى نفسه رويدا رويدا ، ثم اتجه بنظره إلى السماء ليشكر الله عى النجاة .

وفى هذه اللحظة مر بذهنه خاطر يقول : لأمر ما نجوت من هذا الحادث ، فعسى أن يكون القدر قد ادخرنى لأمر أرجو أن يتم على يدى ، وعجب الأمراء الحلبيون ، وعجب الناس معهم من أمر هذا السلطان الكبير كيف نجا من أولئك المردة الشياطين الذين ينظرون إلى أنفسهم وينظر الناس جميعا إليهم على أنهم سماسرة الموت وتجار الهلاك ، يصيبون به من أرادوا من الناس (١) .

وماذا عن الصليبيين ؟

ولم ييأس الأمراء الحلبيون ، فقد قالوا : لئن نجا صلاح الدين من براثن الحشاشين، فلن ينجو من براثن الصليبيين وأرسلوا إلى ريموند الثالث أمير طرابلس يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بثمن مغر إذا هو نجح فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين ، لقد أرادوا منه أن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يخفف الضغط عن حلب ويرفع الحصار عنها .

وكان ريموند يدرك أهمية التحالف مع حلب لقد كان بمثابة الوصى على عرش بيت المقدس والمسئول عنه بعد أن مات أمورى ملك بيت المقدس وزعيم الصليبيين فى الشرق ، وأسرع ريموند لنجدة كمشتكين أراد أن يعزز موقفه لتظل حلب مستقلة مفصولة عن بقية الشام ، حتى تقطع الطريق على الوحدة الإسلامية التى تراود خيال صلاح الدين ، تلك الوحدة التى تمتد من النيل إلى الفرات .

وحاول ريموند أن يفاوض صلاح الدين ليفك الحصار عن حلب فلم يفلح ، وفى هذه الأثناء أغار صلاح الدين على إمارة انطاكية الصليبية فغنم منها غنيمة كبيرة .

ورد ريموند على ذلك بأن هاجم حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ٧٦ ، ص ٧٧ .

منذ أمد قريب . ونجحت هذه الخطة مؤقتا فقد فك صلاح الدين الحصار عن حلب وأسرع إلى حمص لنجدتها ، فانصرف عنها ريموند إلى حصن الأكراد وفى نظير ذلك أطلق كمشتكين من كان فى حلب من أسرى الصليبيين ومن بينهم ارناط العدو اللدود للإسلام والمسلمين .

الاستعانة بأمير الموصل

وتوجه صلاح الدين إلى دمشق ، واستولى فى طريقه على بعلبك وأراد كمشتكين أن يؤلب الأمراء النوريين ضد صلاح الدين فأرسلوا إلى أميرالموصل سيف الدين غازى يستنجدون به وهو ابن عم الملك الصالح إسماعيل فأسرع سيف الدين بجيشه لنجدته وانضم هذا الجيش إلى جيش حلب .

وسار الجيشان معا إلى حماة ، وحاول صلاح الدين أن يفاوض هؤلاء بالحسنى حتى لا تراق دماء المسلمين بأيديهم ، وتتفرق الكلمة وقد جاء لجمعها فعرض عليهم أن يترك لهم حمص وحماه على أن يقنع هو بدمشق نائبا عن الملك الصالح فيها .

ولكنهم رفضوا هذا العرض ، فلم يجد صلاح الدين بدا من حربهم وقامت معركة عند حماه كان النصر فيها حليفا لصلاح الدين ، وتمكن من غنيمة كل ما معهم .

وزحف منها إلى حلب فاستولى عليها ، وقطع الخطبة عن الصالح إسماعيل بن نور الدين وأزال اسمه من فوق النقود .

ومع ذلك فقد أرسل أهل الصالح يلتمسون الصلح فأجابهم إلى ذلك وكانت هناك شروط للصلح أهمها أن يكون ما بيده من بلاد الشام ويكون لهم مابيدهم واستزاد منهم المعرة وكفر طاب واستولى بعد ذلك على بعض البلاد لقد أصبح الملك إسماعيل ملكا على حلب وما حول حلب .

وكان صلاح الدين فى منتهى الكرم فى معاملة هذه الأسرة فقد جاءت أخت الملك إسماعيل تطلب منه أن يتنازل لها عن قلعة إعزاز وكانت تحت يده ، فتنازل عنها بما فيها من مال وسلاح ، بل وهب لها كثيرا من التحف والجواهر إكراما لوالدها الملك العادل نور الدين . وأصبح يطلق على صلاح الدين منذ ذلك الوقت ملك مصر والشام.

عودة سيف الدين إلى الموصل هزيما

لقد جاء سيف الدين من الموصل طامعا ، وسولت له نفسه الانتصار على صلاح الدين ، ثم يحتوى بعد ذلك على ملك ابن عمه الملك الصغير فهو أحق من غيره من الأمراء . ولكن الأقدار حالت دون ذلك ، فحاقت به الهزيمة المنكرة مع جنود ابن عمه عند حماه فى التاسع من رمضان عام ٥٧٠ هـ ، وفر جنود الموصل أمام أسود صلاح الدين تاركين وراءهم أثقالهم وأسلحتهم حتى وصلوا إلى حلب ليحتموا بها ، فحاصرهم صلاح الدين فيها حتى استسلموا . وعاد سيف الدين إلى الموصل ليستعد لجولة أخرى ، ولكن صلاح الدين لحق به فتقابلا فى مكان يعرف « بتل السلطان » وسرعان ما انكشف سيف الدين ، وولت جنوده الأدبار ، و انتصر صلاح الدين عليه مرة أخرى انتصارا خاسما ، وتمكن من أسر كثير من جنوده ، ووقعت غنائمهم كلها فى قبضة صلاح الدين . وواصل صلاح الدين زحفه فاستولى على « بزاغة » ثم «منبج » ثم « عزاز » التى وهبها كما قدمنا للخاتون بنت نور الدين .

فى الطريق إلى مصر

بعد أن استقر الأمر على الصورة التى أوضحناها وقبل الأمراء الحلبيون شروط الصلح الذى تفاوضوا فيه مع صلاح الدين ، توجه صلاح الدين الذى أصبح بمقتضى هذا الصلح ملكا على دمشق وحمص وحماه والمعرة وما قارب هذه البلاد من المدن والقلاع ، ولم يبق فى يد الملك الصالح إسماعيل إلا حلب وما جاورها .

وفى الطريق إلى مصر أراد أن يثأر لنفسه من الطائفة الإسماعيلية الذين ائتمروا به وأرادوا قتله لولا أن الله أنقذه من أيديهم فاتجه إلى مصياف مقر الباطنية وحاصرهم فى قلعتهم ، ونصب المنجنيقات عليها ، وأصلاهم نارا حامية ، وأوسعهم قتلا وأسرا وساق أبقارهم وأغنامهم وخرب ديارهم .

فاستغاثوا بخال صلاح الدين شهاب الدين محمود الحارمى ، وكان قد عينه حاكما على حماة ، فشفع لهم الحارمى ، فتركهم . وعاد إلى مصر ، ولكن قبل أن نتركه يعود إليها لابد أن نشير إلى حدث مهم هو زواجه من أرملة نور الدين محمود ، وهى

الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر الذى كان حاكما على دمشق قبل أن يستولى عليها صلاح الدين ، ولئن كان هذا الزواج يعلله بعضهم تعليلا إنسانيا وهو المحافظة على حرمتها وصيانتها وعصمتها ، إلا أنه لا يخفى أن وراء ه هدفا سياسيا أيضا وهو التمكين لنفسه فى الشام ، وظهوره أمام الجميع بأنه الوريث الحقيقى لنور الدين ، وتقوية الرابطة بينه وبين هذا البيت النورى مما يدعم مركزه ، ويمكنه من تحقيق مشروعاته المستقبلة [1] .

الشعر يسجل انتصارات صلاح الدين فى الشام

ولم يفت الشعراء أن يسجلوا بأقلامهم هذه الانتصارات التى حققها صلاح الدين على هؤلاء الانتهازيين الذين أشعلوا الحرب لانصرا للإسلام بل تفتيتا للدولة ، وتمزيقا لأواصرها ، وتضييعا لما كانت قد حصلت عليه من هيبة فى نفوس أعدائها .

قال العماد الاصفهانى يهنئ السلطان صلاح الدين بانتصاره على أمير الموصل الذى استعان به أمراء حلب فهزم وهزموا معه :

فالحمد لله الذى إفضاله ... حلو الجنا على السنا وضاحه
عاد العدو بظلمه من ظلمه ... فى ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه ... فى قبضة البازى فهيض جناحه
حمل السلاح إلى القتال ومادرى ... أن الذى يجنى عليه سلاحه [2]

وقال يمدح صلاح الدين :

الملك مرفوع لكم مقداره ... والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتى بغير مرادكم ... فهل القضاء لأجلكم جريانه ؟
وكأنما لله فى أحكامه ... فلك على إيثاركم دورانه
فخرا بنى أيوب إن فخاركم ... بذ الملوك السابقين رهانه

---

(١) صلاح الدين ـ دكتور عبد الفتاح عاشور ص ١٢٢ .

(٢) الخريدة ـ شعراء مصر ج ١ ص ١٧ .

وقال ابن سعدان الحلبى يهنئ السلطان بانتصاره فى حلب :

وما شك قوم حين قمت عليهم ... غداة التقى الجمعان أنك غالب

ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى ... لنفسك فى نفس العدو مقانب[1]

حصوله على لقب السلطان

بعد هذه الأحداث الكبيرة أصبح من الضرورى أن يكون لصلاح الدين استقلال رسمي معترف به من قبل الخليفة العباسي ، بعد أن أعيته الحيل قبل ذلك في المحافظة على اسم نور الدين ، لقد أبى خلفاء نور الدين عليه أن يظل حاكما باسمهم ، وأساءوا الظن به واعتبروه دخيلا عليهم ، فى الوقت الذى نهبوا فيه المملكة ووزعوها فيما بينهم فصغروا من شأنها وأوهنوا من قدرها .

أما وقد ظفر عليهم ، وبسط يده على كثير من الإمارات أصبح من حقه أن تكون تبعيته للخليفة وحده ، وأن يحكم البلاد باسمه هو فقط لا باسم نور الدين ، ومن أجل ذلك فقد أرسل إلى الخليفة في بغداد يطلعه على سير الحوادث ، وعلى ما آل إليه الأمر، وقد أصدر الخليفة له بناء على ذلك مرسوما يقضى باستقلاله ، وأنعم عليه بلقب السلطان ، وخلع عليه بعض خلع تليق بمقام هذا اللقب .

وأصبح منذ هذه اللحظة يلقب بالسلطان ، وأصبح يدعى له على أعواد المنابر بعد الخليفة مباشرة .

* * *

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٦٥٤ ــ والمقانب جمع مقنب وهو الفرس القوى ، وهو المقصود فى الشطر الأول ، أما المقانب الثانية فهى الذئاب الضارية .

صلاح الدين والمهمة الكبرى

انتصار صلاح الدين على القوى المعارضة :

لقد رأينا أن صلاح الدين واجه قوى ثلاثا ، وقد وفقه الله تعالى فى التغلب عليها .

أما القوة الأولى فهى قوة الأمراء المنشقين فى الشام الذين حاولوا التهام الدولة النورية وتفتيتها ، والتهامها لقمة سائغة لهم .

وأما القوة الثانية فهى قوة الصليبيين الذين أرادوا أن يفيدوا من هذا الخلاف قدر استطاعتهم ، ويزدادوا تمكينا لأنفسهم ، وتحقيق مكاسب جديدة لهم .

وأما القوة الثالثة فهى قوة الإسماعيلية الحشاشين الذين كشروا عن أنيابهم لصلاح الدين بعد أن قوض الخيمة التى كانوا يستظلون بظلها فى مصر ، وأراد أن يمد سلطانه إلى الشام ليهدد نفوذهم فى الأماكن التى يوجدون فيها هناك .

خطورة الإسماعيلية

ولا ينبغى التقليل من شأن هؤلاء الإسماعيليين وقد سبق أن تحدثنا عنهم ــ ولكنا نضيف الآن ما يتعلق بصراعهم مع صلاح الدين ..

كان هؤلاء الإسماعيليين يقيمون فى مكان اسمه « مصياف » أو « مصياث » قريب من حلب وهذا المكان أصله حصن من حصون متعددة تحت سيطرة الإسماعيلية فى الشام ، وقد نزح هؤلاء الإسماعيليون من قلعة مشهورة باسم قلعة ألموت على قمة شاهقة يصعب ارتقاؤها فى جبال « ألبرز» على مسيرة يومين من الشمال الشرقى لقزوين ...

وكان زعيمهم فى هذا المكان اسمه راشد الدين سنان بن سليمان ، أصله من مكان بجوار البصرة ، وتعلم فى قلعة الموت ، ودان بتعاليم الإسماعيلية .

وكان هؤلاء يأتون بمنكرات فظيعة ، إلى درجة أن ثار عليهم أهل مدينة الباب الواقعة بين مدينتى بزاعة وحلب ، وأخرجوهم من منازلهم وطاردوهم إلى مكان سحيق .

كان أهم ما يمرنون عليه أنفسهم الاغتيال ، انتقاما ممن يخاصمهم أو يناوئهم فى عقيدتهم أو يقف فى طريق نشر مبادئهم واعتقاداتهم . وقد أوتوا من اللدد فى الخصومة والمقدرة على اللجاج والمناقشة قدرا كبيرا ، حتى إنهم ليستطيعون إفحام خصومهم بالباطل ونستشهد على ذلك بصورة خطاب أرسله زعيمهم راشد الدين سنان ردا على نور الدين قال ابن خلكان : والصحيح أنه رد على صلاح الدين ـ ولذلك نذكره هنا للمناسبة ـ كان قد وصله خطاب تهديد من أيهما فرد عليه بما يأتى :

يا للرجال لأمر هال مفظعه ... ما مر قط على سمعى توقعه

ياذا الذى بقراع السيف هددنا ... لا قام مصرع جنبى حين تصرعه

قام الحمام إلى البازى يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه ... يكفيه ما قد تلاقى منه إصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيالله العجب من ذبابة تطن فى أذن فيل ، وبعوضة تعد فى التماثيل ، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون ، وللباطل تنصرون ؟ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وأما ما صدر من قولك فى قطع رأسى ، وقلعك لقلاعى من الجبال الرواسى فتلك أمانى كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ، كم بين قوى وضعيف ، ودنى وشريف ، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة رسول الله ﷺ فى قوله : « **ما أوذى نبى ما أوذيت** » ، ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

ولقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت ، ويتقربون به إلى حياض الموت ، قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

وفى أمثال العامة السائرة : أو للبط تهددون بالشط ، فهيىء للبلايا جلبابا ، وتدرع للرزايا أثوبا ، فلأظهرن عليك مئك ، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز .

فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ومن حالك على اقتصاد ، واقرأ أول النحل وآخر صاد (١) .

وإلى أى كانت الرسالة لنور الدين أو صلاح الدين فهى تشير إلى اعتدادهم بأنفسهم ، وعدم مبالاتهم فى اغتيال الصوت المناهض لإخراسه إلى الأبد ، وهو أسلوب أفرزه قبلهم الخوارج واستعمله بعدهم الإرهابيون ....

ولقد رأى صلاح الدين بعد أن تجاسر عليهم فى حصاره لهم ، وإصابته فيهم قتلا وتحريقا وأسرا وتخريبا أن يقبل جانب الصلح والعفو عنهم استجابة لوساطة خاله فيهم وكانت هذه حكمة منه وسياسة فرضتها رغبته فى التفرغ لمهمته الكبرى ضد الصليبيين الآتية بعد .

والآن فهو فى طريقه إلى مصر ليمهد لهذه الجولة القادمة .

صلاح الدين فى مصر

فى يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة دخل صلاح الدين مصر عائدا من الشام ، بعد الأحداث الحافلةالتى تمت هناك فى خلال العامين الماضيين .

كان فى استقباله عند بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ أخوه ونائبه على مصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وكان فى صحبة صلاح الدين الكاتب الشهير العماد الأصفهانى ، وكان أول مرة يجئ إلى مصر ، وركب صلاح الدين ومن معه إلى القاهرة .. وأخذ ينظر فى أحوالها ويصدر عدة قرارات إصلاحية تتعلق بالاقتصاد والإنشاء والتعمير والاستعداد العسكرى للجهاد . ونرجئ الحديث عن هذا قليلا ريثما

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٢٢ .

نتحدث عن ضيف مصر القادم مع صلاح الدين وهو العماد الأصفهاني .

العماد الأصفهاني

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين حامد بن محمد بن عبد الله بن علي الملقب بعماد الدين الكاتب الأصفهاني ، وكان يطلق عليه : « أله » بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء وهو اسم أعجمي معناه بالعربي العقاب : طائر معروف ...

ولد العماد الأصفهاني بأصبهان في شعبان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقدم بغداد في حداثته ، وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الوزان المدرس بالمدرسة النظامية وسمع الحديث بهذه المدرسة من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام ، وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن جيرون ، وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي ، وأبي بكر أحمد بن علي بن الأشقر ـ وكلهم سادات أعلام مبرزون ـ وغيرهم .

وأقام بالمدرسة النظامية مدة حتى تخرج فيها ومهر في علومها واكتشف تقدمه ومقدرته الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة فقربه إليه وولاه النظر بالبصرة ، ثم بواسط . وبعد وفاة ابن هبيرة تعرض لبعض الاضطهاد كما تعرض غيره ممن كان يلوذ بهذا الوزير ، وضاقت به الأحوال ، حتى قرر الهجرة إلى دمشق ، عملا بنصيحة الشاعر : سافر ففي الأسفار خمس فوائد .. ، وكان سلطان دمشق إذ ذاك السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي ، وكان قاضيها وحاكمها ومتولي أمورها الرجل الفاضل القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكنيته أبو الفضل ، وكان نور الدين محمود يحبه ويحترمه ولا يخرج عن رأيه ، وكان على علم بأقدار الرجال ، فلما رأى عماد الدين عرف فضله وقربه .

واتصل العماد بوالد صلاح الدين الذي كان يعرف عمه العزيز من أيام قلعة تكريت فأحسن إليه وأكرمه ، وميزه عن غيره ، وأحب عماد الدين صلاح الدين حبا شديدا ، وأعجبه فيه شهامته ورغبته في الجهاد وحسن بلائه ، وقد توثقت الصلة بين

صلاح الدين وعماد الدين فى دمشق فى أثناء هذه الرحلة التى قام بها صلاح الدين بعد وفاة نور الدين ، وقد امتدح عماد الدين أفعال صلاح الدين هناك ، ثم لزمه وعاد بصحبته إلى مصر.

كان عماد الدين متهيبا وظيفة الكتابة فى أول الأمر حتى زينها له القاضى كمال الدين الشهرزورى ، وطلب من نور الدين أن يوليه ديوان الكتابة ، قال العماد : فبقيت متحيرا فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ، ولا تقدمت لى به دراية ، فمازال بى حتى حببها إلى ومارستها .. فلما مارسها هانت عليه وأجادها وأتى فيها بالغرائب والعجائب وحين اتصل بصلاح الدين أحبه ، وكان صلاح الدين ودودا ألوفا وقرب العماد إليه ، حتى أصبح صاحب سره وموضع ثقته .

وكان نور الدين يرسله فى الأمورالمهمة فينجح فى سفارته . أرسله إلى بغداد رسولا فى أيام الخليفة المستنجد ، ولما عاد عينه مدرسا فى المدرسة المعروفة باسمه فى دمشق ، وهى المدرسة « العمادية ، وكان الملك العادل نو رالدين محمود هو الذى أنشأ هذه المدرسة ، ولم يكن العماد أول من درس فيها ، ولكنها نسبت إلى العماد لأنه كان يسكن فيها ويتولى التدريس بها .

وظل مقربا عند نور الدين حتى توفى وتولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل ، واحتاطت بهذا الملك وكان صغير السن بطانة أفسدت الجو حوله وأساءوا إلى العماد الأصفهانى حتى أظلمت الدنيا فى وجهه ، وعزم على ترك الشام ، وأراد السفر إلى بغداد ، وتهيأ فعلا للسفر حتى وصل إلى الموصل ، فمرض بها مرضا شديدا وحين تماثل للشفاء كان صلاح الدين فى طريقه إلى دمشق فترك قصد بغداد وعاد إلى دمشق واستقبله صلاح الدين وهو يتسلم قلعة حمص فى شعبان سنة سبعين وخمسمائة ، فأنشده قصيدته التى امتدحه فيها ومنها :

وللناس بالملك الناصر الصلاح ... صلاح ونصر وخير
هو الشمس ، أفلاكه فى البلاد ... ومطلعه سرجه والسرير
إذا ما سطا ، أو حبا ، واحتبى ... فما الليث ؟ من حاتم ؟ ماثبير ؟

بيوسف مصر وأيامه | تقر العيون وتشفى الصدور
ملكت فأسجح ، فما للبلاد | سواك مجير ومولى نصير
وفى معصم الملك للعز منك | سوار ، ومنك على الدين سور
لك الله فى كل ما تبتغيه | بحق ظهير ونعم الظهير

ومن يوم ذاك لزم العماد صلاح الدين ملازمة الظل ، واعتمد عليه السلطان فى مهامه ، حتى أصبح من الصدور المعتمدين .

وكان القاضى الفاضل كاتب السلطان الأثير كثيرا ما يعهد إليه السلطان أمورا تفرض عليه التغيب أياما كثيرة ، فكان العماد ملازما بالحضرة يقوم بعمله خير قيام .

وقد ترك العماد الأصفهانى مؤلفات عدة تدل على سعة علمه وغزارة معرفته من ذلك كتاب : خريدة القصر وجريدة العصر ، وقد جعله ذيلا على كتاب أدبى مشهور اسمه : دمية القصر لأبى المعالى سعد بن الوراق الخطيرى ، والخطيرى جعل دمية القصر هذا ذيلا على كتاب ألفه الباخرزى اسمه : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، والباخرزى جعل كتابه هذا ذيلا على كتاب الثعالبى المشهور : يتيمه الدهر ، والثعالبى جعل كتابه هذا ذيلا على كتاب مشهور اسمه : البارع لهارون بن على المنجم .

ويشتمل كتاب العماد « خريدة القصر » على ترجمة الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة سواء أكانوا فى مصر أوالعراق أو الشام أوالجزيرة أوالمغرب ، وهو فى عشرة مجلدات وله من الكتب أيضا كتاب : البرق الشامى ، وهو كتاب تاريخ فى سبعة مجلدات ويتحدث عن تاريخ البلاد فى أثناء دولة نور الدين وصلاح الدين .

وله كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى ، فى مجلدين يتحدث فيه عن فتح صلاح الدين لبيت المقدس . وله كتب أخرى كثيرة نافعة تتناول الأدب والتاريخ والحديث ، وتراجم الرجال ، وله ديوان شعر ، وديوان رسائل ..

وكان يحب القاضى الفاضل والقاضى الفاضل يحبه ، جمع بينهما عشق الأدب وحب الفن . ولهما معا محاورات أدبية وطرائف كلامية يتوارث الناس روايتها لما فيها من فن وجمال :

فمن ذلك ما نقله لنا ابن خلكان قال :

لقى القاضى الفاضل يوما العماد راكبا فرسا فى الطريق فقال له : سر فلا كبا بك الفرس .

فأجابه القاضى الفاضل قائلا : دام علا العماد ..

والطرافة فى هذين التعبيرين أن كل جملة منهما تقرأ صحيحة ومقلوبة على السواء ، يعنى لو أنك نطقت بالجملة ابتداء من آخرها إلى أولها كانت كقراءتك لها من أولها إلى آخرها . والبراعة فى كل منهما أنهما جاءتا عفوالخاطر .

وكان للعماد قريحة جيدة وبديهة حاضرة ، ومما استشهد به ابن خلكان فى ذلك ما يقصه : ؛ كان العماد فى موكب السلطان صلاح الدين ذات يوم ومعه القاضى الفاضل وقد انتشر الغبار لكثرة الفرسان حتى سد الفضاء فأنشد العماد فى الحال قائلا :

أما الغبار فإنه ... مما أثارته السنابك

والجو منه مظلم ... لكن أنا رته السنا بك

يادهر لى عبد الرحيم ... فلست أخشى مس نابك

وقد اتفق له الجناس فى الأبيات الثلاثة ، فالسنابك الأولى تشير إلى أقدام الخيل ، والسنابك الثانية مكونة من كلمتين : السنا ـ بك ـ وفى البيت الأخير جاءت سنابك فى كلميتن إحداهما مضافة إلى الأخرى وهذا من طريف الجناس .

توفى العماد الأصفهانى ـ رحمه الله ـ فى رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وكانت وفاته فى دمشق ، ودفن فى مقابر الصوفية (١) . بعد أن ترك ثروة سخية من

---

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٦ ـ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠ .

الأدب والشعر والذكرى العطرة التى ما تزال تروى وتذكر فضله .

فترة استجمام

ورأى السلطان أن ينشط ذهنه وجسمه بعد الأحداث العنيفة التى جرت فى خلال العامين الماضيين ، فقام برحلة إلى الإسكندرية مصطحبا معه بعض أولاده وكان ذهابه إليها عن طريق دمياط ، وكان العماد يرافقه فى هذه الرحلة ولكنه لم يشأ أن يترك مسئوليته فى أثناء هذه الرحلة ، بل جعل مسئوليته هى همه الأول، وبذلك تحولت الرحلة من رحلة استجمامية إلى رحلة عملية تفقدية ، فقد تفقد ميناء دمياط، وأمر بإصلاحه وإعداده ليكون مستعدا لما عسى أن يقوم به العدو من مفاجآت، ثم رحل إلى الإسكندرية وتفقد الأسطول فأمر بتعميره وإصلاحه وتجديده ، وجمع له الأخشاب اللازمة والصناع المهرة ، وكان يباشر ذلك بنفسه حتى تمت إقامة المراكب فأمر بتجهيزها بالآلات اللازمة ، والأسلحة المتعددة ، و البحارة القادرين وأسند الإشراف على الأسطول إلى أحد أصحابه المتخصصين ، وأفرد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من اختيار رجاله الذين يقع اختياره عليهم ، أو مما يحتاج إليه من لوازم الأسطول، وأصدر أمره إلى هذا القائد ألا يبارح البحر .

كان قد توجه إلى الإسكندرية فى شهر شعبان ، وانشغل بالإصلاحات التى أشرنا إليها حتى دخل شهر رمضان فرغب فى أن يصوم الشهر فى الثغر واغتنم هذه الفرصة فأراد أن يتزود من العلم ، فلزم مجلس الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى، ومعه أولاده الذين اصطحبهم معه .

قال العماد الأصفهانى : وأدمنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت أى كل أسبوع طيلة شهر رمضان .

وهذا هو ما جعل المؤرخين يذكرون من أن من شيوخ صلاح الدين الذين تلقى عليهم العلم السلفى .

من هو السلفى ؟

والحافظ السلفى هو أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة الأصبهانى الملقب صدر الدين ، ونسب السلفى إلى جده إبراهيم سلفة ـ بكسر السين وفتح اللام وفتح الفاء ، ـ وهو لفظ أعجمى ، ومعناه بالعربية : ثلاث شفاه ـ جمع شفة ـ لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين ،

لقب بالحافظ لكثرة حفظه الحديث ، وكان قد رحل فى طلبه ، ولقى كثيرا من الشيوخ فى تحصيله حتى لقب بالحافظ .

كان من شيوخه الإمام المعروف : الكيا أبو الحسن على الهراسى الحجة فى الفقه ، والخطيب أبو زكريا يحيى بن على التبريزى الإمام فى اللغة ، وأبو محمد جعفر بن السراج ، وغيرهم من الأئمة المتقدمين ..

دخل الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة وكان قادما إليها من صور من بلاد الشام ، وأقام بها وقصده الناس من مختلف الديار لتقدمه وفضله ، وبنيت له مدرسة بالإسكندرية عرفت به وأشرف عليها . وبها كان يتلقى من يقصده العلم على يديه .. وتوفى الحافظ السلفى بالإسكندرية سنة ست وسبعين وخمسمائة ودفن بها عن عمر يقارب المائة [١] رحمه الله .

ولم يتم السلطان رمضان فى الإسكندرية كما كان قد عزم ولكنه عاد إلى القاهرة . قال العماد : وعدنا من الإسكندرية فى شهررمضان فصمنا بقية الشهر بالقاهرة ، والسلطان متوفر فى ليله ونهاره على نشر العدل وإنشاره وإفاضة الجود وإغراره وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره وإشاعة العلم والإعلان بأسراره وإبداء شعائر الشرع وإظهاره ، وإبقاء المعروف على قراره ، وإعدام أعلام الباطل وأنكاره [٢] .

وبعد أن عاد السلطان صلاح الدين إلى القاهرة أصدر تعليماته التى تقضى بكثير من الإصلاحات والإنشاءات التى سوف نتحدث عنها بعد .. إن شاء الله .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٣ .

(٢) كتاب الروضتين ج ٢ قسم ٢ ص ٦٩٠ .

وكان اهتمامه الأكبر موجها إلى التحصينات التى تقى البلاد شر العدوان ، وبناء الجيش الذى يمكن أن يقوم بحملة التطهير الواسعة التى ينوى عليها ومن هذه التحصينات أمره ببناء سور للقاهرة، وبناء القلعة التى ما تزال تحفظ اسمه إلى وقتنا هذا.

كان صلاح الدين يتوقع عدوانا جديدا من الصليبيين ، لأنهم غدارون لا يؤمن جانبهم، وهم ينظرون إلى الشرق عامة وإلى مصر بصفة خاصة نظرة كلها تطلع وجشع وحقد ..

حملة صليبية جديدة

وصح فعلا ما توقعه صلاح الدين ، فإن الصليبيين منذ وضع صلاح الدين رجله فى الشام ، و أصبحت سلطته تشمل معظم أجزائها لم يهدأ لهم بال ، ودارت مفاوضات بينهم على مستوى عال لتوحيد جهودهم ضد صلاح الدين ، وقد أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة إلى بيت المقدس تعرض على ملكها « بلدوين » الرابع إحياء فكرة القيام بحملة صليبية مشتركة لغزو مصر وعزز هذه السفارة لتكون جادة بإرسال أسطول بحرى إلى عكا قوامه سبعون سفينة حربية تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر . وفى الوقت نفسه قدمت إلى الشام سنة ١١٧٧ حملة صليبية صغيرة على رأسها « فيليب الألزاسى » كونت فلاندرز ولكنها لم تنجح ، كما لم ينجح مشروع الحملة الصليبية على مصر [١] .

غدر الصليبيين

كان هناك معاهدة بين صلاح الدين والصليبيين أبرمها معهم عندما كان محاصرا لحلب ، وكانت نصوص المعاهدة تقضى بعدم الاعتداء ولكنهم سرعان ما نقضوا العهد عندما علموا بعودة صلاح الدين إلى مصر ، فحدث منهم ما أشرنا إليه ..

ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم هاجموا دمشق نفسها . وكان على دمشق أخو صلاح الدين الذى استنجد بأخيه ، فأسرع صلاح الدين إلى نجدته .

---

(١) صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ .

معركة الرملة

سار صلاح السلطان مسرعا لينجد أخاه في دمشق ، وكان أول من التقى به في الطريق الأميرأرنولد المسمى عند العرب أرناط وهو صاحب حصن الكرك ، وقد التقيا في مكان اسمه الرملة في الطريق إلى دمشق .

ودارت معركة حامية لم يكن الفوز من نصيب صلاح الدين ، لأنه لم يكن على أهبة كاملة من الاستعداد ، وفرالجنود المسلمون وتفرقوا في الصحراء وأوشكوا أن يموتوا عطشا لولا أن أدركهم القاضي الفاضل بعدد من الرجال و الأزواد والمياه وأرشدهم إلى الطريق الصحيح للالتحاق بالجيش ، وتمكن العدو من أسر بعض الجنود المسلمين ، ومن بينهم الفقيه العظيم « عيسى الهكاري » الذى افتداه السلطان صلاح الدين بمال عظيم ..

وعاد السلطان إلى مصر حزينا لهذه الهزيمة التى مني بها ، ولكنها كانت درسا للمستقبل ، حتى لا يخرج إلى جهة ما بعد ذلك إلا على أهبة كاملة ومقدرة تامة .

إن الاعتماد على الشجاعة وحدها لا يكفي ، وقديما قال الحكماء : « إذا كان عدوك نملة فلا تنم له » .

سبب آخر للهزيمة

وكان سبب الهزيمة فيما يرويه ابن كثير في البداية والنهاية شبيها بما حدث للمسلمين في غزوة أحد . فقد قال : في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة كانت وقعة الرملة على المسلمين ، فقد سار السلطان الناصر صلاح الدين من مصر قاصدا غزو الفرنج ، فانتهى إلى بلاد الرملة فسبى وغنم ، ثم تشاغل جيشه بالغنائم وتفرقوا في القرى والمحال ، وبقي هو في طائفة من الجيش منفردا فهجم عليه الفرنج في جحفل من المقاتلة ، فما سلم إلا بعد جهد جهيد . ثم تراجع الجيش إليه واجتمعوا عليه بعد أيام ، ووقعت الأراجيف في الناس بسبب ذلك ، وما صدق أهل مصر حتى نظروا إليه ، وصار الأمر كما قيل : رضيت من الغنيمة بالإياب [١] .

ويصف لنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور هذه الموقعة فيقول تحت عنوان صلاح

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٧ .

الدين ومملكه بيت المقدس : أدرك صلاح الدين فشل المشروع الصليبى للهجوم على مصر ، فاتجه هو إلى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس ، فى الوقت الذى كان جيش تلك المملكة موجودا فى شمال الشام ليشارك فيليب الألزاسى فى هجماته على حماه وحارم .

وكانت حركة صلاح الدين خاطفة سريعة ليكسب الوقت قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال ... اتجه بسرعة نحو عسقلان ، ولم يلبث أن تحرج موقف مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل واضح ؛ إذ لم يكن فيها عندئذ إلا خمسمائة فارس ، ومع ذلك فقد أظهر ملكها بلدوين الرابع همة كبيرة رغم ظروفه الخاصة والعامة ، فخرج إلى عسقلان ومعه ما أمكنه جمعه من القادرين على حمل السلاح ، فضلا عن رجال الدين يحملون صليب الصلبوت ، ولكن بلدوين الرابع ارتكب غلطة كبرى عندما تسرع فى دخول عسقلان لأن صلاح الدين حصره هو وقواته داخل أسوار المدينة . ومن ثم أصبحت بقية مملكة بيت المقدس الصليبية دون ملك أوجيش وهكذا أخذت جيوش صلاح الدين تغير على المدن والمعاقل الصليبة القريبة ، ولما رأوا أن الفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان البلاد ، فأحرق المسلمون الرملة ، وهاجموا اللد ، حتى وصل الجيش الأيوبى إلى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس .

وفى الوقت الذى شغل المسلمون بالغنائم وانبسطوا وساحوا فى الأرض آمنين مطمئنين استطاع « بلدوين » الرابع أن يشق طريقه إلى خارج عسقلان بعد أن تأكد من ابتعاد صلاح الدين ، وسرعان ما اجتمعت حول ملك بيت المقدس فلول الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة ، وباغتوا قوات صلاح الدين ، ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالمسلمين عند تل الصافية واستطاع صلاح الدين نفسه النجاة بصعوبة ، وعاد إلى مصر فى حالة سيئة ، فوصل إلى القاهرة فى الثامن من ديسمبر سنة ١١٧٧ م وحلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج .

أما بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فإنه بعد أن وزع الغنائم على رجاله قام بمطاردة بقايا القوات الإسلامية حتى عسقلان ، ثم قفل راجعا إلى بيت المقدس ، حيث استقبل استقبال الأبطال [١] .

---

(١) صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

درس من الهزيمة

ولاشك أن صلاح الدين قد استفاد من هذا الدرس لقد أصبح لزاما عليه منذ الآن ، أن يلزم جانب الحذر ، وأن يكون على تعبئة تامة ، وأن يحسن اختيار ضباطه وجنوده وأن تكون الأوامر صارمة إلى الجنود بألا ينشغلوا عن واجبهم الأساسي وهو التنبه لمفاجآت العدو بالانشغال بثانويات المعركة وهي التقاط الغنائم .

وقد استطاع السلطان في مدة وجيزة من تعويض ما ضاع من أدوات الحرب واجتهد في فك الأسرى وجبر الكسير ، وتعزية أهل المفقودين وإجزال العطايا لهم ، وتوفير الجند وتدريبهم التدريب العالي ...

الفقيه عيسى الهكاري

كان من بين الأسرى الفقيه عيسى بن محمد الهكاري ، وكان معدودا من أعاظم المأسورين وترجع أهميته لا إلى موقفه العسكري ، بل إلى قيمته المعنوية المؤثرة في النفوس وهو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كان أحد الأمراء بالدولة كبير القدر ، وافر الحرمة ، معولا عليه في الآراء والمشورات ، وكان في مبدأ أمره يشتغل بالفقه في المدرسة الزجاجية بمدينة حلب ، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه ، وصار إمامه يصلي وراءه الفرائض الخمس ، واصطحبه معه إلى القاهرة ، وبعد وفاة شيركوه كان له الفضل في تولية صلاح الدين الوزارة بعده ، وقد حفظ صلاح الدين له هذا الجميل، واعتمد عليه في كثير من أموره ، ولم يخرج عن رأيه ، وكان الهكاري فقيها عالما خيرا يبذل جاهه ووقته في خدمة الناس حتى أحبوه حبا شديدا وأنزلوه في أنفسهم منزلة رفيعة وكان السلطان يصحبه في مواقعه الحربية تبركا به فكان يلبس زي الجنود ويعتم بعمامة الفقهاء جامعا بين اللباسين وقد بذل السلطان في افتدائه من الأسر مالا طائلا ولم يبخل بشئ في سبيل ذلك لأنه اعتبره أغلى من أي شئ في الدنيا وتوفي الهكاري سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالقدس الشريف (١) .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٥ .

إلى الشام مرة أخرى

لم ينس صلاح الدين ما حدث في الرملة ، ﴿وأسرها يوسف في نفسه﴾ وصمم على الانتقام من الصليبيين ، أولا لأنهم نقضوا العهد وخرقوا الهدنة وثانيا لأنهم هزموه في الرملة .

وشمر عن ساعد الجد في تحصين الثغور المصرية ، وبناء القلعة وسور القاهرة وكان قد عهد بهذه المهمة إلى بهاء الدين قراقوش ، وهو وزير عالى الهمة قوى العزيمة لا يكل ولا يمل .

وأخذ صلاح الدين يعد جنوده ويدربهم تدريبا عاليا ، وكان الصليبيون بعد انتصارهم في الرملة أوتل الصافية قد استشعروا القوة وقويت روحهم المعنوية واستعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد عدة هزائم كانت قد لحقت بهم قبل ذلك :

وأخذ « بلدوين » الرابع يحاكى في بيت المقدس ما يصنعه صلاح في مصر من حيث تحصين مملكته وتشييد القلاع فيها ، فبنى قلعة قوية بالقرب من « بانياس » عند بيت يعقوب في مكان يعرف بمخاضة الأحزان ، وسميت بذلك ، لأنها كانت في مكان يقولون : إن يعقوب ـ عليه السلام ـ انفرد فيه وأصبح يبكى على يوسف ـ عليه السلام ـ ولذلك سمى هذا البيت بيت الأحزان .

وكان هذا المكان له أهمية كبيرة لوقوعه على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى .

وقد وصف أبو شامة عظمة تشييد هذه القلعة وقوة بنائها بأنها أخذت من الأحجار السميكة القوية : فقد قطعت الحجارة من عظام الصخور كل قص منها سبع أذرع فما فوقها وما دونها ، وبلغت أعداد الأحجار التى استخدمت فيها عشرين ألف حجر ، كان عرض الحائط يزيد على عشر أذرع [1] .

وقد تحدث الناس عن قوة هذا البناء وعن أثره في تحكم الصليبيين واقتدارهم

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١ .

وتمكنهم من البلاد . ورغب بعضهم صلاح الدين فى هدمه قبل أن يتم ، ولكن صلاح الدين كان قد شغل عنه بما هو أهم ، وقال : إذا أتموه هدمناه إن شاء الله من أساسه ، وأزلناه من قواعده .

هجمات أخرى للصليبيين :

ولم يكتف الصليبيون بذلك بل كانت لهم اعتداءات أخرى فقد أغاروا على حماه ، ثم أغاروا على « شيزر » وتمكنوا من قتل بعض المسلمين وأسر بعضهم ، وإحراق بعض الدور والأماكن ، كان ذلك فى صيف ١١٧٨ م وبلغت هذه الأخبار إلى أسماع صلاح الدين ، فقرر العودة إلى الشام .. وبدأ بحصار مدينة بعلبك لينتزعها من ابن المقدم ، ويولى عليها ابن أخيه توران شاه ، لأنه يريد أن يوحد الجبهة ضد الصليبيين ، وهو لا يضمن هؤلاء الأمراء الذين طالما استنجدوا بالصليبيين ضد أصحاب البلاد .

وفى مدة هذا الحصار كان الصليبيون قد أتموا بناء قلعتهم المشار إليها والتى أصبحوا يطلقون عليها بيت الأحزان .

. وظهرت أهمية هذه القلعة بعد بنائها ، فقد أصبحت شوكة تقض المضاجع ، ولقد فكر صلاح الدين فى هدمها وفاوض الصليبيين فى ذلك ، ولكنهم طلبوا ما أنفقوه فيها من مال ، فعرض عليهم أن يعطيهم ستين ألف دينار ، ولكنهم رفضوا ، فرفع المبلغ إلى مائة ألف دينار ، ولكنهم رفضوا أيضا ، فترك المفاوضة فى ذلك ، وأرجأ أمر هذه القلعة إلى وقت آخر .

لقد قال له ابن أخيه : ابذل هذا المال لجنودك وهم يخربونه ، فوافق وتم ذلك على ما سيأتى بعد .

معركة قرب دمشق

وأخذ الصليبيون يتحرشون بجنود صلاح الدين ، فقد استشعروا كما قلنا القوة بعد معركة الرملة وغرهم الشيطان بذلك فأغاروا على الرعاة الذين خرجوا بماشيتهم إلى المراعى القريبة من « بانياس » كان ذلك فى سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ م

فخرج إليهم جنود السلطان بقيادة ابن أخى السلطان صلاح الدين ، وهو عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه .

وكان صلاح الدين حينذاك فى دمشق ، وأمر ابن أخيه أن يناوش هؤلاء المعتدين ويجرهم إلى أواسط البلاد ، ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه وكان « فرخشاه» حريصا على تنفيذ هذا الأمر ، إلا أن الصليبيين بقيادة « بلدوين » ملك بيت المقدس و « همفرى » صاحب حصن بانياس عاجلوه بالقتال فاضطر أن يقاتلهم ، ونصره الله عليهم نصرا مؤزرا فأمعن فيهم قتلا وأسرا ، حتى لقد قتل من ملوكهم « همفرى » صاحب حصن بانياس وكان من أكابر ملوكهم ومقدميهم وشجعانهم ، ونجا الملك الصليبى « بلدوين » الرابع ملك بيت المقدس بصعوبة بالغة بعد أن أصيب إصابة شديدة .

ولما جاء صلاح الدين تلقته جنوده عائدين بالرءوس على الرماح ، وبالأسرى مقيدين فى السلاسل وبالغنائم الكثيرة التى أخذوها من العدو . فحمد الله على ذلك ، ولكنه لم ينم ، بل عزم على مواصلة الجهاد حتى يستأصل شأفة هؤلاء الأعداء الغادرين .

موقعة مرج عيون :

أصبح مجاهدة الصليبيين الشغل الشاغل لصلاح الدين ، فقد شعر أنهم لا أمان لهم وأقام معسكرا قويا قريبا من تل القاضى غربى « بانياس » ووكل إلى ابن أخيه تقى الدين عمر بمراقبة العدو عند حماه تحسبا لاعتداء أمير انطاكية « بوهيموند » الثالث .

وكلف ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه مهمة الدفاع عن حمص وما والاها ضد هجمات الصليبيين المتوقعة بقيادة أمير طرابلس « ريموند » الثالث .

وجعل سيف الدين على بن أحمد المشطوب مسئولا عن مراقبة تحركات العدو فى سهل البقاع وما حوله .

وفى الوقت نفسه أرسل إلى أخيه الملك أبى بكر العادل نائبه على مصر أن يمده بالجيوش ، فأرسل إليه ألفا وخمسمائة فارس وأصبحت الشام خلية نحل لا تكف عن

الحركة والنشاط والترقب والاستطلاع .

ومن فوق ذلك كله كان السلطان صلاح الدين يتابع الأمر فى يقظة وحذر وأراد فى الوقت نفسه أن يؤرق جفن العدو ويثير همه ، فكان يركب كل يوم بحجة الخروج إلى الصيد والقنص ، ولكنه فى أثناء ذلك يجرد العساكر وقبائل العرب إلى « صيدا » و « بيروت » ليحصدوا غلات العدو ويجمعوا محصولاته (١) .

وأتت هذه الحملة ثمارها فعلا فقد اهتاج غيظ « بلدوين » الرابع وقرر أن يضع حدا لهذه الاعتداءات المتكررة فعبأ جيشه ، وجمع قواته ، وخرج ليجابه جيوش صلاح الدين فى مكان معروف بتل القاضى فى سهل واسع اسمه « مرج العيون » قريب من « بانياس » ودارت معركة عنيفة بين الجيشين فى مستهل سنة ٥٧٥هـ يونيو ١١٧٩م وكان النصر حليف صلاح الدين .

لقد نصره الله نصرا مؤزرا ، ومكنه من أن يقتل عددا كبيرا جدا من العدو ، ويأسر الكثير من وجوههم وأمرائهم وشجعانهم ، لقد بلغ عدد الأسرى فيما يذكره ابن كثير ثلثمائة أسير من أهل القدس فقط ، وأخذ السلطان صلاح الدين يستعرض الأسرى فى قيودهم إلى مطلع الفجر ، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء (٢) .

ثم أرسلهم صلاح الدين إلى قلعة دمشق ليعتقلوا فيها حتى يفدوا أنفسهم .

وقد فر يومئذ ملك بيت المقدس « بلدوين » الرابع بنفسه بعد معاناة شديدة ، وكان فى وسع صلاح الدين أن يتبعه ويحاصره ، ولكنه خشى من تجمع الصليبيين مرة أخرى حوله وبخاصة حين وفدت إليه وفود الحجاج الصليبيين الذين تقوى بهم فاكتفى فى هذه المرة بالتوجه إلى قلعة الأحزان أو بيت الأحزان ، وحاصره حتى تمكن من فتحه، ثم سواه بالأرض ، وغنم منه غنيمة هائلة .

ذكر المقريزى فى كتابه السلوك أنه أخذ منه مائة ألف قطعة حديد من أنواع

---

(١) مفرج الكروب فى أخبار دولة بنى أيوب ج ٢ ص ٧٤ لابن واصل الحموى .

(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٠٢ .

الأسلحة ، وشيئا لا يكاد يحصى من الأقوات وغيرها ، وأسر منه سبعمائة أسير . ثم أضرم فيه النار حتى كانت ألسنتها تشاهد من طبرية [١] .

ظفر آخر

قال ابن كثير : وفى الوقت الذى انتصرت فيه جيوش صلاح الدين على الأعداء فى موقعة مرج عيون ، كانت هناك معركة بحرية بين الأسطول الإسلامى وأسطول الفرنجة فى البحر كانت نتيجتها أن انتصر الأسطول الإسلامى انتصارا حاسما وتمكن من كسر الأسطول الصليبى وغنم المسلمون ألف رأس من السبى ، وعاد الأسطول إلى الساحل مؤيدا منصورا [٢] .

لقد خرج هذا الأسطول من مصر فى اكتوبر سنة ١١٧٩ م وسار فى طريقه إلى عكا حيث هاجمها هجوما عنيفا وكان يطلق عليها « قسطنطينية الفرنج » وضرب ضربته العنيفة التى أشرنا إليها [٣] .

بلدوين يطلب الصلح

وكان لهذه الانتصارات أثرها السئ فى نفوس الصليبيين ، إلى درجة أن ملك بيت المقدس « بلدوين » الرابع أخذ يسعى فى الصلح ويلح عليه .

وقد وجد صلاح الدين أن الحكمة تقضى بالاستجابة لطلبه خاصة وأن الصلح كان يشمله وحده ، مما يطلق يد صلاح الدين فى بقية الممالك الصليبية الأخرى ، بعد تحييد زعيم الصليبيين وعزله عن خوض المعركة ولو مؤقتا ، ويعتبر « بلدوين » الرابع هو أقوى ملك صليبى فى المنطقة ، وهم يأتمرون بأمره جميعا فالصلح معه يعتبر غنيمة أخرى لصلاح الدين تضاف إلى الغنائم المادية الأخرى .

---

(١) السلوك للمقريزى ص ٦٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٣٠٢ .

(٣) صلاح الدين د/ عبد الفتاح عاشور ص ١٣٣ .

معارك أخرى

فى الوقت الذى انتصر فيه صلاح الدين فى موقعة مرج عيون ، كانت هناك موقعة أخرى يرقب صلاح الدين نتيجتها ، ويحكى لنا ابن كثير أخبار هذه الموقعة فيقول :

كان الملك المظفر تقى الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة وتقى الدين هو ابن أخى صلاح الدين وكان نائبا على حماه ، كان مشتغلاً بموقعة أخرى أهم من تلك ، ذلك أن ملك الروم « فرار سلان » كان قد أرسل يطلب حصن « رعنان » وهو حصن حصين كان نور الدين قد استولى عليه ، وزعم هذا الملك أن نو رالدين اغتصبه منه وجمع جموعه ليستولى على هذا الحصن عنوة ، كان قد أرسل عشرين ألف مقاتل يحاصرونه .

ولكن صلاح الدين أرسل تقى الدين فى ثمانمائة فارس فقط منهم سيف الدين بن على بن أحمد المشطوب وأنزل الله النصر على هذه الفئة القليلة فهزمت الفئة الكثيرة بإذن الله و استقرت يد صلاح الدين على هذا الحصن الذى أراد الفرنجة استرداده .

وقد كان هذا الحصن مما عوض به صلاح الدين ابن مقدم عن بعلبك ، وأصبح تقى الدين يباهى أنه قهر عشرين ألفا ، لقد كانت هزيمة الفرنجة عند حصن «رعنان» فى اليوم الذى هزم فيه الفرنجة فى « مرج عيون » [(١)] .

وهكذا تظاهرت الهزائم على الصليبيين فى الوقت الذى تضافر فيه النصر لصلاح الدين **﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾**

كيف خرب بيت الأحزان ؟

ذكرنا منذ قليل أن صلاح الدين حاصر قلعة الأحزان التى كان الفرنجة قد شيدوها وأحكموا تشييدها .. وخربها .

أما كيفية تخريبها مع قوة تحصينها فهذا هو العون من الله ... لقد نقبه صلاح الدين من جميع جهاته وألقى فيه النار التى اشتعلت وارتفع لهبها وشوهد من أقصى

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠٣ .

الأماكن وكان قد غنمه أولا ونال منه كثيرا من السلاح والطعام وأخذ منه سبعمائة أسير ، وقد احتفل الشعر احتفالا كبيرا بهذا النصر المؤزر وتسابق الشعراء إلى امتداح السلطان وتهنئته بذلك الظفر من ذلك ما أورده ابن كثير فى كتابه حول خراب بيت الأحزان :

بجدك أعطاف القنا قد تعطفت وطرف الأعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الليل ثاقب وسيف إذا ماهزه الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهى ترجف
وما رجعت أعلامك البيض ساعة وإلا غدت أكبادها السود ترجف
أتسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أيمانها وهى تحلف؟
نصحتكم والنصح فى الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاءيوسف

ومن الشعر الذى قاله الشعراء فى معركة مرج عيون وانتصار السلطان فيها :

إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين سهل الله نصره فى الحزون(١)

عروض للصلح

ساءت حال الصليبيين جدا ، وتفاقمت الخلافات بينهم ، ورغبوا فى فترة من السلم ينعمون فيها بالراحة والأمن بعد تلك السنوات الطويلة التى لم يسمع فيها إلا صليل السيوف وقعقعة السلاح وأصوات النداء بالحرب ، وأخبار القتل والأسر والحرق والسلب والنهب .

إن الحرب معناها أعصاب مشدودة ، وعيون مؤرقة ، وأجساد مكدودة ، وأذهان غارقة فى التفكير ، وقلوب مشحونة بالهموم والأحزان لا فرق فى ذلك بين غالب ومغلوب ، أو بين منتصر ومهزوم .

---

(١) صلاح الدين د/ عبد اللطيف حمزة ص ٨٩ .

وقد استجاب صلاح الدين إلى طلب « بلدوين » الرابع ملك بيت المقدس حين رغب أن يهادنه ، فوافق على ذلك سنة ١١٨٠ م ، ثم استجاب لطلب « ريموند» الثالث حين رغب أن يهادنه فهادنه .

وكانت استجابة صلاح الدين من واقع إيمانه بالله الذى يقول لنبيه ﷺ **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾** [الأنفال : ٦١ ، ٦٢]

كان الصليبيون يريدون فى خلال هذه الهدنة أن يلتقطوا أنفاسهم ويدعموا مراكزهم ويقووا صفوفهم ويصفوا خلافاتهم .

ولم يكن صلاح الدين بأقل حاجة منهم إلى هذه الهدنة ، لقد انتهزها ليدعم فيها الجبهة الداخلية ، ويقوى حصونه فى مختلف الأماكن الإسلامية .

ولكن هذه الهدنة كانت بينه وبين ملكى بيت المقدس وطرابلس ، ولذلك فهو فى حل إذا ما هاجم غيرهما من الممالك الصليبية . ثم لم يلبث أن أبرم صلاح الدين معاهدة أخرى للصلح بينه وبين امبراطور « بيزنطة » « الكسيوس » الثانى ، وكان الامبراطور هو الذى طلب ذلك ، فقد أرسل سفيرا من قبله إلى صلاح الدين ووافق صلاح الدين على الصلح ، وأطلق البيزنطيون بمقتضاه مائة وثمانين أسيرا من المسلمين .. وتعهدوا بألا يمدوا يد المساعدة للصليبيين فى الشام فى حالة الحرب بينهم وبين المسلمين لو حدثت .

وقد تمت هذه المعاهدة فى خريف سنة ١١٨١ م ــ ٥٧٦ هـ وتفرغ صلاح الدين مؤقتا للإصلاحات الداخلية فى مصر والشام وأقبل على الثغور يتفقدها ويقوى تحصيناتها ، ويقوى الأساطيل البحرية ، ويعد الجنود ويدربها ، وعلى سبيل المثال نذكر أن السفن الصليبية التى لم تعاهده اعتدت على ميناء تنيس فى صيف سنة ١١٨١ م وأحدثت خسائر بالميناء ، فانتدب رجاله المختصين لعمارة قلعتها وتجديد حصونها وآلاتها ، وكذلك قام بترميم أسوار دمياط وإصلاح ما تهدم منها و ترتيب المقاتلين على أبراجها ، وإصلاح مآصرها وسلاسلها الحديدية وقد بلغت قيمة ما أنفق فى تعمير



دمياط ـ على ما يذكره المقريزى ـ ألف ألف دينار وكذلك فعل فى مختلف الديار .

أحداث مهمة فى الشام

الصالح إسماعيل يقتل كمشتكين :

وقد علمنا من سير الأحداث السابقة أن السلطان صلاح الدين حاصر حلب وفيها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ولكن حاكمها سعد الدين كمشتكين منعها واستعان بالصليبيين والإسماعيليين .

وهدأت الأحوال ، وحدث صلح بين صلاح الدين والصالح إسماعيل واستقر الأمر على ذلك فترة ، حتى جاءت سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٧ م ، وحدث خلاف شديد بين الصالح إسماعيل وسعد الدين كمشتكين أدى فى النهاية إلى مصرع الأخير وسبب هذا الخلاف أن الملك الصالح إسماعيل كان قد ولى كمشتكين على حصن حارم وفى الوقت نفسه ولى العدل بن العجمى بعض الأمور المهمة فى داخل الحصن ، فحدث نزاع شديد بين كمشتكين وابن العجمى ويبدو أن كمشتكين استعان على التخلص من ابن العجمى بواسطة الإسماعيليين الذين وثبوا عليه فقتلوه فى مسجد حلب يوم جمعة .

ولم يعد فى الحصن منافس لسعد الدين كمشتكين ، وذهب المتطوعون بالشروالإفساد إلى الملك الصالح يقولون له : ما قتل وزيرك ومشيرك إلا سعد الدين كمشتكين ، هو الذى استعان بالإسماعيلية فى التخلص منه ، ليخلو له الجو فى حارم ، ولا ينافسه أحد فى تدبير أمره .. ثم قالوا له : كيف يحدث هذا وأنت الملك صاحب الحصن ، وما سعد الدين إلا وال من قبلك ، فكيف يستبد بالأمر دونك ، ويتخلص ممن توليه معه بهذه الصورة الدموية الرهيبة ؟

وأوغروا صدر الملك الصالح إسماعيل على سعد الدين ، حتى قبض عليه ، وطلب منه تسليم قلعة حارم ، فأبى .

فما كان من الملك الصالح إلا أن علقه من رجليه منكوسا ودخن تحت أنفه فمات كان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥٧٢هـ وطمع الفرنجة فى حصن حارم بعد

مقتل كمشتكين ، وحدثت مناوشات بينهم وبين جند الملك الصالح وانتهى الأمر بتملك الصالح القلعة بعد رحيل الفرنجة عنها فى رمضان من السنة المذكورة .

وكان رحيلهم عنها بسبب تخوفهم من قدوم السلطان صلاح الدين إليهم حينما علم بنزولهم القلعة ، وقد ذكرنا هذه القصة لنشير إلى فساد الحاشية التى كانت تحيط بالملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وأنهم لم يكونوا معينين له على إصلاح حال البلاد وتقويتها حتى تقف فى وجه الطامعين ، ولكنهم كانوا هم الطامعين أنفسهم الذين عانت بهم البلاد أقسى أنواع المعاناة .

وفاة الصالح

وظل الملك الصالح فى قلق وتعب حتى حانت وفاته فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة / ١١٨٢ م

وقيل فى موته أقوال ، قالوا لقد دس له السم فى عنقود عنب فى أثناء قيامه بالصيد دسه له الأمير على الدين سليمان بن حيدر .

وقيل : بل دسه له ياقوت الأسدى فى شراب ، وسر صلاح الدين بوفاته وكان فى مصر فأسرع عائدا إلى الشام ، وكان الأمراء يحاولون اقتسام الغنيمة بعد موت صاحبها .

جاء عز الدين مسعود صاحب الموصل واستولى على حلب ، وهو ابن عم الملك الصالح ، وكان قد أوصى له ..

وزين له الحلبيون أن يستولى على دمشق أيضا فى غيبة صلاح الدين عنها فى مصر ، ولكنه رفض ذلك للصلح الذى كان قد تم قبل ذلك ثم صالح مسعود أخاه عماد الدين على أن يأخذ عماد الدين حلب ، ويأخذ مسعود سنجار ، واتفقا على ذلك .

صلاح الدين يستولى على حلب

تأزمت الأمور فى الشام بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل ، وكان قد أوصى لابن عمه عز الدين سعد صاحب الموصل لقوة سلطانه وتمكنه ، لقد رأى فيه أنه الوحيد

الذى يستطيع أن يمنع حلب من صلاح الدين مع أنه كان الأقرب إليه . هو ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار وهو زوج اخته وربيب والده ، ولكنه آثر الأول للسبب الذى ذكرناه .

وجاء عز الدين واستولى على حلب فى العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة ودخلها فى موكب ضخم ، وتسلم خزائنها وكل شئ فيها وحاول أمراء حلب إغراء عز الدين بالاستيلاء على دمشق فى غيبة صلاح الدين فى مصر ، ولكنه رفض لأن هناك معاهدة مبرمة بينه وبين صلاح الدين . وكانت هذه لفتة كريمة منه وبعد فترة جاءه أخوه عماد الدين صاحب سنجار وطلب منه أن يقاضيه فيأخذ هو حلب ويأخذ عز الدين سنجار وألح عليه فى ذلك ، فقبل ووصل إلى صلاح الدين خطاب من ابن أخيه تقى الدين عمر نائب حماه يفهم منه أن أمراء حلب يفاوضون الصليبيين ويراسلون الباطنية للقيام بتحالف ضد صلاح الدين .

كما بلغ صلاح الدين أيضا أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان صلاح الدين عن قصدهم [(١)] .

أصبح من الضرورى إذن أمام صلاح الدين أن يتوجه إلى الشام لمواجهة هذه الأحداث الجديدة وقال ابن كثير : حين سمع صلاح الدين بهذه الأحداث خرج سريعا، ووجد أن الموصل هو الأحق بالنزال لأنه هو المدبر لكل ذلك ، فعبر الفرات ، وحاصر الموصل ولكنها استعصت عليه ، ولم تجد السياسة والملاينة والشدة ، فتركها واستولى على الجزيرة بأكملها بما فيها الرها والرقة ونصيبين .

وسار صلاح الدين إلى حلب فحاصرها حصارا شديدا ، وصمد أهلها للحصار وقاتلوه وجرح أخو صلاح الدين تاج الملوك بورى بن أيوب جرحا بليغا مات على أثره بعد أيام ، وكان أصغر أولاد أيوب ، فحزن عليه صلاح الدين حزنا شديدا ودفنه بحلب ثم نقله إلى دمشق بعد ذلك .

---

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٠ .

وأخيرا فتحت حلب بعد أن طلب عماد الدين زنكى حاكمها أن يسلمها فى نظير أن يعطيه السلطان صلاح الدين عوضا عنها « سنجار » فوافق صلاح الدين ، وخرج عماد الدين منها إلى سنجار وأعطاه السلطان فوقها الخابور والرقة ونصيبين وسروج ، ولكنه اشترط عليه أن يجرد جنده مع صلاح الدين لمحاربة الفرنجة [١] .

وقد أبدى بذلك السلطان عن حقيقة أهدافه ، فإنه ما رغب فى ضم هذه البلاد إلا لتكون جبهة واحدة فى مواجهة العدو الغادر ، الذى لا يفى بشرط ولا يحافظ على عهد .

صلاح الدين فى حلب

مكث صلاح الدين فى حلب أياما بعد فتحها وتسلم قلعتها وكان غير مكترث لها فى أول أمره .

لقد تذكر صلاح الدين نور الدين ملك هذه الدولة التى كانت عاصمتها حلب الشهباء وكيف أبلى فى تأسيس دولته ذلك البلاء الحسن الذى ألهج الألسنة بالثناء عليه لقد تلا عند دخول المدينة قوله تعالى **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير﴾**[٢] .

وحين دخل إلى الملك فى المدينة تلا قوله تعالى **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديرا﴾** [٣] .

وحين دخل مقام إبراهيم فى داخل حلب صلى ركعتين وأطال السجود والتضرع والدعاء لله .

ثم شرع فى إقامة وليمة ، وضربت البشائر، وخلع على الأمراء ، وأحسن إلى

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص٣١٣ .

(٢) آل عمران : ٢٦ .

(٣) الأحزاب : ٢٧ .

الرؤساء والفقراء ووضعت الحرب أوزارها . وامتدحه الشعراء بقصائد حسان من ذلك ما قاله يوسف البراعي :

شرفت بسامي مجدك الشهباء وتجللتها بهجة وضياء
ألقت إليك قيادها ، وبها على كل الملوك ترفع وإباء

وقال أبو طي النجار من قصيدة يبين فيها مكانة حلب :

حلب شامة الشام وقد زيدت جلالا بيوسف وجمالا
هي أس الفخار من نال أعلاها تعالى فخامة ، وتغالى
ومحل العلاء من حل فيها تاه كبرا وعزة وجلالا
ومن حواها مملكا ملك الأرض اقتسارا : سهولة وجبالا(١)

ووقعت القلعة من صلاح الدين بموقع عظيم ، حتى قال : ماسررت بفتح قلعة أعظم سرورا من فتح مدينة حلب .

وأسقط عنها المكوس والضرائب ، وكذلك كان قد فعل في بلاد الشام ومصر (٢) .

مكانة حلب

وحلب مدينة عريقة قديمة ، تعد من أقدم مدن الدنيا ، ولعل الذين شيدوها هم الحبشيون ، وقد ذكرت في نصوص قديمة قبل مولد المسيح ـ عليه السلام ـ بقرون كثيرة .

وكانت في العصر الجاهلي قبل الإسلام يسكنها خليط من الشاميين والعرب البدو والتنوخيين ، وقد فتحها خالد بن الوليد في الإسلام في العام السادس عشر من الهجرة ، وكان تحت إمرة أبي عبيدة عامر بن الجراح ..

وأول مسجد أقيم فيها هو المسجد الغضائري ..

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ـ عبد الله ناصح علوان ص ٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٣ ، ص ٤١٣ .



وخضعت حلب لابن طولون ثم للإخشيد فى مصر ، ثم استقلت كولاية ومعها حمص تحت راية الحمدانيين ، وازدهرت فى عهد سيف الدولة الحمدانى ثم دانت بالولاء للفاطميين بعد ذلك .

ثم أصبحت تحت راية نورالدين زنكى الذى جعلها عاصمة لمملكته الواسعة ، ونظرا لأهمية هذه المدينة ومركزها القوى كانت مطمح أنظار الصليبيين طيلة مدة الصراع بينهم وبين المسلمين فى القرون الوسطى .

وقلعتها قديمة قائمة على أكمة طبيعية زادها أهل حلب وعورة ، ولها خندق عميق، وقد بنى فى أسفل القلعة مقام لإبراهيم الخليل عليه السلام وهو الذى صلى فيه صلاح الدين كما أشرنا سابقا .

ويقال : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان قد زار حلب فى رحلاته ، وأقام فى هذا المكان الذى أنشئ فيه المقام ، ويوجد به محراب بديع منحوت من الخشب وهو من أبدع نماذج هذا الفرع من الفن ، ويقال : إن المنبر المشهور الذى يوجد فى المسجد الأقصى ببيت المقدس كان قد أعد فى الأصل لهذا المقام .

ويوجد فى حلب مسجد جامع رائع يطلق عليه : مسجد زكريا نسبة إلى قبر من قبور زكريا عليه السلام ، وقد بنى هذا المسجد فى عهد سليمان بن عبد الملك الأموى على منوال المسجد الأقصى فى دمشق .

إن حلب تعد أعظم مدن سوريا بعد دمشق ، ولها تاريخ حافل بالمجد منذ فجر التاريخ حتى إنها لتدين بعودتها إلى الأزدهار إلى فتوحات الإسكندر الأكبر وإلى قيام مملكة السلوقيين فيها .

وظلت مزدهرة عامرة فى ظل الحكم الإسلامى حتى أصبحت عاصمة للملكة الحمدانية فكان لها نصيب من الثناء الذى أضفاه الرواة والمؤرخون على الأمير الحمدانى بسبب انتصاراته على البيزنطيين .

ومر على حلب ما يمر على غيرها من الممالك والدول ، ولكنها كانت تنهض من عثرتها لتواصل سيرها فى ركب التقدم والحضارة والازدهار .

وإلى حلب ينتسب كثير من الأعلام والنابغين فى مختلف العلوم والفنون ويكفى أن نذكر من هؤلاء نور الدين برهان الحلبى صاحب كتاب « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » المشهور بالسيرة الحلبية إلى جانب مؤلفاته الأخرى (١) .

ليس عجيبا أن يسجد صلاح الدين شكرا لله أن منحه حلب بعد هذا الصراع الطويل على امتلاكها .

وحين امتلكها امتلك حصن حارم الذى كان مطمح الصليبيين وكان استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها ضربة خطيرة موجهة إلى الصليبيين ، حتى لقد اعترف المؤرخ الصليبى فيما يحكيه الدكتور عبد الفتاح عاشور بأن ذلك كان أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنجة ، وذلك أن حصول صلاح الدين على حلب جعله أقوى حاكم معاصر فى الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال « طوروس » شمالا حتى النوبة جنوبا وكانت إمارة انطاكية بالذات أكثر الإمارات الصليبية تأثرا باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم ، لأنها أدركت أنه سيستغل هذه القواعد الجديدة فى الإغارة عليها (٢) .

الصليبيون يخطبون ود صلاح الدين

وفعلا وجد الصليبيون أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه فرغبوا فى مسالمة صلاح الدين ، ولو على الأقل لفترة يستعدون فيها للمفاجآت فما كان من أمير أنطاكية الذى أصبح يرتجف رعبا ــ على حد تعبير أبى شامة فى كتاب الروضتين ــ إلا أن يسارع باسترضاء صلاح الدين ، ويرسل إليه بجماعة من أسارى المسلمين ليظفر بأمانه (٣) .

وكتعبير عن حالة الرعب التى أصبح فيها الصليبيون اصطحب أمير انطاكية

---

(١) رجعنا فى هذه الصفحات إلى دائرة المعارف الإسلامية ج ١٥ ص ٢٨٩ وما بعدها ــ مادة حلب.

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٥٣ .

(٣)كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

بوهيموند الثالث أمير طرابلس ريموند الثالث إلى بيت المقدس للتشاور مع الملك بلدوين الرابع فى الموقف الجديد .

وكل ما استطاع أن يفعله ملك بيت المقدس أن يعقد هدنة مع صلاح الدين حتى يتمكن أميرأنطاكية من إحكام إجراءاته الدفاعية حول إمارته .

« لا سلكى » صلاح الدين

والسؤال الذى يراود الذهن هو كيف استطاع صلاح الدين أن يربط بين أجزاء هذه المملكة الواسعة ، فى وقت لم يكن فيه من المواصلات إلا الخيول والإبل ، ولم يكن هناك ما ظهر فى العصور الحديثة من أدوات الاتصال السريعة كالبرق والهاتف وما ظهر من وسائل المواصلات كالقطر والطائرات والسيارات والبواخر وغيرها ...؟

فكيف يتمكن صلاح الدين والأحوال العسكرية والسياسية ماسة من مراقبة المواقف ومخاطبة القواد ، وإرسال التكاليف ، وقد يوجد فى الطرق عقبات ومعوقات ؟؟

لقد تفتقت حيلته عن الاستعانة فى ذلك بالحمام ...

الحمام الزاجل ، إنه « اللاسلكى » الذى أعان صلاح الدين فى مهمته الكبرى ، ونهض معه فى القيام بالتكاليف خير قيام ، وكان متأسيا فى اتخاذه الحمام بسيده نور الدين ولنقرأ ما كتبه أبو شامة فى ذلك :

قال ابن الأثير : فى سنة سبع وستين وخمسمائة أمرالملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى ، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها فاتخذت فى سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الإفرنج .

وكان الفرنج ــ لعنهم الله ــ ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر بلاده ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بها راحة كبيرة ، و كانت الأخبار تأتيه لوقتها ،

لأنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر ، وسرحوه إلى المدينة التى هى منها فى ساعته ، فتنتقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين وهكذا حتى تصل الأخبار إليه ، فانحفظت الثغور بذلك ، حتى إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغرا له فأتاه الخبر ليومه ، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة ومفاجأة العدو ففعلوا ذلك ، فظفرو والفرنج كانوا يظنون أنهم قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم [(١)] .

وقد سار صلاح الدين على هذا المنوال ، بل وضاعف عنايته فى ذلك وطور طريقته فجعل أبراج الحمام على مراحل متقاربة ، بحيث يكون حمام حماه فى حلب وحمام دمشق فى حماه وحمص ، وحمام حمص فى حلب ، وحمام بصرى فى دمشق وهكذا .

أما أنحاء البلاد المصرية فقد ربطها بقلعة الجبل فى القاهرة بواسطة خطوط بعضها يتجه إلى الجنوب حتى قوص وأسوان وعيذاب ، وبعضها يتجه إلى الشمال حتى الإسكندرية ودمياط .

وربط بين الشام ومصر بخط جوى منتظم أعدت له مطارات ذات أبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من ثلاثة عشر ميلا تقريبا ، وأعد لهذه المطارات نظارا وحراسا يراقبون وصول الحمام ليلا ونهارا .

ولزيادة الاطمئنان كانت الرسائل المهمة تكتب من صورتين ، وترسل كل صورة مع حمامة ، وتطلق إحداهما قبل الثانية بوقت ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو صيدت أدت الثانية الرسالة التى تحملها .

وهكذا إذا كانت دولة صلاح الدين قد اتسعت فإنه كان مطمئنا إلى سهولة الاتصال بينها والإشراف عليها فكانت أخبار مصر تأتيه وهو فى دمشق وأخبار الشام تأتيه وهو

---

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة ج ١ قسم ٢ ص ٥٢٠ .

فى مصر أو فى أى جهة كان، وكان يستطيع وهو فى أى جهة أن يصدر أوامره وتعليماته فتصل على جناح السرعة إلى أى مكان يريد (١) .

خاصية الحمام

وكان الحمام يقوم بهذه المهمة لخاصية وضعها الله تعالى فيه ولكل مخلوق مزية وهذا دليل على قدرة الخالق جل وعلا ، وقد كتب العلماء فى وصف الحمام ما يلى :

الحمام من الطيور المنزلية التى تكاد توجد فى كل مكان ، وهو أنواع كثيرة لا تقل عن الخمسين نوعا .

وقد يهاجر الحمام من بلاد إلى بلاد ، فيكون سربا لا يقل عن عدة ملايين ، ولذلك يحجب ضوء الشمس عند مروره ، ويستمر مرور السرب نحو أربعة أيام متوالية بل أكثر.

والحمام سريع الطيران ، ومنه نوع يسمى بحمام البطاقة وبحمام الزاجل ، يستخدمه الناس فى نقل الرسائل ، وهو يقطع فى اليوم الواحد ألف فرسخ وأكثر ، وقد اعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث ، واهتم بأمره خلفاء المسلمين ، وفى مقدمتهم معاوية ابن أبى سفيان ، والمهدى ثالث الخلفاء العباسيين والواثق والناصر .

وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق فى أيام الدولة العباسية حتى لقد بلغ ثمن الفرد الفاره منها سبعمائة دينار ، بل ألف دينار وكانت بيضة الطائر المشهور بالفراهة تباع بعشرين دينارا ، وبلغ من عنايتهم بهذا الطائر أنهم اتخذوا دفاتر لأنسابه ، كما فعلوا بأنساب العرب والخيل .

وأول من نقل هذا الحمام من الموصل إلى مصر هو الشهيد نور الدين بن زنكى لنقل الأخبار بين ملوك الإسلام فى أيام الحروب الصليبية ، كان ذلك فى سنة ٥٦٥هـ(٢) .

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ عبد الفتاح عاشور ص ١٥٤ .

(٢) السمير المفيد فى شرح المواليد ـ إبراهيم ماجد ص ٤٩ ـ المطبعة الأميرية ١٩١١م .

توحيد الدولة

وهكذا كانت جهود صلاح الدين متضافرة نحو خدمة القضية الأساسية وهى تطهير الشرق الإسلامى من الوجود الصليبى الطامع .

ونقصد بالوجود الصليبي هؤلاء الصليبيين الذين جاءوا من أوروبا ليحتلوا الشرق الإسلامى طمعا فى ثرواته وإن كانوا قد تستروا ظلما وعدوانا باسم الصليب .

والشرق العربى يوجد به مسيحيون يعيشون إلى جوار إخوانهم المسلمين فى أمن وأمان يربط بينهم الحب والصفاء والمودة ، ولا يعجبهم هذا التدخل الأوروبى مستغلا اسم الدين استغلالا سيئا .

مؤتمر الوحدة الإسلامية

وكان صلاح الدين دائب التفكير فى تحقيق هدفه الكبير ، ولكنه رأى أن هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق وهناك من الأمراء المسلمين من لا يعضده ، بل إن منهم من يستعين بالصليبيين إن رأى ذلك دون غضاضة ..

ولذلك عقد عزمه على تأمين الجبهة الداخلية حتى يقف الحكام المسلمون جميعا صفا واحدا فى مواجهة عدوهم المشترك وفى ذى القعدة سنة تسع وسبعين وخمسمائة/ مارس ١١٨٤م وجه الدعوة لأخيه الملك العادل نائبه فى مصر لحضور مؤتمر إسلامى عقده فى دمشق لسفراء المسلمين ..

وأرسل الخليفة العباسى مندوبين عنه لحضور هذا المؤتمر هما شيخ الشيوخ صدر الدين و شهاب الدين بشير .

وأرسل أمير الموصل عنه القاضى محيى الدين الشهروزورى وبهاء الدين بن شداد، وأرسل حاكم الجزيرة معز الدين سنجر سفيرا عنه ، كما أرسل حاكم إربل ، وحاكم تكريت ، وأمير خلاط ، وحاكم زنجار وغيرهم من الحكام سفراء عنهم .

وحاول صلاح الدين فى هذا المؤتمر أن يقطع دابر الخلافات بين الحكام ، وأن يجعل الوئام والاتحاد يسود بينهم حتى يقفوا أمام عدوهم المشترك صفا واحدا ، وقد

رحب جميعهم بهذه الخطوة، إلا أن سفيرى صاحب الموصل شذا عن هذا الاجتماع ، وحدثت مناقشات حادة بينهما وبين صلاح الدين واستمرت هذه المناقشات فترة طويلة، وعاد السفيران إلى رئيسهما فى الموصل للتشاور وعادا مرة أخرى إلى دمشق دون طائل . . لقد ركب حاكم الموصل رأسه ورفض أن يمد يده للوحدة . ورأى صلاح الدين أن ذلك يعوقه عن عزمه فى جهاد الصليبيين فانتهز فرصة الهدنة التى عقدها معهم لتوطيد هذه الجبهة الداخلية .

لقد رأى أن الموصل هى زعيمة الانشقاق فأراد إخضاعها للوحدة بالقوة ، وفى إبريل سنة ١١٨٥ م هاجمها بقوة ، وحاصرها حصارا شديدا ، واستمر الحصار فترة طويلة دون جدوى لقد كانت أسوارها منيعة وأقواتها وافرة وقد فكر فى أن يحول عنها مجرى نهر دجلة ليخضع أهلها للتسليم ، ولكن تبين صعوبة تنفيذ هذا المشروع .

فعدل عن حصار الموصل ، وفكر فى العودة .

وعاد فعلا إلى دمشق ، ولكنه فى الطريق استولى على « ميافارقين » واضطر إلى اللجوء إلى حران لشعوره بالمرض ، وقد ألزمه هذا المرض الفراش ، حتى لقد خيف عليه من شدة وطأته.

وانتهز أهل الموصل هذه الفرصة فوسطوا لديه من حادثه فى أثناء المرض فى الصلح بينه وبين حاكم الموصل عز الدين بن مسعود .

وكان سبب هذه الوساطة أن حاكم الموصل كان يأمل فى أن الخليفة العباسى والسلاجقة فى بغداد سوف ينصرونه على صلاح الدين ، ولكنهم لم يجيبوه إلى ذلك فآثر مسالمة صلاح الدين على عداوته ..

وكان صلاح الدين رجلا رقيق القلب سهل القياد فاستجاب للوساطة وصالح صاحب الموصل على شرط أن يكون صاحب الموصل تابعا لصلاح الدين يخطب باسمه فى المساجد .

ووافق صاحب الموصل على ذلك فبقى حاكما على الموصل ، ولكنه فى الوقت نفسه تابع لصلاح الدين سلطان مصر والشام والعراق .



وصار يخطب لصلاح الدين فى جميع بلاد الموصل كما خطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضربت النقود باسمه (١)

وبمقتضى هذا الاتفاق الذى تم فى حران سنة ٥٨١هـ بين صلاح الدين وعز الدين صاحب الموصل تمكن صلاح الدين أن يحشد عساكر الموصل وسنجار والجزيرة وأربل وحران وديار بكر وغيرها تحت لواء واحد هو لواء صلاح الدين بعد أن كانت شيعا وأحزابا .

وبارك الخليفة العباسى المستضئ هذه الجهود وأرسل إلى صلاح الدين وفدا بتقليده كل ما تحت يده من إمارات ، وأفاض عليه وعلى وفده الذى أرسله إليه الخلع والهدايا والمكافآت .

ولقد عقدت الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها الأمل على صلاح الدين فى تخليصها من الصليبيين ، ورأت فيه المنقذ الوحيد الذى أرسله الله تعالى لها فى هذا الوقت لتتم على يديه المعجزة التى طالما انتظروها .. وكان هو عند حسن الظن والحمد لله .

* * *

(١) الناصر صلاح الدين ذ/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٧٤ نقلا عن النوادر لابن شداد ص ١٢٢ ومفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ١٧٢ .



خريطة دولة صلاح الدين

المعركة الفاصلة

أصبح الجو مهيئا بعد أن توحدت الجبه الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها تحت راية صلاح الدين ـ للقيام بمعركة فاصلة بينه وبين الصليبيين.

لقد نظر السلطان فإذا به يرى مملكته تمتد من برقة وما حولها من ناحية الغرب ، إلى اليمن وبلاد النوبة من ناحية الجنوب ، إلى ديار بكر والجزيرة وأرمينية من ناحيتى الشمال والشرق ..

وها هو ذا قد فرغ من أعدائه فى الشام ، وخضع صاحب الموصل له ، وها هو ذا الخليفة العباسى يخلع عليه ويدعو له بالنصر .

ثم هو يتلفت فإذا بالموارد المالية مكفولة بعد أن أصبحت مصر ودمشق وحلب فى قبضته ، وإذا بالصليبيين لم تعد لهم الشوكة التى كانت لهم ، وقد ضمن حياد البيزنطيين بعد أن أبرم معهم معاهدة أشرنا إليها فيما سبق وها هو ذا سلطان سلاجقة الروم يخطب وده ..

نظرة إلى الصليبيين قبل المعركة

خرج صلاح الدين من مصر فى طريقه إلى الشام فى الخامس من المحرم سنة ٥٧٨ هـ / مايو ١١٨٢م وكان ذلك آخر عهده بمصر ، فقد ظل فى الشام منذ ذلك الوقت يهيىء الظروف للمعركة الفاصلة وقد حدث فى أثناء ذلك ما أشرنا إليه .

لقد قضى زهاء خمس سنوات فى جهد جهيد حتى استقرت الأوضاع واتحدت الكلمة واجتمع شمل الأمة .

وكان صلاح الدين يقوم بين الحين والحين بحركة يجس بها النبض ، ويختبر بها قوة الصليبيين .

وقد حاول الصليبيون أن يسدوا الطريق أمام صلاح الدين ويحولوا بينه وبين دخول الشام ولكن خطتهم فى ذلك لم تنجح .

مناوشات

كان الملك « بلدوين » الرابع ملك بيت المقدس ، قد امتلأ غيظا من « ارناط » الذى شق عصا الطاعة عليه ، ورفض الانصياع لأوامره ولم يحترم المعاهدات التى كان يبرمها بينه وبين المسلمين ، فكان يخرقها بتصرفات حمقاء تؤدى إلى أسوأ النتائج .

وأراد « بلدوين » وضع خطة تهدف إلى ضرب عصفورين بحجر كما يقول المثل ، وذلك أنه أعد جموعا كثيفة من الجند تتظاهر بأن تسد الطريق على صلاح الدين حتى لا يذهب إلى دمشق ، ومهمتها الحقيقية تأديب أرناط لمخالفته ملك بيت المقدس ...

وقد فسدت هذه الخطة ، لأن صلاح الدين قد احتاط أولا فلم يجعل طريقه من جهة الكرك التى عسكرت فيها قوات الصليبيين بل اتجه إلى أيلة على خليج العقبة وتنبه أرناط كذلك فلم يصطدم بجنود « بلدوين » واستطاع صلاح الدين فى طريقه أن يتجه من أيلة إلى إقليم الشوبك حيث دمر فى طريقه حقول القمح الكثيفة التابعة للصليبيين.

إغارة على عكا وطبرية

وانتهز نائب صلاح الدين فى دمشق وهو ابن أخيه « فرخشاه » هذه الفرصة فأغار على عكا وعلى طبرية ، ولم يجد مدافعين يصدونه ، فقد كان جيش الصليبيين برمته يرقب قدوم صلاح الدين عند حصن الكرك ليصده عن دخول الشام ..

وبذلك عاد فرخشاه من حملته هذه بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم بالإضافة إلى استيلائه على مواقع مهمة مثل « شقيف أرنون » ، وعبر فرخشاه نهر الأردن إلى الضفة الشرقية لبحيرة طبرية فأغار على حصن هناك اسمه « حبيس جلدك » فاستولى عليه بعد حصار دام خمسة أيام فقط ، وأقام به جندا من المسلمين ، وبذلك أصبح عينا لهم بعد أن كان عينا للصليبيين (١) .

وفى أوائل ربيع الأول من هذا العام ٥٧٨ هـ ١١ من يوليو سنة١١٨٢م خرج السلطان صلاح الدين إلى سهل الأقحوانة عند خروج نهرالأردن من بحيرة طبرية ،

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ .

فعسكر هناك ، وترك ابن أخيه فرخشاه يغير على إقليم الغور حول بيسان ، ثم هاجم معه حصن كوكب ، ودارت معركة عنيفة استشهد فيها بعض جند السلطان ، وقتل فيها كثير من الصليبيين ولكن المعركة انتهت لصالح المسلمين .

وقد أغارت قبائل الأعراب على «جينين» و«اللجون» «وسهول يافا» فغنموا كثيرا، وأتعبوا الصليبيين [1] .

محاولة لاحتلال بيروت

وأراد صلاح الدين الاستيلاء على بيروت ، وكان هدفه من ذلك أن يفصل بين ممالك الصليبيين حتى يشتت جهودهم ، وكانت خطته أن يهاجم بيروت برا وبحرا فأرسل إلى أخيه العادل فى مصر أن يرسل أسطولا يهاجم بيروت من البحر ، فى الوقت الذى جمع هو جنوده فى إقليم البقاع لمهاجمتها برا ..

وتمت الخطة كما رسم صلاح الدين وفى الوقت نفسه هاجم العادل ببعض قوات أرسلها « الدارم » «وعسقلان » ليشغل الصليبيين عن نجدة بيروت .

وشدد صلاح الدين هجومه على بيروت برا وبحرا ولكن الأسطول الصليبى تنبه للأمر وأسرع بنجدتها ، فى الوقت الذى أظهرت فيه بيروت صلابة شديدة ، ومقاومة قوية ، حتى طال الأمر فآثر صلاح الدين فك الحصار بعد أن سبى وغنم كثيرا .

وأصدر أمره برجوع الأسطول إلى مصر استعدادا لما هو آت ...

لقد كان الهدف من كل هذه المناوشات هو اختبار قوة الصليبيين ومدى استعدادهم، ولم يرد صلاح الدين أن يدخل معركة فاصلة لأن الوقت لم يحن لذلك بعد ..

كما أنه يريد أن يشتت جهودهم ويرهق أعصابهم عن طريق الحملات التى يقوم بها هنا وهناك فى أماكن متفرقة وبعيدة أحيانا ، تستغرق منهم وقتا وجهدا وتكبدهم خسائر كثيرة .

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٧٨ هـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٠ .

مرض ملك بيت المقدس

استطاع صلاح الدين أن يستولى على بيسان وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ سبتمبر ١١٨٣ م ثم عسكر فى عين جالوت وأرسل جنوده يغيرون على الأماكن القريبة .

وخرجت إحدى دورياته لهذا الغرض فإذا بها تلتقى بإمدادات كثيرة موجهة من الأردن والكرك والشوبك إلى جيوش المملكة فاصطدمت بها وقتلت كثيرا من الصليبيين وأسرت عددا كبيرا ، وهرب الباقون فى الجبال ، وقدر ابن كثير الأسرى بمائة أسير ، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد عاد فى آخر اليوم [١] .

وفى خلال هذه الظروف الحرجة التى ألمت بالصليبيين مرض الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مرضا شديدا ، وكان قد كبرت سنه ووهن عظمه ، وعجز تقريبا عن الحركة . .

واجتمع حوله أمراء الصليبيين فى محاولة لإنقاذ المملكة وحمايتها وعقدوا مجلسا حول فراش الملك المريض وفوض الملك صهره «جاى لوزجنان» وصيا على المملكة يديرها نيابة عنه وولاه قيادة الجيش .

وقد رأى المؤرخون أن هذا الاختيار جانبه التوفيق لضعف شخصية هذا الوصى وبلادته ، ووصفه بعض مؤرخى الصليبيين أنفسهم بأنه لم يتحل بأى صفة من صفات الفروسية والحكمة فى معالجة الأمور [٢] .

ومما يدل على عدم لياقته لإدارة المعارك ، وسوء تقديره للأمور أنه حينما تولى قيادة الجيوش الصليبية فكر فى مواجهة المسلمين ، وتحرك على رأس جيوش المملكة وعسكر فى موقع اسمه « الفولة » وهى قرية قريبة من عين جالوت .

ولم يجرؤ « جاى لوز جنان » على مهاجمة جيش صلاح الدين حين رأى ضخامته

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣١٤ .

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٦٣ .

وكان جيش صلاح الدين معسكرا فى عين جالوت أيضا ، وظل الجيشان وجها لوجه ، وكان فى إمكان صلاح الدين أن يحرمهم من موارد المياه القريبة ولكنه لم يفعل ، بل تركهم يأخذون حاجتهم من الماء لأن أخلاق الفروسية تمنعه من حرمانهم من الماء ولم يرد أن يناوشهم مبتدئا واكتفى بأن شن إغارات على مواقع صليبية أخرى كان يغنم منها .

كان هدفه تشتيت آرائهم وجهودهم واستدراجهم ليبدءوا فى قتاله .

ولكن تردد جاى لوز جنان وضعفه منعه من القتال وعاد الصليبيون بجموعهم خائفين وجلين ، وتبعهم ببعض جيشه يقتل ويأسر ويخرب ديارهم وحصونهم وأبراجهم .

حصار الكرك

وكان حصن الكرك فى الأردن بين مصر والشام والحجاز ، وهو موقع استراتيجى دقيق ، يقطع الطريق بين هذه الأماكن فلا يستطيع المتوجه من مصر إلى الشام أو الحجاز أن يمر إلا بخفارة قوية وحراسة شديدة وكذلك الأمر بالنسبة للعائد إلى مصر . وكان أمير هذا الحصن هو ارناط الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى كان يسبب كثيرا من المتاعب للصليبيين أنفسهم ، وكانوا يسمونه بالفارس اللص وكان يقطع الطريق على القوافل الذاهبة من مصر والآتية إليها .

وفى أواخر سنة ١١٨٦م وأوائل سنة ١١٨٧م هاجم قافلة كبيرة متجهة من القاهرة إلى دمشق وصادر ما تحمله من خيرات وأمتعة ثمينة وكانت هناك هدنة معقودة بين صلاح الدين و الصليبيين فى ذلك الوقت ، ووفقا لهذه الهدنة كانت القوافل تمر فى صحراء الأردن دون خوف .

ولكن لصوصية هذا الأمير أبت عليه إلا أن يخرق هذه الهدنة ، ويفسد الجو بين المسلمين و الصليبيين، فاعتدى على هذه القافلة وصادر ما فيها وألقى برجال القافلة فى السجون وأخذ فى تعذيبهم .

وحاول صلاح الدين أن يحل هذه المشكلة بالسلم أولا فأرسل إلى أرناط يقبح ما عمله ويطلب منه الإفراج عن الرجال ورد الأموال ولكن أرناط أبى أن يجيب .

وبدلا من أن يقول كلمة تدل على لباقة الحاكم وإنسانية الفارس تكلم بقحة وسفه ورد على رسل صلاح الدين يقول : قولو لمحمد يخلصكم [١] .

ولما وجد صلاح الدين إعراضا من جانب ارناط أرسل إلى الملك جاى لوز جنان وصى العرش يخبره بما حدث ويطلب منه الإفراج عن الرجال والمال .

ولكن ارناط لم يأبه بطلب جاى لوز جنان أيضا وأصر على موقفه ورفض أن يعيد شيئا مما اغتصبه .

فلم يكن بد أمام صلاح الدين من محاصرة الكرك .. وأقسم بالله لئن أظفره الله بأرناط ليقتلنه بيده جزاء وفاقا لسوء أدبه .

وأخذ فى تعبئة الجيوش واستدعائها من مختلف الجهات . وعندما اكتملت تعبئة الجنود غادر دمشق فى مستهل المحرم سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة مارس ١١٨٧م فى بحر زاخر من الجيش متجها إلى الجنوب حتى وصل إلى الشمال الغربى من حوران عند مكان يطلق عليه : رأس الماء .

وفى هذا المكان ترك ابنه الأفضل لتجتمع عنده الأمراء وواصل سيره نحو بصرى لحماية قوافل الحجاج الآتية من الحجاز حتى لا تتعرض لاعتداءات الغادر أرناط .

وما إن اطمأن صلاح الدين على سلامة الحجاج العائدين ووصولهم إلى الطريق الآمن لديارهم حتى بدأ فى حصار الكرك . فتقدم إليها فى اثنى عشر ألف فارس فأحاط بها وقطع أشجارها ثم قصد الشوبك وفعل بها مثلما فعل بالكرك .

وكان أرناط قد أعد نفسه على أساس أنه يقطع الطريق على قوات صلاح الدين القادمة من مصر ، ولكن صلاح الدين أفسد خطته .. فقد تقدم بنفسه إلى الأمام ليتلقى قواته ، وأصبح أرناط محصورا فى قلعة الكرك .

---

(١) مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ١٩٤ .

وأخذت الأمداد تتوالى على رأس الماء عند الأفضل ابن صلاح الدين فيأخذ فى تنظيمها وإعداد لكل منها دورها .

تفتيت جبهة الصليبيين

وعمل صلاح الدين على تفتيت جبهة الصليبيين، ولذلك حرص على ألا يحارب فى جبهة واحدة حتى يوزع جهودهم ويشغلهم عن توحيد صفوفهم ردا على تعبئته قواته .

وأمر رجاله فى حلب أن يصالحوا أمير «أنطاكية» «بوهيموند» الثالث وهدفه من ذلك أن يفرغ باله مع العدو فى جانب واحد كما قال ابن شداد فى النوادر السلطانية .

وفى الواقع كانت أحوال الصليبيين سيئة للغاية ، فقد كان هناك خلاف شديد نشب بينهم . كان ملك بيت المقدس قد مات وخلفه على عرش المملكة وصيه بولدوين الخامس وكانت أمه سيدة كبيرة يرد ذكرها كثيرا فى الأساطير الأوروبية المتصلة بالحروب الصليبية ، واسمها «سيبيلا» وكان ابنهاالملك طفلا فكفله ريموند ملك طرابلس ، وباسمه أبرم مع السلطان صلاح الدين صلحا مدته أربع سنوات من سنة ١١٨٥ ـ إلى سنة ١١٨٩ م

ثم مات الطفل ، وبقى الوصى عليه مكانه ، حتى اقترنت سيبيلا بملك آخر توجته على القدس ملكا .

وكانت حاشية هذا الأخير لا تحب «ريموند» فتركهم وعاد إلى مملكته طرابلس . واستمرت العداوة بين « ريموند » وبين الملك الجديد للقدس وازدادت هوة الخلاف بينهما حتى استعان «ريموند» بصلاح الدين ضد غريمه ملك بيت المقدس الجديد وقد رحب صلاح الدين بهذا النداء الموجه له من « ريموند » ولكنه رفض الدخول مع الفرنج فى حرب حتى تنقضى مدة الصلح الذى كان مبرما بينهما .

وعقد أمراء الفرنج اجتماعا رأسه ملك بيت المقدس وحضر الاجتماع «أرنولد» صاحب الكرك الذى يسميه العرب أرناط وتداولوا الآراء فيما بينهم وكان من رأى ملك بيت المقدس ألا يحاربوا صلاح الدين حتى تنتهى الهدنة . ولكن أرناط هاجم هذا الرأى، ونادى بضرورة الإسراع فى حربه وفسخ الهدنة التى بينه وبين صلاح الدين

وعلى الرغم من عدم موافقة ملك بيت المقدس على ذلك إلا أن أرناط من جانبه نقض الهدنة ، وهاجم قافلة المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك [1] .

ووصل أمر الخلاف بين الأمراء إلى درجة أن فكر في مهاجمة «ريموند» أمير طرابلس وطبرية ووافقه على هذه الفكرة فرسان الداوية .

وهكذا تأزم الموقف بين الصليبيين أنفسهم .

صلاح الدين يهاجم عكا

وبطل هذه المهاجمة فارس إسلامي اسمه « مظفر الدين كوكبورى » أمير إربل ، وكان قائدا شجاعا اختاره صلاح الدين لاستطلاع عكا واختبار قوة العدو تمهيدا لفتحها، وسير معه القائدين الكبيرين : قايماز النجمى ودلدرم الياقوتى ، فساروا ليلا تحت جنح الظلام ونزلوا على صفورية وهى من أعمال عكا فى الصباح [2] .

وكان تحت إمرة هؤلاء بضعة آلاف من الجند ، وكان لكى تصل هذه القوة إلى عكا لابد من أن تخترق إقليم الجليل الذى يسيطر عليه «ريموند» الثالث أمير طرابلس وطبرية والجليل ، فاستأذنه صلاح الدين فى ذلك وكان بينه وبين أمراء الصليبيين خلاف كما قدمنا .

وأصبح «ريموند» فى موقف دقيق لأنه بحكم تصالحه مع صلاح الدين يجب عليه أن يسمح له ، وإذا سمح له فإنه يكون على حساب زملائه الصليبيين .

ولم يجد «ريموند» مفرا من السماح لهذه القوة بالمرور وفى الوقت نفسه أصدر أوامره لكافة المدن الصليبية الواقعة فى إقليم الجليل بأن تغلق أبوابها حتى لا يستولى عليها المسلمون.

وما إن علم الصليبيون المقيمون فى عكا بوصول المسلمين إلى مشارف المدينة حتى خرجوا إليهم لردهم عنها ، وكان أكثرهم من فرسان الداوية والاسبتارية وهؤلاء من أقوى المحاربين الصليبيين وأصبرهم على القتال ، فالتقوا وجها لوجه مع مظفر

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) مظفر الدين كوكبورى لعبد القادرأحمد طليمات ص ١٥٣ ـ سلسلة أعلام العرب.

الدين وجنوده ودارت معركة عنيفة تشيب لها المفارق السود على حد تعبير ابن الأثير[1] ، ومازال المسلمون والصليبيون فى كر وفر ، وضرب وطعن حتى تفوق المسلمون على عدوهم ، وأنزلوا بهم هزيمة منكرة ، فضلا عن أنهم قتلوا عددا كبيرا من قوادهم ، فسقطوا صرعى بين أيديهم ، ولم تكن فرحة المسلمين بالنصر بقدر فرحتهم لقتل زعماء الداوية والاسبتارية فقد كان فرسانهم « جمرة الفرنج » وطالما وجد المسلمون منهم النكاية والجهد[2] .

وعندما أسرعت قوة الصليبيين إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت فأسر المسلمون تلك النجدة وعادوا بها سالمين غانمين وهم يحملون رءوس أعدائهم على أسنة الرماح[3] .

كان هذا النصر مقدمة خير لما بعدها قال أبو شامة : كان باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات .

الفرنجة يتصالحون

أظهرت معركة عكا هذه حقيقة الموقف أمام الصليبيين وأدركوا مدى قوة المسلمين ووحدتهم ، ولذلك تناسوا خلافاتهم وأسرعوا ليضعوا أيديهم فى يد ملك بيت المقدس على الرغم من عدم رضا كثير منهم عنه ، ونقض «ريموند» الثالث أمير طرابلس العهد الذى أبرمه مع صلاح الدين ، وأخذوا يجمعون صفوفهم للزحف نحو صلاح الدين ، واختاروا جميعا صفورية القريبة من عكا مكانا يجمعون فيه قواتهم ويحشدون فيه أساطيلهم ..

وما أن علم صلاح الدين بأن «ريموند» نقض عهده معه حتى سارع إلى اقتحام طبرية وإحراقها ماعدا قلعتها الحصينة التى استعصت عليه ، فلم يشأ أن يضيع وقته حولها .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٧٥ .

(٢) مظفر الدين كوكبورى ص ١٥٤ .

(٣) الكامل لابن الأثير ج٩ ص ١٧٥ ـ حوادث سنة٥٨٣ هـ .

هدفه من مهاجمة طبرية

ولم يكن هدف صلاح الدين من مهاجمة طبرية هو مجرد الانتقام من «ريموند» الثالث الذى نقض العهد ، ولكن كان وراءه هدف أبعد هو إجبار الصليبيين على ترك الموقع الذى اختاروه فى صفورية والزحف وراءه فى الموقع الذى يختاره هو .

وقد عبر عن ذلك صراحة أبو شامة فى كتاب الروضتين : قال : فما رأى السلطان أنهم لا يبرحون ، ومن قرب صفورية لا ينزحون ، نزل على مدينة طبرية ، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها ، فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد فى استئصالهم[1] .

وقد نجحت فعلا خطة صلاح الدين فقد ثارت ثائرة الصليبيين المجتمعين فى صفورية وعقدوا اجتماعا فى عكا لبحث الموقف وتشاوروا حول ماحدث ، وقد أبدى بعضهم رأيه حول ضرورة الزحف نحو طبرية لمواجهة صلاح الدين .

ورأى بعضهم ومنهم « ريموند » الثالث خطورة هذه العملية لأن الطريق شاق والماء قليل وأيد وجهة نظره بأن المسلمين لن يلبثوا أن يعودوا من طبرية لأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا بعد الاستيلاء عليها ، وأن موقفهم الآن فى صفورية أفضل لو هاجمهم المسلمون فيه بعد ارتدادهم عن طبرية .

ولكن الأخرق« أرناط» ثار ضد «ريموند» ودعا إلى ضرورة مواجهة المسلمين فى طبرية . ويبدو أن تحمسه ذلك كان يخفى وراءه رغبة فى إثبات بطولة زائفة أمام زوجة «ريموند» التى استنجدت به بعد أن اقتحم المسلمون طبرية وألجأوها ومن معها إلى الاحتماء بالقلعة مع أولادها وحاشيتها ، وطلبت منه أن يهجم على جنود صلاح الدين[2] . وانصاع «ريموند» لرأى المتهور «أرناط» وكانت موافقته على الرغم من صحة وجهة نظره ، ليدرأ عن نفسه تهمة ممالأة صلاح الدين وقد أخذت هذه التهمة تحاصره ، لأن البلد الذى يهجم عليه صلاح الدين بلده ، ومع ذلك هو يكف الصليبيين عن الذهاب إليه هناك .

---

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) صلاح الدين الأيوبى ـ د/ جمال الدين الرمادى ص ٣٢ .

وعلى أى فقد تحرك الصليبيون جميعا نحو طبرية ، وحاولوا أن يقطعوا موارد المياه عن صلاح الدين وجنوده ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك لشدة حيطة صلاح الدين وحسن تدبيره .

وحين أقبلت هذه الحشود على طبرية كان صلاح الدين قد أشعل فيها النيران فتركها حطاما . وساعدت عوامل الطبيعة صلاح الدين ، وعاونته على إرهاق العدو وإتعابه ، فقد كان الجو شديد الحرارة ، والشمس كأنها نار حامية فعملت عملها فى الصليبيين حتى لقد خارت قواهم فى الوقت الذى أحاط بهم صلاح الدين بجنوده حتى ألجأهم إلى التقهقر نحو حطين . حيث تكون المعركة الفاصلة التى سوف تقضى عليهم إلى الأبد بإذن الله .

مكان الموقعة

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية : حطين بكسر الحاء وتشد يد الطاء المكسورة ـ قرية فوق بحيرة طبرية وإلى الغرب منها فى سهل خصيب ، يقوم فى حده الجنوبى قرن جبلى وعر من حجر الجير وفى كل من الطرف الغربى والشرقى للقرن قُنَّة أكثر منه ارتفاعا تعرف بقرون حطين .

وهناك رواية عرفت فى القرن الثانى عشر ـ وإن كان أصلها غير ثابت تقول : إن قبر النبى شعيب ـ عليه السلام ـ فى هذه القرية .

وتقع القبة التى أعيد بناؤها حديثا ، والتى يزورها الدروز كل عام فوق مرتفع فى واد صخرى عند القنة الغربية وقد نشبت فى الهضبة الحزون ـ الصعبة ـ التى إلى الجنوب الشرقى من القرن الصخرى وقعة شتتت شمل الصليبيين ، ذلك أن صلاح الدين انتصر فى هذا الموضع انتصارا كبيرا على النصارى فى الخامس من يوليو سنة ١١٨٧م .

وتفصيل الأمر أن جيوش الفرنجة برح بهم الحر والظمأ ثم قتل بعضهم وفر البعض الآخر ، وارتدت بقيتهم إلى القنة الشرقية حيث كان السلطان صلاح الدين قد طوح بعدن كبير منهم على سفحها الجنوبى الوعر .

وأراد هذا السلطان المظفر أن يخلد ذكرى ذلك الانتصار فبنى على القنة قبة

عرفت بقبة النصر [1] . هذا ما ذكرته دائرة المعارف باختصار .. ولكن لهذه المعركة التى خلدها التاريخ تفاصيل لابد من ذكرها .

ولنا ملاحظة على قوله « انتصر على النصارى » وهو لفظ لا يرد إلاعلى لسان المتعصبين الذين يصورون أن المعركة حدثت بين المسلمين والنصارى ، وفى الواقع أن المعركة دارت بين المسلمين والمستعمرين الذين جاءوا يتسترون باسم الدين ، ويزعمون زورا وبهتانا أنهم جاءوا للمحافظة على بيت المقدس ..

والدليل على ذلك أن المصريين جميعهم والسورين جميعهم هبوا لدفع هؤلاء الغزاة، لا فرق بين المصرى المسلم والمسيحى ، ولا بين السورى المسلم والمسيحى ..

لقد كان نفير الجهاد موجها لجميع المواطنين ، لا فرق بينهم من حيث الوطن ولا من حيث العصبية القومية أو الدينية ، كلهم يريدون هدفا واحدا هو جلاء هؤلاء الغزاة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الصليبيين .

ومن هنا لا يعجب التاريخ حين يرى أقباط مصر ومسيحيى الشام لا يمدون أيديهم للفرنج ولا تصدر عنهم إشارة واحدة تدل على ميلهم إلى الفرنج.

وأى مصلحة للقبط أو نصارى الشام فى شئ من ذلك ؟ وهم إنما يريدون سلامة أوطانهم ونجاة إخوانهم ورجوع الفرنج إلى بلادهم فهى أولى بهم من بلاد الشرق العربى [2] .

بدء المعركة

واختار صلاح الدين المكان ... بل أحسن اختيار المكان ....

لقد تحقق هدفه البعيد من زحفه على طبرية والإغارة عليها .. وهو إجبار خصومه على ترك صفورية المكان المريح الآمن . إلى مكان صعب يقاسون فيه المشقة والأهوال .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ١٥ ص ١٤٥ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٠٦ .

وقد لعب تهور «أرناط» وإعجابه بنفسه وغروره دورا كبيرا فى ذلك .. وعلى الباغى تدور الدوائر دائما .

وفى أوائل يوليو سنة ١١٨٧ م بدأ الصليبيون يزحفون على طبرية فى ظروف بالغة القسوة : الجو حار ، والشمس حارقة ، والطريق شاق ، والمعونات هابطة ، بل تكاد تكون منعدمة .

وكان صلاح الدين قد أقام بجنوده وقد سبقهم من الفراغ من أمرطبرية إلى السهل الممتد والظل والماء .. وأخذوا يدربون أنفسهم وجيادهم على اقتحام المعركة الفاصلة .. وكان تدريبهم عمليا فى صورة انطلاق فرق منهم فى تقدم سريع نحو الصليبيين الزاحفين إليهم للإغارة عليهم فينالون منهم .

وبعد مشقة شديدة كان الصليبيون قد وصلوا إلى سطح جبل طبرية المشرف على سهول حطين وهى منطقة كما يقول المؤرخون على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر ولها قمتان يطلقون عليها اسم قرون حطين ، كأن القمتين اللتين فى الهضبة بالنسبة لسهل حطين قرنان ، وهو تشبيه دقيق . وعسكر الصليبيون فوق هذه الهضبة التى بلغوها بمشقة بالغة وتعب شديد واشتد بهم العطش ، ولا ماء فى المكان الذى وصلوا إليه .. لقد غلب صلاح الدين على الماء الوفير الذى يوجد فى قرية حطين أسفل الهضبة .

كان عليهم أن يواصلوا زحفهم حتى ينزلوا من الهضبة ، ولكنهم كانوا قد بلغوا حدا من الإعياء حال بينهم وبين ذلك فقرروا قضاء ليلتهم حتى الصباح يبكون من شدة الإعياء والعطش .

وترامت إليهم أصوات المسلمين من بعيد تهلل وتكبر ، وهم يتحرقون شوقا للقاء المنتظر والنداء بالجهاد ، والتبشير بإحدى الحسنيين يتصاعد من حناجر الخطباء الذين يثيرون المشاعر ويذكرون بالله .

وفعلت هذه الأصوات المترامية فعلها فى نفوس الأعداء إلى جانب ما وصلوا إليه من جهد وإعياء . فى الوقت الذى كانت هذه الأصوات ترفع من معنويات المسلمين



وتزيدهم تصميما على تصميم ، وإقداما على إقدام .

وتحت وطأة العطش الشديد حاول بعض الصليبيين التسلل إلى منابع الماء ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فقضوا عليهم قبل أن يصلوا إلى غرضهم ، وكان فى طريق الماء كثير من الأشواك والأعشاب الجافة التى تصل إلى الهضبة ، فأشعل فيها المسلمون النارفسرعان ما تصاعدت ألسنتها تشوى الوجوه ، وتحملها الرياح المتجهة إلى الصليبيين فتصليهم نارا وتلفح وجوههم وأجسامهم ، فاجتمع عليهم نار الحريق ونار العطش ونار الجو إلى جانب نار الحرب والقتال .

وقضى الصليبيون ليلة ليلاء لا يكاد يظهر لها صبح ، وهم فى كرب عظيم .

ورتب صلاح الدين تحت ستار الليل صفوفه فما أن أشرق نهار يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الثانى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة من الهجرة ــ الرابع من يوليو سنة سبع وثمانين ومائة ألف من ميلاد المسيح عليه السلام ــ حتى كان المسلمون قد أحاطوا بالصليبيين إحاطة السوار بالمعصم أو الحبل بالعنق ، وهذا تشبيه أقرب إلى الصواب .

واستمات المسلمون فى القتال ، ورغبوا فى الشهادة ، ونظروا إلى الجنة تبرق أساريرها إليهم فتشوقوا إليها ، وأقبلوا على أعدائهم إقبال الأُسْد على فرائسها ، وتصاعدت من حناجرهم صيحات التهليل والتكبير التى زلزلت كيان الأعداء وأرجفت الأرض تحت أقدامهم ، فانهزموا من داخلهم قبل أن ينهزموا . وانطلقت سهام المسلمين نحوهم تحصدهم حصدا ، وطلبوا الفرار فلم يجدوا منفذا ، لقد سدت فى وجوههم طرق النجاة ، وأغلقت أمامهم وسائل الحياة .

الوحيد الذى استطاع الفرار من هذا الجحيم ريموند صاحب طرابلس ومعه بعض رجاله لقد نجا بنفسه من هذا الهلاك الذى أوشك أن يحيط به ، وكان ذكيا أدرك أنه لا فائدة من المقاومة أو البقاء . وقد أعانه على الهروب تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، وجده يلتمس طريقا إلى الهروب هو ومن معه ففتح له ثغرة نفذ منها ثم أغلقها بعد فراره وظلت السيوف تعمل فى هؤلاء الطغاة عملها ، وظلوا يجرون والمسلمون

يتبعونهم ، وهم يتراجعون صاعدين فى الجبل وياله من مأزق شديد حتى سقط منهم صليب الصلبوت الذى كان يحمله أسقف عكا وسقط معه ، وكان هذا نذير شؤم عليهم، واستولى المسلمون على هذا الصليب واحتفظوا به .

وفنى الصليبيون أوكادوا فى هذه المعركة على كثرة عددهم .. ولم يبق إلا ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسمون من الفرسان فقبض عليهم المسلمون جميعا ، وساقوهم إلى خيمة السلطان صلاح الدين وهم فى منتهى الإعياء والتخاذل .

وحين جاء ملك بيت المقدس إلى مجلس صلاح الدين فى خيمته أحسن استقباله ، وأجلسه إلى جانبه وقد كاد العطش يهلكه ، فأمر له بكوب من الماء المثلج .. وقدمه إليه صلاح الدين فشرب منه فناول الملك ما تبقى من الإناء «لأرناط» فشرب .

عندئذ صاح صلاح الدين غاضبا : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى حتى يناله أمانى ..

لقد كان من عادة العرب أنهم إذا تناول عدوهم طعامهم وشرابهم أمن بذلك (١) .

وقد غضب صلاح الدين لأن «أرناط» هذا طالما أساء إلى الإسلام والمسلمين ، وكان يسخر منهم ومن دينهم ومن نبيهم ويقول بلهجة التشفى والازدراء حين يظفر بأسرى المسلمين : ادعوا محمدا ليخلصكم منى ، ولذلك نذر صلاح الدين أن يقتله بيده لو ظفر به .

وأقبل صلاح الدين على «أرناط» يذكره بجرائمه التى اقترفها وأخيرا قال له : هأنذا أنتصر لمحمد ﷺ وأطاح رأسه بيده ، وأراح الناس من شر هذا الأمير السفيه البذىء . لقد أخذ صلاح الدين يستعرض كبار أسراه ، فإذا منهم «جاى لوز جنان» و « جرار دى ريدفورت» مقدم الداوية ورئيس الاستبارية وصاحب الرملة وصاحب حصن جبيل ، وابن صاحب طبرية وغيرهم من ملوك الفرنج ورءوسهم ، وأصحاب الكلمة النافذة فيهم .

لقد كثر الأسرى إلى درجة أن الرجل الواحد من المسلمين كان يستطيع بحبل خيمة أن يجر وراءه من الأسرى نيفا وثلاثين لا يمنعونه ولا يقاومونه لشدة ما أصابهم من

---

(١) الكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

الخذلان والخيبة فى ذلك اليوم وكان قد قتل صلاح الدين كما قدمنا « أرناط » أو «رينولد » صاحب الكرك ، وفاء لنذره الذى كان قد نذره .

وبقى أن يصدر أمره بالنسبة لبقية الأسرى لقد أمر بقتل زعيمى الداوية والاستبارية وما قتلهما إلا لفظاعة هذين وشدة تعصبهما الأعمى .

والداوية هم فرسان الهيكل أو الهيكليون ـ كما يطلق عليهم وهى جماعة عسكرية رهبانية تأسست سنة ١١١٨م ، اشتهر أعضاؤها بارتكاب كثير من الفظائع فى أثناء الحروب الصليبية ، وظلت على هذه الحال حتى حلها الملك فيليب الرابع ملك فرنسا سنة ١٣٢١م والاستبارية منظمة دينية عسكرية ، أنشئت فى بيت المقدس وكانت كسابقتها فى التعطش للدماء من المسلمين والانتقام منهم [١] .

لقد أمر صلاح الدين بقتل هذين الزعيمين لأنهما فى رأيه أس البلاء وجرثومة الكفر فى جميع البلاد ، وقد أنكر المؤرخون الأوربيون على السلطان هذه الفعلة ووصفوها بأنها النقطة السوداء فى تاريخه الناصع البياض [٢] .

ولكن ، هلا نظروا إلى ما اقترفه هذان وجنودهما من فظائع وما سببه كلاهما من جرائم ! إنهما على شاكلة «أرناط» الذى كان يعبث فى البلاد فسادا ، ويتطاول على الإسلام وأهله بالسباب والشتائم ، ويجرد الحملات للقتل والسبى والتحريق والسلب والنهب . إن هذا كان أقل جزاء ينتظره هؤلاء القتلة السفاكون جزاء لما اقترفوه من جرائم وآثام .

وسيق الأسرى بما فيهم رءوسهم إلى دمشق حيث حبس الأمراء فى السجون ، وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق ، وقد بلغ من كثرة الأسرى أن الأسير كان يباع فى دمشق بثلاثة دنانير ، وكان يباع الرجل وزوجته وأولاده فى المناداة بيعة واحدة ، قال أبو شامة فى كتابه : بلغ سعر الجملة للأسرة المؤلفة من الصليبى وزوجته

---

(١) ماهية الحروب الصليبية . حاشية ص ١٥٢ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٠٩ .

وأبنائه الثلاثة وبنتيه ثمانين دينارا [1] .

صلاح الدين بعد النصر

لقد خر صلاح الدين لله شكرا على ما أفاء عليه من نعمة ، لقد أزاح عن كاهل الشرق غمة طالما جثمت عليه وأرقت جفونه .

لم يكن الصليبيون فى احتلالهم ديار الشرق شرفاء ، ولكنهم كانوا غاية فى الجبن والنذالة ، فقد أسرفوا إسرافا شديدا فى قتل المسلمين وإذلالهم ، وهنا يستطيع المقارن المنصف أن يقارن بين المسلمين وغيرهم فى الفتوحات ، فلم يعهد فى تاريخ الإسلام أن اعتدى الفاتحون على امرأة أو طفل أو شيخ أو ضعيف ، ولم يعهد أن خرب المسلمون دور العبادة أو اعتدوا على عمار الأديرة من أساقفة ورهبان .

وإنا لنستشهد على سماحة الإسلام بما كتبه مستشرق منصف حيث يقول : « .... ولكن محمدا ﷺ يقدر أن كل إنسان مسئول أمام الله وحده عن معتقداته الدينية ، وليس لإنسان الحق فى أن يحقق معه ، أو يضطهده بسبب ما انعقدت عليه سريرته ، ثم يجرم الاضطهاد الدينى فيقرر أن الإنسان لا يعاقب فى الدنيا على عدم إيمانه أو خطأ اعتقاده وإنما يعاقب فى الآخرة وأنه ليس مسئولا فى هذه الدنيا إلا عن أعماله الظاهرة ، وبذلك دعا إلى التسامح الدينى الذى لم يكن للناس عهد به ، بل إن الكنيسة لا تزال تنكره حتى اليوم ، كما يدل على ذلك مذهب « أثنا سيوس » هذا ومحمد ﷺ يضع التسامح الدينى العام موضع التنفيذ ، فهو يحمى أرواح أهل الديانات الأخرى وأملاكهم ، مثلهم فى ذلك مثل المسلمين ، ثم يسمح لهم باتباع دينهم والمحافظة على شعائرهم الدينية ، ويمنح المسيحيين امتيازات ، ولم يحدث قط أن دينا فاتحا أعطى لرعاياه من الضمانات ما هو أكرم مما ورد فى العهد الذى أعطاه النبى ﷺ لأهل نجران فيما يأتى :

«ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد ﷺ على أموالهم ، وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور نقلا من كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٢ .



يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . »

(ومعنى لا يحشرون أى لا يندبون إلى الانخراط فى الجيوش ، ومعنى لا يعشرون أى لا يؤخذ منهم العشر ..)

« وقد منح المجوس فى بلاد العرب امتياز مماثل ، ونقتطف هنا بعض فقرات من كتاب النبى ﷺ إلى فروح بن شخسان ، رئيس معابد النار :« هذا كتاب من رسول الله ﷺ لمهدى فروح بن شخسان أخى سلمان الفارس رضى الله عنه وأهل بيته من بعده وما تناسلوا من أسلم منهم أو أقام على دينه ..

« وهذا كتابى أن له ذمة الله وعلى أبنائه ، وعلى دمائهم وأموالهم فى الأرض التى أقاموا عليها ، سهلها وجبلها ، وعيونها ومراعيها ، غير مظلومين ولا مضيق عليهم ، ومن قرئ عليهم كتابى هذا ، فليحفظهم ــ أى المجوس ــ ، ويمنع الظلم عنهم ولا يتعرض لهم بالأذى والمكروه » ولأهل الذمة فى الإسلام ما للمسلمين ، وعليهم ماعليهم ، كما قال على ــ كرم الله وجهه ــ « دماؤهم كدمائنا » .

وقد ظلت روح التسامح هذه مرعية فى كل مكان فى ظل الحكم الإسلامى حين كان فى إبان سطوته ، ففى عهد الخليفة الأول كتب قائده خالد بن الوليد كتابا للنصارى أمنهم فيه على أنفسهم وحريتهم وأموالهم ، وصرح فيه أنهم لا يمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخرج الصلبان فى يوم عيدهم ، وأقر الخليفة هذا الصلح .

وبعد فتح مصر أبقى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأوقاف المحبوسة على الكنائس المسيحية ولم يتعرض لها بشئ ، وظل يدفع الرواتب التى قررتها الحكومة السابقة لرجال الدين ، وفى عهد عثمان رضى الله عنه ، شهد بطريق مرو المسيحى فى كتابه إلى أسقف فارس بروح التسامح عند المسلمين [1] . أ ، هـ

(١) المثل الأعلى فى الانبياء تأليف : خ كمال الدين ــ تعريب أمين محمود الشريف ص ١٥٦ ، ص ١٥٨ ، المطبعة النموذجية بالحلمية الجديدة .

جهود صلاح الدين فى تحقيق النصر

لقد كان انتصار المسلمين فى هذه الموقعة الفاصلة ـ موقعة حطين ـ ثمرة جهود متواصلة ، طيلة سنوات عديدة قضاها صلاح الدين فى الإعداد والتنظيم ، نتيجة تواضع لله وخشوع وصدق التجاء إليه ، لأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . لقد ظل صلاح الدين طيلة أيام المعركة وقبلها يعد جنوده ويرتبهم ، وهو لاجئ إلى الله هاتف له بالدعاء أن يمنحه الله النصر ، وأن يكلل جهوده طيلة السنوات الماضية بالنجاح والتوفيق ، وكان أن من الله عليه وعلى جنوده بالثبات والقوة فى الوقت الذى نزع من قلوب أعدائهم الشجاعة وبث فيها الفزع حتى أعطوا بأنفسهم ، ولقد بلغ من شدة فزعهم أن تطوع أحد الصليبيين بنفسه وتقدم إلى السلطان صلاح الدين يقول له: أيها السلطان ما الذى يدعوك إلى البطء فى ابتغاء القوم؟ انهض إليهم الآن ، واهجم بجيشك عليهم فإنهم أصبحوا بحال من التعب والظمأ لا يأملون معها فى النجاة منك بحال ما (١) .

لقد كان صلاح الدين دائم الانشغال مهموما لا يهدأ له بال حتى لقد امتنع تماما عن الطعام ، ولقد سئل عن ذلك فقال : كيف يطيب لى الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدى الصليبيين ؟

ووصفه ابن شداد فى أيام حروبه للصليبيين : كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال .. هو كالوالدة الثكلى ، يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادى : يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء ، وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد فى الزحف والحث على القتال ولم يطعم فى ذلك طعاما البته ، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب ، ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه(٢)

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص١٠٧ .

(٢) النوادر السلطانية لابن شداد .

المؤرخون يفيضون فى وصف المعركة

ولقد تنافست أقلام المؤرخين فى وصف معركة حطين ، وخاصة من شهدها منهم كالعماد الأصفهانى الذى قال : مررت بساحة القتال عقب انتهائه ، فرأيت الرءوس طائرة ، والنفوس بائرة ، والعيون غائرة ، مفصلة المفاصل ، منزعة الأطراف ، مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون ، منصفة الأجساد ، مقصفة الأعضاد ، مقطعة السهام، موزعة الأقدام ، عديمة الأرواح هشيمة الأشباح ، كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى الأبصار .

وكان قبل ذلك قد تحدث عن موقعة طبرية وأثر فتحها فى نفس ملكها فقال : «ونزل طبرية ـ أى السلطان ـ فى خواصه ، وذوى استخلاصه ، وكان ذلك يوم الخميس ، وهو يوم الخميس .. ودخل الليل وصباح الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر .. ولما سمع « القومص » أمير طبرية بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط فى يده ، وخرج عن جلد جلده ، وسمح للفرنج بسبده ولبده ـ قليله وكثيره وقال لهم : لا تعودوا بعد اليوم ولابد من وقم ـ قهر ـ القوم ، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد ، وذهبت الطراف والتلاد ، وما بقى لى صبر ، وما بعد هذا الكسر لى جبر ....

« ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثبات سباتهم ـ مرض نومهم ـ ووثبوا .. وشبوا النار ، ولبوا الثار .. وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر، فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ، بما سبق به حكمه ، وسر حين أحاط بمسيرهم علمه ، وقال : قد حصل المطلوب ، وكمل المخطوب ، وجاءنا مانريد ، ولنا بحمد الله الجد الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد .... [(١)] .

وقد استشهد نا بهذا النص لنقدم للقارئ نموذجا من أسلوب ذلك العصر فى الكتابة الإنشائية التى تعتمد على السجع والازدواج والمقابلة وغير ذلك من المحسنات البديعية، هذا مع عدم الإخلال بالمعنى المراد نظرا لاتساع ثقافة الكتاب فى تلك الفترة وتزودهم الكبير من عيون اللغة .

---

(١) صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ـ د/ أحمد بدوى ص ١٤٢ ـ المكتبة الثقافية .

ولقد أحصى بعضهم عدد القتلى من الفرنج فقيل : كان عدد القتلى عشرة آلاف وأسر الباقون .

وقال ابن كثير : بلغ القتلى ثلاثين ألفا والأسارى كذلك ، وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفا ، وكان من سلم مع قلتهم وهرب أكثرهم جرى فماتوا ببلادهم . ومن مات منهم في بلده بعد حراجته وهربه صاحب طرابلس [1] .

القاضى الفاضل يهنئ السلطان

وكان القاضى الفاضل فى دمشق مريضا وقت وقوع هذه المعركة ، فلما بلغته أنباؤها كتب إلى السلطان يقول : « ليهن المولى أن الله أقام به الدين .

وكتب المملوك هذه الرسالة والرءوس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود مساجد ، والمكان الذى يقال فيه أن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه أنه الواحد ، جدد لله شكرا ، تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه سرورا بتوحيد الله تعالى الحق المبين ، وأن يقال : محمد رسول الله الصادق الأمين ، وجزى الله يوسف خيرا عن إخراجه من سجنه ، والمماليك ينتظرون المولى ....

تلك المكارم لا قعبان من لبن   وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن

ثم قال : وللألسنة بعد فى هذا الفتح تسبيح طويل وقول جميل جليل [2] .

وأقبل الشعراء فى ذلك اليوم من كل صوب ، فهو اليوم الذى كانوا ينتظرونه من قبل ، لتهنئة الناصر بهذا الفوز ، وأنشدوا بين يديه من روائع الشعر ما اشتهر فى تاريخ الأدب العربى باسم القد سيات نسبة إلى القدس ، وإشارة إلى انتصار صلاح الدين على الفرنج فى تلك الوقعة التى ملك بها القدس بعد ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢١ .

(٢) البداية والنهاية ص ٣٢٢ .

وكان من أوائل الذين وصلوا إلى مخيم السلطان للتهنئة شاعر مصرى يقال له «الجوائى» كان نقيب الأشراف فى الديار المصرية ، فأنشأ يقول :

أترى مناما مابعينى أبصر — القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم — ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى — وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى — هو فى القيامة للأنام المحشر
يايوسف الصديق أنت لفتحها — فاروقها عمر الإمام الأطهر (١)

وقال ابن سناء الملك الشاعر المصرى :

لست أدرى بأى فتح تهنا — يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهنيك إذ تملكت شاما — أم نهنيك إذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قطرا فقطرا — إذ فتحت الشام حصنا فحصنا
لا تخص الشام منك التهانى — كل صقع وكل قطر يهنا
واغتدى الوصف فى علاك حسيرا — أى لفظ يقال أو أى معنى (٢)

لقد سجل الشعر المعركة ، وما يسجله الشعر يبقى فى الوجدان لا يبارحه .

تساقط الحصون والممالك بعد ذلك

أوهنت هزيمة الصليبيين فى حطين عزائمهم ، وقضت على روح المقاومة فيهم ، فأخذت ممالكهم فى الشام تتساقط تباعا الواحدة تلو الأخرى بأقل مجهود حربى .

توجه السلطان إلى قلعة طبرية التى كان قد حاصرها قبل موقعة حطين ورأى ألا يضيع وقته بمحاصرتها . فسرعان ما فتحت له أبوابها ، وكان بداخلها زوجة أميرها «الأميرة أشيفا» وهى التى استنجدت بأرناط ..

---

(١) صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه د/ أحمد أحمد بدوى ص ١٠٥ .

(٢) صلاح الدين بطل حطين ـ د/ عبد اللطيف حمزة ص ١١٠ .

وخرجت الأميرة ومن معها بأمان صلاح الدين .. وعاملها معاملة كريمة تليق بأخلاق الفارس الكريم ، وسمح لها أن تصحب مالها ورجالها وأسرتها [1] .

وكان صلاح الدين لا يخل بوعد يقطعه ، ولا ينقض عهدا يبرمه .

وكان يعامل خصومه معاملة سمحة كريمة ، ولم تعهد فيه الشدة إلا مع الذين أفرطوا فى الشدة وأساءوا إلى مشاعر المسلمين وسبوا نبيهم ﷺ كأرناط ومقدم الداوية والاستبارية ..

ومما يدل على تسامحه المفرط أن « بليان » الثانى الذى تزوج من الملكة « ماريا كونين » أرملة أمورى الأول ملك بيت المقدس السابق .. أمنه السلطان صلاح الدين وكان ضمن الناجين فى موقعة حطين . واستأذن السلطان فى الذهاب إلى بيت المقدس لاصطحاب زوجته وأولاده منها .

وقد أذن السلطان له فى ذلك على شرط ألا يقضى هناك سوى ليلة واحدة يأخذ فيها زوجته وأولاده .

وحين دخل « بليان » المدينة ، وجد المدينة خالية من المدافعين عنها ، فقد هلك الفرسان فى موقعة حطين ، ووقع الملك فى أسر صلاح الدين .

وخلت المدينة إلا من النساء والرهبان .

وحين رأى الناس « بليان » بينهم فرحوا به ، واعتقدوا أنه مبعوث العناية الإلهية لهم ليجدد فيهم العزم ويقوى روحهم المعنوية ، وأخذوا يتوسلون إليه ويبكون بين يديه أن يبقى معهم ولا يتركهم .

وكأنما انبعثت فيه خيلاء كاذبة وركبه غرور توهم منه أنه يستطيع أن يفعل مالم يستطع أن يفعله غيره من القادة والأمراء ، فأقبل يجمع من الفرسان وأبناء الفرسان من فوق الخامسة عشرة من العمر، و جمع من الصنّاع والتجار رجالا دربهم على

---

(١) كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٩ .

القتال ، وأخذ ما فى كنيسة القيامة من حلى ذهبية وفضية وصهرها وضربها نقودا وذلك بالاتفاق مع بطريق الكنيسة ليستعين بذلك على استئجار بعض المرتزقة من المحاربين ..

واستعرض هؤلاء أمامه ، فخيل إليه وهمه أنه استطاع أن يكون جيشا يسحق كل من تسول له نفسه الاقتراب من بيت المقدس ..

ووقف ينتظر قدوم جيش صلاح الدين ، لأنه كان من المتوقع أن تكون خطوته التالية بعد حطين . . هى بيت المقدس ...

وهكذا نكث هذا الأمير بوعده واستكان إلى وهمه الذى سوف يورده موارد التهلكة بعد قليل ..

ولكن صلاح الدين لم يتجه إلى بيت المقدس ..

لقد أراد أن يؤدب هذا الفارس الموهوم .. ويتركه فريسة الانتظار والترقب واليأس والتخبط ..

فتح عكا والاتجاه إلى صور

واتجه صلاح الدين إلى عكا التى فتحت أبوابها دون مقاومة ، واستسلمت عكا فى جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ / ١٠ يوليو ١١٨٧م ودخل صلاح الدين عكا وأمّن الناس على أنفسهم وأموالهم وأطلق من عكا أربعة آلاف أسير من المسلمين كانوا فى داخلها ..

وغنم من داخلها غنائم كثيرة جدا ، فقد كانت هذه المدينة من مراكز التجارة النشطة الغنية .

وأقام صلاح الدين ابنه الأفضل حاكما لها .

ثم بلغ صلاح الدين أن الفرنج يشتغلون فى تجديد أسوار صور وإقامة أبراجها، وحفر الخنادق حولها ، ويقومون فى ذلك فى همة قوية لا تعرف الكلل، يقودهم فى ذلك أمير صليبى اسمه « كنراد » كان قد قدم عليهم من القسطنطينية لهذا الغرض .



وكان لهذا الأمير والد كبير مسنٌّ أسر فى بعض المعارك ، وهو سجين فى دمشق ..

وأتى السلطان صلاح الدين بهذا الشيخ الأسير ، وأرسل إلى الأمير الذى يعمل فى إصلاح صور يقول له : إن كففت عن عملك الذى تقوم به أطلقت لك والدك ، وتركته يرحل معك ..

ولكن هذا الأمير نظر إلى السلطان وقد رفع صليبه فى وجهه وهو يقول : أما أبى فقد بلغ من العمر أرذله ، فحسبه ما عاش ، فإن شاء السلطان قتله وإن شاء تركه ، وأنا لن أترك العمل الذى جئت من أجله ..

وبدلا من أن يغضب السلطان من هذا الأمير ويبطش به ، أعجب به وبتمسكه بدينه، وأكبر فيه هذه الشهامة .. « ففى رأى السلطان أن الشجاعة فى أن تلقى عدوك أقوى ما يكو ن استعدادا للقاء ، وإن آية الرجل الشجاع أن لا يفرح بمنازلة عدو يكون أضعف منه بحال ما ..»

وترك صور مؤقتا حتى يفرغ من فتح المعاقل الأخرى .

فتوجه إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما حتى فتحها ، وكان قد استولى على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف ، والفولة والطور.

وكل هذه مواقع حصينة كان العدو يقيم فيها . وقد أشرف هو بنفسه على فتح هذه المواقع ..

وكان أخوه العادل فى أثناء ذلك يغير على المدن الساحلية فى فلسطين فاستولى على «مجدل يابا» وهو الواقع بين يافا ونابلس .

وهاجم « يافا» نفسها واستعصت عليه مؤقتا ،ولكنها سقطت أخيرا فى يده(١) .

وأرسل صلاح الدين ابن أخته حسام الدين لاجين فاستولى على كثير من المواقع والحصون ، فقد استولى على «سبسطية» وعلى قلعة « تبنين » وحين استعصت عليه

---

(١) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٧٨ .



هذه القلعة استنجد بخاله فأسرع إليه ، وتعاونا معا فى فتحها ..

ثم استسلمت بعد ذلك « صرفند » و« صيدا » ثم لم تلبث بيروت بعد ذلك أن فتحت أبوابها للمسلمين فى أغسطس سنة ١١٨٧م وسقطت « جبيل » بعد ذلك ، ثم أصبح الطريق ممهدا إلى القدس ..

فسار صلاح الدين وجنوده إلى هناك .

* * *

فتح بيت المقدس

الاستيلاء على عسقلان

أصبح شغل صلاح الدين الشاغل هو فتح بيت المقدس ، ولكن لابد من التمهيد له لفتح عسقلان وقد أشرنا سابقا إلى أنه فتحها بعد حصار دام أربعة عشر يوما . وعسقلان مفتاح القدس ، وقد كانت مركزا قويا من مراكز الصليبيين ..

وقد قاومت عسقلان وأراد صلاح الدين أن يستعمل أسلوب السياسة والمفاوضة فى فتحها ، فاستحضر من دمشق الملك « جاى لوز جنان» و« جيرار مونتفورت » وكانا ضمن الأسرى من موقعة حطين ، ووعدهما بتحريرهما إن استعملا نفوذهما الأدبى بين الصليبيين فى تسليم عسقلان .

ولكن أهل عسقلان لم يستجيبوا لوساطة هذين الزعيمين ، بل ردوا عليهما ردا قبيحا ..

ومع ذلك لم يغضب صلاح الدين ، وواصل حصاره للمدينة ، وتمكن من الاستيلاء على مواقع مجاورة كانت تشد من أزر عسقلان ، فقد استولى على الرملة ، كما استولى على غزة وهى تقع جنوب عسقلان .

وكان لجهود « جيرار مونتفورت » أثر فى ذلك ، كما استطاع أن يسلم صلاح الدين النطرون وبيت جرين .. وكل هذه المواقع كانت تحت إمرة جيرار دى مونتفورت .

ونفذت إمكانية أهل عسقلان ، وفترت عزائمهم عن المقاومة فاضطروا إلى الاستسلام ، وقد أمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم ..

وأطلق صلاح الدين سراح جيرار مونتفورت فى نظير ما أداه من جهود .

أما زميله الآخر « جاى لوزجنان » فقد أرسله صلاح الدين إلى نابلس ، ووافق بعد أن فتحت القدس على طلب زوجته الأميرة « سيبيل » التى كانت فى مدينة القدس فى ذلك الوقت فى أن تصحبه أثناء إقامته فى نابلس أسيرا .



إلى بيت المقدس

وانطلق صلاح الدين بعزمه القوى وروحه المعنوية العالية ، وجنوده البواسل إلى مدينة القدس : المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومسرى النبى ﷺ .

إن هذه المدينة تمثل ذكرى عزيزة بالنسبة للمسلمين وهى بالنسبة لهم مناط عز ومعقد رجاء ومحط أمل ..

وكان صلاح الدين يريد أن يقى المدينةويلات الحرب ويجنبها إراقة الدماء حفاظا على مكانتها الدينية ومنزلتها العالية فى نفوس المسلمين ..

وأرسل إلى أهلها يبلغهم .

« اعلموا يا أهل القدس أننا نحن المسلمين نقدس هذا البلد الأمين ، ولسنا نرغب فى أن نتعرض له ولأهله بأذى ، فإن شئتم سالمتم فسلمتم ، وإلا فبرغمى أن أحاربكم فى هذه الأرض المقدسة مناومنكم ، العزيزة علينا وعليكم .. »

لقد عرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التى استسلمت بها بقية المدن الصليبية الأخرى ، حيث يفتحون المدينة ويكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم ، ويخرج من يشاء منهم سالما لا يصيبه أذى ..

ولكن ذلك الأمير الذى سبق أن تحدثنا عنه وهو « بليان » الذى سمح له صلاح الدين أن يذهب إلى بيت المقدس ليصحب زوجته وأولاده ولا يقيم بها إلا ليلة واحدة ويخرج .

فذهب وأقام ، وأخذ يحرض الناس ويعد الفرسان ويستأجر المرتزقة من كل مكان. رفض هذا العرض . ورفضه معه بعض المتهورين أمثاله .. وقالوا : إن الموت أيسر عليهم من أن يتركوا المدينة ليستولى عليها المسلمون [1] .

وبذل صلاح الدين ـ رحمه الله ـ غاية جهده فى إقناعهم بتسليم المدينة دون إراقة

---

(١) مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ٢١١ .

دماء ، ولكنهم رفضوا رفضا باتا ، وأصروا على الدفاع عن المدينة مهما كلفهم ذلك من ثمن .. كلهم ـ كما يقول ابن الأثير ـ يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه [١] .

وقارنوا بين القول والعمل فاصطفوا فوق أسوار المدينة واستعدوا للقتال .. ونصبوا مجانيقهم فى اتجاه المسلمين .

ورأى صلاح الدين أن يوجه إليهم إنذارا أخيرا يتضمن عفوه عنهم فى نظير فتح المدينة بدون إراقة دماء . ولكنهم لجوا فى العناد والإباء وابتدءوا بالعدوان ..

فلم يجد صلاح الدين بدا من القتال ، لقد آلى على نفسه ألا يبرح من مكانه حتى يحرر المدينة ، ويرفع علم الإسلام عاليا خفاقا فوق أعلى قمة فيها [٢] .

ورسم صلاح الدين خطته ، وتفقد نقاط الضعف فى أسوارها ظل يتفقد ذلك لمدة خمسة أيام حتى وجد أن أفضل نقطة يمكن أن يهاجم منها المدينة هى الجهة الشمالية .

وبدأ هجومه فعلا فى ٢٠ من سبتمبر سنة ١١٨٧ م من هذه الجهة من جهة باب اسمه : باب عمرو ، وحمل المسلمون حملة رجل واحد واستطاعوا أن ينقبوا السور ويدخلوا المدينة .

وسقط فى يده « بليان دى ابلين » واكتشف مؤخرا خطأ رأيه وسوء تدبيره ، وبخاصة بعد أن دب الخلاف عنيفا بين الطوائف والمذاهب المسيحية فى داخل المدينة .

وأرسل الفرنج يطلبون من صلاح الدين أن يتركوا المدينة بالشروط التى سلمت بها المدن السابقة ..

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٨٢ .

(٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الكاتب ص ٤٣ .

وحاول المفاوضون أن يتشبثوا ببعض كبرياء كاذبة ، ويزعموا أن لديهم القدرة على مواصلة القتال حتى يفنوا .

قال هذا السفير : اعلم أيها السلطان أنه فى هذه المدينة مالا تعلمه أنت ولا قومك من أناس يحبون الموت ويكرهون الحياة ، ثم لا يجدون بأسا من قتل أبنائهم ونسائهم إذا لزم الأمر ، ويهون ذلك كله عليهم ، وهو فى نظرهم خير من أن ينزلوا لكم عن درهم أو دينار .

فقال لهم السلطان صلاح الدين فى قوة وإيمان .

« إن هذه البلاد التى تسكنونها بلاد الإسلام ، وأنتم الذين أتيتم من وراء البحر ، وأطلقتم على أنفسكم اسم الصليبيين ، وبقى وجودكم عارا على شرفنا ،ولن يغمض لنا جفن ، أو يرتاح لنا قلب حتى تجلوا عن هذه الأرض .. »

ولم يجد المفاوضون بدا من الاستسلام ، فقد رفض صلاح الدين أن يعاملهم معاملة أهل المدن التى استسلمت طواعية وفتحت أبوابها أمامه فأمنهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ..

قال لهم « تستسلمون دون قيد أو شرط . وسأفعل بكم ما فعلتموه بأهل المدينة المسلمين حين اغتصبتموها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى ، إنه جدير بكم أن أجزى السيئة بمثلها .. » (١) .

وساء موقف الصليبيين فى داخل المدينة ، وأخذوا يتدبرون الموقف جيدا ، فوجدوا أنه لا جدوى من المقاومة ،وأنه لابد عليهم من الاستسلام لشروط صلاح الدين ..

ورأى صلاح الدين بسعة قلبه وكريم عفوه أن يتركهم يخرجون فى فترة وجيزة لا تتجاوز الأربعين يوما على أن يؤدى الرجل عن نفسه عشرة دنانير ، والمرأة خمسة دنانير ، والولد دينارين ، وإلا فهو أسير .

عفو السلطان

ورفض صلاح الدين أن يشهد بنفسه خروج هؤلاء الصليبيين منكسة رؤسهم من

(١) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٨٣ .

هذه المدينة المقدسة . وهم الذين أجروا الدماء أنهارا من المسلمين حين احتلوها قبل ذلك اليوم بتسعين عاما ..

لقد لزم السلطان خيمته ، فى أثناء خروجهم ..

وجاء أخوه العادل يستشفع فى أن يعفى سبعة آلاف من العجزة والمساكين ، فأمر السلطان بإعفائهم ، كما أمر بأن يعفى عشرة آلاف آخرين من الفقراء لم يكن بيد أحدهم مايفك به نفسه من الأسر .

وقضى السلطان يوما كاملا ، ومناديه ينادى على باب خيمته : هل من فقير فنؤيه؟ هل من عاجز فنعفيه ؟ هل من ضعيف فنحميه ؟ [1] .

لقد تجاوز صلاح الدين عن شرطه الذى شرطه ويبدوا أنه قاله تحت عوامل الحنق والغيظ من ذلك الذى كان قد عاهد فخان عهده ثم جاء يفاوض بعد ذلك .

ولذلك فإن صلاح الدين عامل الفرنجة بمنتهى العطف والرحمة والإحسان لقد أراد أن يعطى هؤلاء البغاة المعتدين والملوك المستبدين الظالمين النموذج الطيب فى سماحة الإسلام ، وعدله ورحمته التى وسعت الناس جميعا مسلمهم ومسيحيهم ، مؤمنهم وكافرهم على السواء . ونحن ننقل ما كتبه الأستاذ عبد الله ناصح علوان فى ذلك:

لقد رأى السلطان صلاح الدين أن عددا كبيرا من الإفرنج يحمل على ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه هذا المنظر أشد التأثير وهاله الأمر كثيرا ، ولم يطق صبرا على رؤيته ، فأمر بالمال فأعطى لهم ، وبالدواب فوزعت عليهم لتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

ولقد كانت شفقته بالنساء أكبر ، وعطفه عليهن أعظم ، فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت ، وأقامت تتعبد وتتقرب إلى الله ، والتف حولها خلق كبير من الخدم والأتباع ، وكانت ذات

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٢٠ .



مـال كبير فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها .

ولما أستأذنته الملكة « سيبيل » فى الرحيل هى وأتباعها أظهر لها من اللطف والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه ،

خاطبها بكل حنو ورحمة ، وسيرها إلى زوجها السجين بقلعة « نابلس » وسمح لها بالمكوث عنده ، وقد تبعها فى خروجها كثير من النساء الباكيات الحاملات أطفالهن بين أذرعهن ، ولما اقترين من السلطان تقدمن إليه و خاطبنه :

« أيها السلطان ، أترانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون فى أسرك ، ونحن الآن نغادر هذه الديار إلى الأبد ، وهؤلاء الجند الذين نتركهم عدتنا فى حياتنا ، وسلاحنا فى أيامنا ، فإذا ما فقدناهم فقدنا الحماية ، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم ، وخففت بذلك آلامنا ، وأزحت بؤسنا ، وأبعدت عنا شقاءنا ، فإنا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل » .

تأثر السلطان بما سمع وما رأى من بكائهن ، وأمر بإعطاء الأمهات أبناءهن والزوجات بعولتهن ، والبنات آباءهن ، وحلف ليعاملن من بقى فى الأسر بكل إحسان ورحمة .

لقد أذن لعدد كبير من الرحيل دون فدية .

وأذن لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال ، فأخذوا ما شاءوا دون أن يعترضهم معترض ، تاركين ما لا قبل لهم بحمله فابتاعه المسلمون منهم ..

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للإفرنج تخالف ما كانوا عليه فى معاملتهم السيئة لبعضم بعضا فضلا عن معاملتهم الحاقدة للمسلمين فى الحروب الصليبية الأولى [1] .

---

(١) صلاح الدين لعبد الله ناصح علوان ص ٨٠ ، ص ٨٢ .

وربما يقول قائل : إن هذا الكلام نقوله تعصبا منا لصلاح الدين الذى ندين بدينه . ولكنا نستشهد على صحة ما نقول بقول الغربيين أنفسهم ..

يقول « مل » المؤرخ الانكليزى : ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب .

ويقول الأمير على الذى ذكر الرواية السابقة : وصف « ميشود » حال أولئك الذين طردوا من القدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية ، فقد تضور عدد منهم جوعا فى سوريا وهم على أشد ما يكونون من البؤس ، وقد أغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم ، ثم قال ميشود : وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقى بولدها فى اليم وهى تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤووها .

وقيل للسلطان صلاح الدين ، والبطريك خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرة جدا لم يصرفها فى فداء الفقراء والمساكين من أبناء ملته بعد أن وصف ستانلى البطريك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان قيل للسلطان : لم لا تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوى به المسلمين ؟

فقال لهم السلطان : لا نأخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به .

وفى ذلك يقول « ستانلى بول » وقد وصل الأمر إلى أن سلطانا مسلما يلقى على راهب مسيحى درسا فى معنى البر والإحسان (١) .

انظر إلى هذه المعاملة الطيبة المثالية ، وقارن بينها وبين ما فعله هؤلاء الصليبيون حينما جاءوا إلى القدس قبل ذلك بتسعين عاما . فى عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م .. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

ونضيف إليه ما ذكره المؤرخ الانكليزى « مل » : كان المسلمون يقتلون فى الشوارع والبيوت .. وقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار ،

(١) المرجع السابق .

وانزوى البعض الآخر فى القصور والأبراج وحتى فى المساجد ، غير أن هذا لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا .

ثم يقول : ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين فلم يسمع فى وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى .

ويقول ميشود أما أولئك الذين أبقاهم الفرنج أحياء أملا فى أموالهم فقد ذبحوا عن آخرهم بلا مبالاة ولا شفقة ، وقد أحرق بعضهم وهم أحياء .. وقال : وما كانت مياه عيون النساء ولا صياح الأطفال ولا منظر المكان الذى عفا فيه المسيح عن قاتله لتسكن ثورة أولئك المنتصرين ولم يتحرك أى قلب حنانا على أولئك الأبرياء ، ولم يتقدم إلى عمل البر والإحسان رجل واحد نحو سبعين ألف نفس ذهبت ضحية بلا ذنب [١] .

ويقول فيليب حتى فى كتابه العرب تاريخ موجز : كان الفرق جليا بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الفرنج ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة [٢] .

أول جمعة أقيمت فى بيت المقدس بعد فتحه

وافق دخول المسلمين القدس يوم السابع والعشرين من رجب وهو يوم الإسراء وكانت هذه موافقة عجيبة غريبة .

وقام المسلمون بتنظيف المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والخنازير .

لقد استهانوا بحرمة هذا المكان حتى كانوا يربون فيه الخنازير ، وأعيد المسجد إلى ما كان عليه قبل الاحتلال ، وغسلت الصخرة المقدسة بالماء الطاهر وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر وأبرزت للناظرين ، وكانوا قد ستروها عن أعين الزائرين ..

---

(١) المرجع السابق ..

(٢) العرب تاريخ موجز ص ٢٤٤ .

وغضب السلطان صلاح الدين ممن أشار عليه بهدم كنيسة القيامة ، ونادى بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين ، لأنه عندما فتح أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمر بهدم البنيان .

وأول جمعة كانت فى الرابع من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان خطيب الجمعة هو محيى الدين بن الزكى ، وهذا هو نص خطبته كما ذكرها ابن خلكان :

فما رقى المنبر استفتح بسورة الفاتحة وقرأها إلى آخرها ثم قال : فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ثم قرأ سورة الأنعام . الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم قرأ من سورة سبحان ﴿**وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم ... الآية**﴾ ثم قرأ أول الكهف ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ الآيات الثلاث ، ثم قرأ من النمل : ﴿**وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ الآية ثم قرأ من سورة سبأ ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات** ﴾ الآية ، ثم قرأ من سورة فاطر ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض**﴾ الآيات .

وكان قصده أن يذكر جميع تحميدات القرآن الكريم ثم شرع فى الخطبة فقال الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته لا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فما يدافع ، أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره . وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشك ، ومدحض الشرك ورافض الإفك الذى

أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى ، عند ها جنة المأوى ، مازاغ البصر وما طغى صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أميرالمؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ، أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائةعام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها اسمه ، ورفع قواعد ه بالتوحيد فإنه بنى عليه وشيد بنيانه بالتمجيد فإنه أسس على التقوى من أول يوم من خلقه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى . وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذى كرمه برسالته وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون**﴾ كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم إلى آخر الآيات من المائدة وهو أول القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش

ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهج فى مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من إهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقربه عينا الانبياء والمرسلون ، فإذا عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله وأن يكون التهانى لأهل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء ، أليس هو البيت الذى ذكر الله فى كتابه ؟ ونص عليه فى محكم خطابه ؟ فقال تعالى ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾ ؟ أليس هو البيت الذى عظمته الملل وأذنت عليه الرسل وتليت فى الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم فى التيه عقوبة للعصيان ؟ فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لمانكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى ، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن تستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه

الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عنكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه إذ جعلكم من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل ، وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم ،اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدّوا فى جسم الداء ، وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية ، الله أكبر فتح ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر ، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فحوزوها ، ومهمة فأخرجوا هممكم وأبرزوها وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال الله تعالى : **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾**

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره ، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، إن أشرف مقال يقال فى مقام وأنفذ سهام تمرق عن قسى الكلام ، وأمضى قول تحل به الأفهام كلام الواحد الفرد العزيز العلام ، قال الله : **﴿وإذا قرئ القرآن**

فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، وقرأ أول سورة الحشر ثم قال : آمركم وإياى بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه .

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مختصرة ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر ثم قال اللهم وأدم سلطان عبدك ، الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك ، المدافع والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل الناصر جامع كلمة الإيمان وقاطع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس أبى المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين اللهم عمم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه ، اللهم ابق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته ، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقاصيها ، وملكه صياصى الكفر ونواصيها ، فما تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها ، اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغرب أمره ونهيه ، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء المملكة وأكنافها ، اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابثث سرايا جنوده فى سبل الأقطار ، اللهم أثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم ، اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعاءه فى قوله ﴿ **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ .

ثم دعا بما جرت به العادة .

وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن على نجا المصرى على كرسى الوعظ بإذن السلطان فوعظ الناس وذكرهم .

واستمر القاضى ابن الزكى يخطب بالناس فى أيام الجمع أربع جمعات ، ثم قرر السلطان للمسجد خطيبا مستقرا .

وأرسل السلطان إلى حلب فاستحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدن ابن زنكى قد أعده لبيت المقدس وكان يأمل أن يكون فتح بيت المقدس على يديه ، ولكنه كان على يد بعض أتباعه وهو صلاح الدين فرحم الله كليهما وأجزل لهما الثواب من فيضه وكرمه .

التعريف بابن الزكى

ونظرا لأهمية خطبة ابن الزكى وما تناولته من المعانى الجامعة ، ولما بلغه هذا الرجل من منزلة سامية فى قلوب الناس اقتضى هذا التعريف به .

هو أبو المعالى محمد بن أبى الحسن على بن محمد بن يحيى بن على ينتهى نسبه إلى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ

كان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما ، وكان شاعرا خطيبا بليغا ، تولى القضاء بدمشق فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وكان أبوه وجده من رجال القضاء كذلك ، وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة الرفيعة ، حين فتح السلطان حلب أنشده القاضى ابن الزكى قصيدة جاء فيها :

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر　　　مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان كما قال .

وقيل لمحيى الدين بن الزكى من أين لك هذا ؟

قال : أخذته من تفسير ابن برجان فى قوله تعالى ﴿ **ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين**﴾ .

قال ابن خلكان : لما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة .. لكن كان هذا الفصل مكتوبا فى الحاشية بخط غير الأصل ، وذكر له حسابا طويلا ، وطريقا فى استخراج ذلك حتى حرره من قوله « بضع سنين » .

وحين فتح صلاح الدين حلب ، ولى القضاء بها لمحيى الدين بن الزكى .

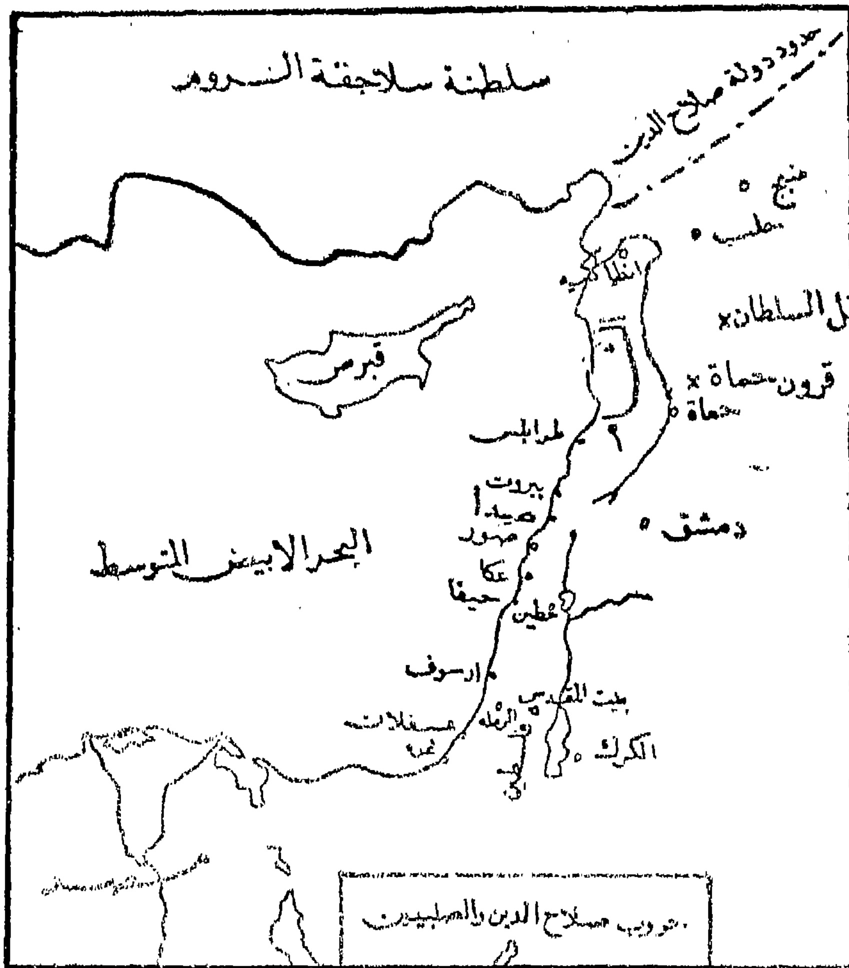
وحين فتح بيت المقدس تطاول للخطبة كل واحد من العلماء الذى كانوا حاضرين ، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة لعله يكون هو الذى يكلفه السلطان ذلك فخرج المرسوم من السلطان باختيار ابن الزكى .. وكان موفقا تمام التوفيق فى خطبته التى نقلناها عن ابن خلكان فى وفيات الأعيان (١) .

وقد توفى ابن الزكى بدمشق فى شعبان ٥٩٨ هـ .

ودفن فى سفح جبل قاسيون ـ رحمه الله تعالى ـ

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٢٥٤ .



خريطة : حروب صلاح الدين .

الشعر وفتح بيت المقدس

وكان الشعر حاضرا فى أثناء هذا الحدث الإسلامى الخطير ، وتسابق الشعراء فى تسجيل اعتزازهم بصلاح الدين ، وعودة القدس إلى حماه الأصلى وهو الإسلام .

ونستشهد فى ذلك بما قاله فخرالكتاب الحسن الجوينى حين قال :

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه فى زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء ، وما ... له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس ... فخام[1] عنها ، صمت منه آذان
هذا وكم من ملك من بعده نظر الإسلام ... يطوى ويحوى ، وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ ... والإسلام أنصاره صمٌ وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما ... سمت لها همم الأملاك قد كانوا
وفى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ... فطهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد ... تنزلت فيه أيات وقرآن
خزنت عند إله العرش سائرما ... ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للإسلام تحرسه ... من أنْ يضام ، ويلفى وهو حيران
وهذه سَنة أكرم بها سَنة ... فالكفر فى سِنة ، والنصر يقظان
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان[2]

---

(١) خام : خاف ـ وملكشاة : هو الملك السلجوقى فى بغداد.

(٢) صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ١٠١ ـ ص ١٠٤ .

ومن ذلك ما قاله الرحالة ابن جبير الأندلسي وقد نال منه الإعجاب بصلاح الدين ما ناله :

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم حكت فتكة الأسد الخادر(1)
كسرت جيوشهم عنوة فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم فتعسا لجهدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآم وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة فناجز ، متى شئت ، أو صابر
فكلهم غارق هالك بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى فسماك بالملك بالناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم وترفل في الزرد السابري(2)
وتؤثر جاهد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حق من سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذي الفتوح من الزمن الأول الغابر

---

(1) الأسد الخادر : الأسد في عرينه .

(2) الزرد السابري : درع دقيقة النسج .

وخصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك فى الآخر

محبتكم ألقيت فى النفوس بذكر لكم فى الورى طائر[1]

وهى قصيدة جيدة المعنى ، سهلة العبارة تحمل ألفاظها قوة المشاعر وصدق العاطفة ، وتعبر عن أعمق ما تحمله قلوب الجماهيرنحوصلاح الدين من حب وتقدير.

* * *

(١) صلاح الدين بين شعراء عصره ص ١٠٦ ـ ص ١٠٨ .

الحملة الصليبية الثالثة

آثار حطين وفتح القدس

لقد فقدت مملكة بيت المقدس الصليبية قواتها العسكرية فى حطين تماما ، ولم يبق إلا شراذم قليلة لم تغن عنها شيئا فى أثناء فتح بيت المقدس .

لقد كانت هناك كوارث سابقة وقعت على الفرنج فى المنطقة العربية ، فقد قتل بعض أمرائهم ، ووقع بعض ملوكهم فى الأسر ، ونالتهم هزائم عسكرية ، ولكن ماحدث فى حطين كان أخطر من ذلك بكثير ، فقد تم تدمير أكبر جيش صليبى أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى ، كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين صاحب السيادة على العالم الإسلامى بأسره .

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية لقوات صلاح الدين إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام ، إما لصلاح الدين شخصيا ، وإما لقادة جيوشه ، وتم أخذ عكا ـ كما سبق أن قلنا ـ ويافا ، وبيروت وجبيل ثم عسقلان ، وغزة .. ثم بيت المقدس ولم يتبق بأيدى الصليبيين سوى « صور » و« أنطاكية » و« طرابلس » وبعض الحصون والقلاع المتناثرة على الأرض العربية فى بلاد الشام (١) .

رد فعل فى الشرق والغرب

اجتمعت الفلول الصليبية الهاربة من حطين والقدس والأماكن التى فتحها المسلمون إلى « صور » وقد أشرنا إلى أن مبعوثامن القسطنطينية اسمه « كنراد » جاء لتعمير أسوار « صور » وتقويتها .

وكان البابا أريان الثالث ـ ١١٨٥ : ١١٨٧ م حين بلغه نبأ هزيمة الصليبيين فى حطين وبيت المقدس قد مات من هول الصدمة .

وتوجه مبعوثون إلى مختلف ملوك الغرب يبلغونهم أنباء الكارثة ويستحثونهم على

(١) ماهية الحروب الصليبية د/ قاسم عبده قاسم ص ١٤٣ .

تكوين حملة عسكرية تستعيد بيت المقدس .

ومن بين هؤلاء المبعوثين كان كبير أساقفة صور الذى قام بجولة زار فيها بلاط عدد من ملوك الغرب لإبلاغهم بأنباء الكارثة ، وحاول أن يستنهض هممهم ويستثير شعورهم .

وقام البابا « جريجورى » الثامن الذى لم يستمر فى كرسى البابوية أكثر من شهرين ـ مات بعدهما ـ بإرسال خطاب بابوى لكل المؤمنين فى الغرب وذكرهم فيه بأن فقدان « الرها » قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيرا قويا لهم . ووعدهم بأن كل ذنوبهم ستغفر ـ مهما عظمت ـ إذا شاركوا فى حملة صليبية جديدة ، وأوجب عليهم أن يصوموا يوم الجمعة من كل أسبوع على مدى خمس سنوات قادمة ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين فى الأسبوع هما يوما السبت والأربعاء ..

وتكثفت حملات الدعاية لحملة صليبية جديدة تؤدب صلاح الدين وتسترد بيت المقدس من جديد .

وتفنن الداعون فى حملاتهم الدعائية فصوروا المسيح ـ عليه السلام ـ فى صورة رجل جريح ضعيف وصوروا معه صورة رجل عربى قوى يضربه بعصا غليظة ، وجعلوا الدماء تسيل من المسيح ـ عليه السلام ـ

وكتبوا تحت الصورة : هذا المسيح يضربه محمد نبى العرب والمسلمين وقد جرحه وقتله [١] .

وقد نجحت هذه الدعايات ، وتأثر بها كثير من أهل أوربا .

فى الوقت الذى تدفقت فيه مئات الفرنجة إلى صور ، كما استجاب ملك صقلية النورمانى لهذه الدعوة وأرسل أسطولا يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس .

وقد حال هذا الأسطول دون استيلاء صلاح الدين على طرابلس واللاذقية بعض الوقت .

---

(١) مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ٢٨٨ .

وانشغل عنها مؤقتا بتحصين الأماكن التى يتوقع أن يكون هجوم الصليبيين فى حملتهم القادمة عليها .

وفى الوقت نفسه واصل خليفة البابا « جريجورى » الثامن ، وهو البابا « كليمنت » الثالث الذى استمر فى البابوية أربع سنوات من سنة ١١٨٧ ـ إلى سنة ١١٩١م مهمة الاتصال بملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، وأثمرت اتصالاته جيدا حتى فرضت ضريبة جديدة فى أوربا اسمها ضريبة صلاح الدين ، مقدارها عشر الدخل من كل فرد، ولذلك أطلق عليها « عشور صلاح الدين » لتمول حملات صليبية جديدة ويكفى صلاح الدين فخرا بذلك ، فقد أصبح اسمه فى اوربا يؤرق الأجفان ويشغل الأذهان

تحرك صليبى للانتقام.

واستجاب امبراطور ألمانيا « فردريك بربروسا » وملك انجلترا « ريتشارد » الأول وملك فرنسا « فيليب أغسطس » لنداء البابا « كليمنت » وتحمسوا لدعوته ، وتناولوا شارة الصليب منه وبدءوا يعبئون حملات صليبية مثل الحملات السابقة التى أثارها بطرس الناسك .

وفى الحادى عشر من مايو سنة ١١٨٩ م بدأت حملة امبراطور ألمانيا لقد سبقت حملة زميليه الفرنسى والإنجليزى .

لقد خرج هذا الامبراطور على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل ،

وقيل : ثلاثمائة ألف مقاتل واختار أن يسلك فى طريقه إلى الشام طريقا بريا عبر البلقان وآسيا الصغرى .

وتدخلت العناية الإلهية فى قهر هذا الجيش العرعرم الذى سبقته حملة إعلان واسعة شغلت بال صلاح الدين . وجعلته يرسل العيون ويبث الأرصاد لاطلاعه على تحركات هذه الحملة القادمة . وحملته على أن يخلى ويدمر بعض المراكز التى يتوقع أن يحتلها الصليبيون القادمون ويحاربوا منها المسلمين .

وكان تدخل العناية الإلهية علامة توفيق لصلاح الدين ، وبشرى له بأنه على



الحق وأن الله سوف يكفل له النصر فى النهاية .

لقد حكى لنا ابن كثير المصير الأسود الذى آل إليه هذا الجيش الألمانى وقائده الامبراطور :

قال : وأما ملك الألمان فإنه أقبل فى عُدد و عدد كثير جدا ، قريب من ثلثمائة ألف مقاتل من نيته خراب البلد ، وقتل أهلها من المسلمين ، والانتصار لبيت المقدس ، وأن يأخذ البلاد إقليما بعد إقليم حتى مكة والمدينة ، فما نال شيئا من ذلك بعون الله وقوته ، بل أهلكهم الله ــ عز وجل ــ فى كل مكان وزمان ، فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان ، حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية ، فدعته نفسه أن يسبح فيه ، فلما صار فيه حمله الماء إلى شجرة فشجت رأسه وأخمدت أنفاسه ، وأراح الله منه العباد و البلاد

فأقيم ولده الأصغر فى الملك وقد تمزق شملهم ، وقلت منهم العدة ، ثم أقبلوا لا يجتازون ببلد إلا قتلوا فيه ، فما وصلوا إلى أصحابهم الذين على « عكا » إلا فى ألف فارس ، فلم يرفعوا بهم رأسا ولا لهم قدرا [1] .

ولم يلبث ولده الذى تولى بعده أن يموت أيضا .

الصليبيون يستردون عكا

هذا ما كان من شأن الألمان .

أما ما كان من أمر الإنجليز والفرنسيين فقد اتفقا معا على الإبحار من غرب أوربا فى صيف ١١٩٠م

والتقى الجيشان فى صقلية ، ثم ترك الفرنسيون صقلية قبل الإنجليز بعشرة أيام ، ووصلوا إلى أسوار عكا .. فاستبشربهم الصليبيون هناك .

أما الإنجليز فقد هبت عاصفة على أسطولهم أجبرتهم على الهبوط فى جزيرة قبرص ، وكانت تابعة فى ذلك الوقت للبيزنطيين .

---

(٩١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٦ .

فانتهز ريتشارد ملك انجلترا هذه الفرصة واستولى على الجزيرة ، واستقر بها فترة، ثم أبحر بعد ذلك إلى عكا ..

وكانت عكا فى ذلك الوقت قد استردها أميرصليبى عفا عنه صلاح الدين بعد أن عاهده على عدم حربه ، ولكنه غدر ونكث عهده .

من ذلك الغادر ؟

ذلك الغادر هو « جاى لوز جنان » كان صلاح الدين قد أسره فى حطين كما علمنا، وسيره أسيرا إلى دمشق ، ثم رأى أن يستعين به فى تسليم عسقلان ، وفشل فى ذلك، فسيره إلى نابلس ، وألحق به زوجته فيما بعد .

ثم عفا عنه نهائيا بعد ذلك ، وأفرج عنه بعد أن أخذ عليه العهد والميثاق فقد تعهد «بألا يشهر فى وجهه سيفا أبدا ، ويكون غلامه ومملوكه طليقا أبدا »[1] .

ولكنه سرعان ما نكث بوعده وخان عهده كعادة الصليبيين باستمرار ، وكانت سماحة صلاح الدين مع هؤلاء إحدى أخطائه التى ذكرها المؤرخون لقد استغلوا هم ذلك أسوأ استغلال .

لقد أراد هذا الملك أن يعود إلى صور التى كان ملكا عليها ، ولكن « كونراد » طرده عنها ، فجمع الفرسان المشردين وتقوى بهم واستطاع أن يغزو بهم عكا .

وجاء الفرنسيون فشدوا من عزم هذا المغامر « جاى لوز جنان » وسرعان ما انضم إليهم « كونراد » صاحب صور بعد أن صفى خلافاته مع « جاى لوز جنان » ثم جاء الانجليز بعد ذلك فازداد الصليبيون قوة إلى قوتهم ..

ودارت معركة رهيبة بين قوات السلطان صلاح الدين وجيوش الصليبيين التى مكنتهم فى النهاية من احتلال عكا .. بعد طول حصار دام عامين وكان الصليبيون غادرين كعادتهم ، لم يأخذوا درسا من صلاح الدين فى عفوه عن سكان بيت

---

(١) النوادر السلطانية لابن شداد ص ١٥٣ .

المقدس، وإكرامه لهم ، وإطلاق سراحهم دون إراقة دماء ولكنهم كانوا فى منتهى العنف والقسوة حتى كرروا المشهد الذى سبق منذ تسعين عاما حين احتلوا بيت المقدس فأجروا الدماء أنهارا من المسلمين ..

على أن القوات الصليبية على كثرتها وتدفقها لم تستطع أن تسترد مما أخذه صلاح الدين سوى مدينة عكا .

وقد ثبتوا أقدامهم فيها ، ورفعوا أعلامهم فوقها .. ولكن بعد قتال مرير وبلاء عظيم من جانب صلاح الدين وقواته .

صور من البطولة

طال حصار عكا حتى استمر عامين أو أكثر والمسلمون والصليبيون متواجهون وكان أهم ما يشغل بال السلطان أمر المحصورين فى داخل عكا ،وكيف يوصل الأمداد إليهم .

ومما يقصه علينا ابن كثير فى الاحتيال لإمداد المحاصرين بالزاد ما يلى :

كتب متولى عكا من جهة السلطان صلاح الدين ، وهو بهاء الدين قراقوش إلى السلطان : لم يبق عندى من الأقوات فى المدينة إلا ما يبلغ الناس إلى ليلة النصف من شعبان ــ وكان ذلك فى أول شعبان ــ

فلما وصل الكتاب إلى السلطان صلاح الدين أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم . خوفا من إشاعة ذلك فيبلغ العدو فيقدروا على المسلمين ، وتضعف القلوب وكتب صلاح الدين إلى أمير الأسطول فى مصر أن يقدم بالميرة إلى عكا فتأخر سيره ، ثم قدمت ثلاث بطش ليلة النصف من شعبان ، وفيها من الميرة ما يكفى أهل البلد طول الشتاء . فلما أشرقت السفن على البلد نهض إليها أسطول الفرنج ليحول بينها وبين البلد ، فاقتتلوا فى البحر قتالا شديدا ، والمسلمون فى البر يبتهلون إلى الله ــ عز وجل ــ فى سلامتها ، والفرنج أيضا تصرخ برا وبحرا ، وقد ارتفع الضجيج ، فنصر الله المسلمين وسلم مراكبهم ، وطابت الريح

للسفن فسارت وأحرقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء ، ودخلت البلد سالمة ، ففرح بها أهل البلد والجيش فرحا شديدا .

وكان السلطان صلاح الدين قد جهز قبل هذه البطش بطشة كبيرة من بيروت فيها أربعمائة غرارة ، وفيها من الجبن والشحم والقديد والنشاب والنفط شئ كثير ، وكانت هذه البطش من بطش الفرنج المغنومة ، وأمر صلاح الدين من فيها من التجار أن يلبسوا زى الفرنج ويحلقوا لحاهم ويشدوا الزنانير ، واستصحبوا معهم فى السفينة شيئا من الخنازير ، وقدموا بها على مراكب الفرنج فاعتقدوا أنهم منهم ، وهى سائرة كأنها السهم إذا خرج من كبد القوس ، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية البلد ، فاعتذروا بأنهم مغلوبون عنها ، ولا يمكنهم حبسها من قوة الريح ، ومازالوا كذلك حتى ولجوا الميناء فأفرغوا ما فيها (١) .

السماء تحارب مع المسلمين

قد مر بنا كيف أن الله أهلك جيش الألمان الذى كان قوامه مائة ألف أو ثلثمائة ألف فى تقدير آخر .. وسلط عليهم الريح والعواصف فهلكوا فى البر وغرق ملكهم فى النهر . ثم هلك ولده الذى تولى الملك بعده .

ومن صور حرب السماء لهؤلاء ما يحكيه ابن كثير ، أن مدينة عكا كان لها برجان، فاتخذت الفرنج بطشه عظيمة لها خرطوم ، وفيه محركات إذا رأوا أن يضعوه على شئ من الأسوار والأبرجة قلبوه فوصل إلى ما أرادوا .

فعظم أمر هذه البطشة على المسلمين ،ولم يزالوا فى أمرها محتالين ، حتى أرسل الله عليها شواظا من نار فأحرقها وأغرقها . وكان ذلك بفعل مسبب الأسباب ــ جلت قدرته ــ

وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطا كثيرا وحطبا جزلا ، وأجروا خلفها بطشة أخرى فيها حطب محض ، فلما أراد المسلمون المحافظة على الميناء أرسلوا النفط على بطشة

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٧ .

الحطب فاحترقت وهى سائرة نحو بُطَش المسلمين ، ووصلت النار إلى البطشة الأخرى التى تتقدمها فاحترقت أيضا ، وكان لهم بطشة أخرى مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها ، فلما أرسلوا النفط على برج المدينة المسمى برج الديان انعكس الأمر عليهم بقدرة الله تعالى وذلك لشدة الهواء فى تلك الليلة ، فما تعدت النار بطشتهم فاحترقت ، ثم تعدى الحريق إلى الأخرى فغرقت ، ووصل إلى بطشة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها ، فأشبهوا من سلف من أهل الكتاب الذين قال الله تعالى فيهم ﴿**يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين**﴾[1] .

فدائيون مستبسلون

وكان صلاح الدين يشغله أمر هؤلاء المحصورين ، ويؤرقه فلا ينام الليل ويريد أن يطمئن عليهم ، فأمر جماعة من المتطوعين الماهرين فى السباحة أن يجتازوا البحر سابحين تحت سفن الأعداء حتى يصلوا إلى أبواب عكا من جهة البحر فيتفقدوا أحوالهم ويحملوا أخبارهم إلى السلطان . ويوصلوهم سلامه وتحياته ويشجعوهم على الصمود حتى يتحقق النصر بإذن الله .

وكان من هؤلاء السباحين فتى اسمه عيسى العوام ، وهو مسيحى شرقى ، وكان ما يقوم به من أعمال خارقة بطولية تشهد بمدى التضامن بين العرب مسلمهم ومسيحيهم على السواء ، وتعلن أن الجميع يكرهون هؤلاء الصليبيين الوافدين الطامعين فى استعمار هذه البلاد ، وأنهم ما جاءوا إلا بغيا وعدوانا ، وأن ادعاءهم حماية الأماكن المقدسة كلام عارٍ عن الصحة تماما .

ونظر المسلمون يوما فإذا العدو قد صنع ثلاثة أبراج من حديد وخشب ، وألبس الأبراج جلودا منقوعة فى الخل حتى لا تنفذ فيها النار كما زعم ، وكان كل برج منها من الضخامة كأنه الجبل ، وكان يتسع لأكثر من خمسمائة نفر فراع ذلك المسلمين وأودع فى قلوبهم شيئا من الخوف والهلع ، فجمع السلطان الناصر علماءه وصناعه ،

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٨ .

وأعمل الجميع فكرهم فى طريقة لإحراق هذه الأبراج قبل أن تقتحم البلد .

وإنهم لفى ذلك حتى أقبل عليهم شاب دمشقى قال : إنه اهتدى إلى طريقة ناجحة، فأمر السلطان بمن أحضر له ما طلب ، وطبخ المواد التى جئ بها ، وخلطها بالنفط وجعلها فى قدور من نحاس ، ورمى بها برجا من الأبراج الثلاثة فاحترق لساعته ، فكبر المسلمون وهللوا وغمرهم الفرح ، ثم رمى الفتى برجا آخر فاشتعل ، ثم رمى البرج الثالث فلحق بالبرجين السابقين فغشى الناس من السرور ما أذهل عقولهم .

وأقبل السلطان على هذا الفتى والناس معه يهنئونه بهذا العمل ، وأراد السلطان أن يمنحه الجائزة التى يستحقها ، فاعتذر عن قبولها وقال : يا مولاى أنا إنما عملت شيئا لله تعالى ولا أقبل الجزاء على عملى هذا من أحد سواه[1] .

اليأس يراود النفوس

وطال أمد الحصار حتى اشتد الكرب وبدأ اليأس يخامر النفوس ، وفى يوم كتب القاضى الفاضل من مصر رسالة للسلطان . وقد أحس بما يعتمل فى نفس السلطان من ضيق وألم . وقد جاء فى هذه الرسالة :

إن سبب هذا التطويل فى الحصار كثرة الذنوب ، وارتكاب المحارم بين الناس فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه وامتثال أمره ، فكيف لا يطول الحصار والمعاصى فى كل مكان فاشية ، وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منه ؟

ووصلت إليه رسالة أخرى يقول له فيها :

إنما أوتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدقنا الله لعجل الله عواقب صدقنا ، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا مالا نقدر عليه إلا به ، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله ، ولا يرج إلا ربه[2] .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٢٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٩ .

حزن السلطان على عكا

وقد حزن السلطان صلاح الدين على سقوط عكا فى أيدى الصليبيين ، وزاد من ألمه ما صنعه هؤلاء الحاقدون بأهلها ، وهو الذى كانت معاملته لهم غاية الرحمة والإنسانية .

وكان السلطان لا يأكل ولا يشرب من شدة حزنه وضيقه . وشعر وزيره القاضى الفاضل وهو فى مصر بما يعتمل فى نفس السلطان من ضيق وألم وحزن فكتب إليه يعزيه ويواسيه ويشد من أزره .

قال له : أليس الله قد اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فى إقامة دينه وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه إلا إياك ؟

هذا وفى الأرض من له بالنبوة قرابة ، ومن له بالمملكة وراثة ، ومن له فى المال كثرة ، ومن له فى العدد ثروة ، فأقعدهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا إليهم وبغضها إليك وصعبها عليهم وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾**

نعم وأخرى أهم من الأولى . إنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ، وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، لا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم ، إلى الداعى ساعين فى إثر الساعى ، وهم من كل حدب ينسلون ، ومن كل بر وبحر يقبلون ، كنت يا مولانا كما قيل ـ أبقاك الله ـ

ولست بملك هازم لنظيره ... ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا ، وليس لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ،

ولا خارج معك إلا لِهَمٍّ ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة ، تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله ، وكأنما تدعوهم إلى نفسك ، تسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنما تريد أن تستأثر بها دونهم ، والآراء تختلف بحضرتك والمشورات تتنوع بمجلسك ، فقائل : لم لا نتباعد عن المنازلة ؟ وآخر : لم لا نميل إلى المصالحة ؟ ومتندم على فائت ما كان فيه حظ ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ، ومشير بالتخلى عن عكا كأن تركها تغليق المعاملة ، وما كأنها طليعة الجيش ولا قفل الدار ولا خرزة الملك .

ولكن مولانا صحيفة وجهه كضوء شهاب العابس المتنور

... ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا وجه عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولاترى منه ضجرة ، ولا تسمع منه نهرة ، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها [1] .

وكتب إليه رسالة أخرى يقول له فيها :

.. قيل للمهلب : أيسرك الظفر ليس فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز ، ولابد أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه ، لاراد لحكمه ، فلا يتسخط مولانا بشئ من قدره ، فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجرى وهو ساخط موزور ، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب الله له استجابة ظاهرة .

فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية ، ولا يقطع الظهور التى لا تشتد إلا به ، ولا يضيق الصدور التى لا تنفرج إلا منه .

وما شرد الكرى ، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة الفوز بعكا ، ولم يبقَ إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر ، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا ربُّ الدهر ، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٣٥ ـ ص ١٣٦ .

قد قلت للرجل المقسم أمره   فوض إليه تنم قرير العين

يأمولانا . هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التى ناديت فيها ياخيل الله اركبى ، هذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرءوس ، وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هى نعمة الله عليك ، وغراسك فى الجنة ، ومحملات محضرك **﴿يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا﴾** وهى مجوزاتك على الصراط ، وهى مثقلات الميزان ، وهى درجات الرضوان ، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ، ومن رباطة جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت (١) .

وكان لهذه الرسائل وأمثالها من القاضى الفاضل أثر كبير فى نفس السلطان ، لقد شعر على أثرها بهدوء نفسى ، وشعر أن ثقته بنفسه ـ بعد الله ـ عادت إليه . فنفض عن نفسه غبار اليأس وشمر عن ساق الجد .. ومضى إلى مدينة القدس ليستشعر فى رحابها جلال الأنس وهدوء النفس .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

مفاوضات الصلح

انسحب ملك فرنسا عائدا إلى بلاده بعد فتح « عكا » وترك قيادة الصليبيين لملك انجلترا ريتشارد الملقب بقلب الأسد .

وقد حمى الصليبيين باستيلائهم على عكا ، وهى قاعدة حصينة على البحر تتوالى عليها الإمدادات من اوربا ، ويتوافد عليها الرجال منها .

وقد أطمع ذلك « ريتشارد » فى أن يعيد إلى الصليبيين ما أخذه صلاح الدين .

ولكنه أراد أن يستعمل حيلته ودهاءه ومكره إلى جانب قوته وجيشه وأدرك صلاح الدين أن ريتشارد وضع بيت المقدس فى اعتباره وأنه يعتقد أنه الأولى ببسط نفوذه عليه ، ولذلك سارع صلاح الدين إلى هناك لتحصينه والدفاع عنه .

كان ريتشارد معروفا بالدهاء ، والمكر ويقابل ذلك عند صلاح الدين إيمان راسخ بالله ، وثقة شديدة فيه ، وصبر قوى وذكاء وفطنة .. فهو لا يخفى عليه ما يعمذ إليه هذا الملك من أساليب وأقوال تخفى وراءها أهدافا خبيثة وأغراضا بعيدة .

وكان ريتشارد قد جمع حوله الأمراء الصليبيين ، وأخبرهم بالغاية التى جاءوا من أجلها ، وطلب منهم بذل كل مايمكن من جهد وتضحية فى سبيل استرجاع بيت المقدس .. وطلب منهم الاستعداد للذهاب إلى هناك .

وإمعانا فى المكر والدهاء أراد أن يعرض ريتشارد على السلطان صلاح الدين مشروعا للصلح ، لعل صلاح الدين يستكين إلى ذلك فينشغل به عن الاستعداد وتعبئة الجيوش ، أو على الأقل يتمكن ريتشارد من الحصول عن طريق الصلح على مكاسب قوية تغنيه عن خوض الحروب ، وكان فى مقدمة ما يحرص عليه ريتشارد فى مشروع صلحه تسليم بيت المقدس للصليبيين لأنهم هم الأحق ـ فى رأيه ـ برعايته وامتلاكه .

ولكن ما كاد يسمع صلاح الدين بإصراره على بيت المقدس حتى أغلق باب الكلام فى ذلك وأعرض عن المفاوضات .

لقد وجد أن ريتشارد يحاول العمل على إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية واسترداد مدنها التى فتحها صلاح الدين وطهرها منهم .

ولكن صلاح الدين لم يسكت بل أخذ يتعقب الصليبيين فى زحفهم ، هم فى البحر وهو فى البر

وقد دارت معارك بين صلاح الدين الصليبيين بقيادة قلب الأسد ، كان أعتاها موقعة تعرف بموقعة « أرسوف » .

وقد كسب صلاح الدين الجولة الأولى فى هذه المعركة ، حتى لقد كاد يقضى عليهم تماما كما حدث فى حطين ، ولكن ريتشارد استطاع بثباته ورباطة جأشه أن يسترد زمام المعركة ويحولها لصالحه ، وكاد جيش صلاح الدين أن يتفرق عنه لولا شجاعة صلاح الدين الذى ثبت فى موقعه فاجتمع حوله المجاهدون ..

وقد أعادت هذه الموقعة الثقة فى نفوس الصليبيين الذين فكروا فى الزحف ناحية بيت المقدس ..

وانقض المسلمون عليهم من خلفهم فعوقوهم عن مضيهم ، وأثروا فيهم تأثيرا بالغا .

وركز صلاح الدين جهوده فى الدفاع عن عسقلان لأنها مفتاح بيت المقدس وقد كانت هدفا للصليبيين وجمع الأمراء لاستشارتهم فى أمرها فأشاروا عليه جميعا بتخريبها حتى لا تسقط فى يد الصليبيين ويتخذوها مركزا يغيرون منه على بيت المقدس ثم على غيره من الأماكن ثم على قطع الطريق إلى مصر ..

وعارض صلاح الدين فى تخريبها ، ولكنه رضخ لرأى أمرائه ومستشاريه فى ذلك .. ولقد قال حينئذ ، والله لموت جميع أولادى أهون على من تخريب حجر واحد منها ، ولكن إذا كان خرابها فيه مصلحة للمسلمين فلا بأس به .

صلاح الدين يعمل بنفسه فى تحصين القدس

وبدأت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان صلاح الدين مقيم فى القدس وقد قسم سورها بين أولاده وأمرائه ، وهو يعمل فيه بنفسه ، ويحمل الحجر مع الحمالين ، والناس يقتدون به فى ذلك .

وتنافس الفقهاء والقراء والعلماء فى هذا العمل الجليل ، الذى رأوا فيه قربة إلى الله ، واقتداء بالنبى ﷺ فى موقعة الخندق حيث كان يحفر مع الحفارين ، ويعمل مع العاملين ، حتى كان الصحابة يقولون :

لئن قعدنا والنبى يعمل   فذاك منا العمل المضلل

وجاء الصليبيون إلى القدس ، ولكنهم هابوا الاقتراب منها .. ولم يجدوا مكانا آمنا يقيمون فيه ، فقد خربت عسقلان ، وكانوا يعتمدون عليها فى أزوادهم وأمدادهم ، وكان صلاح الدين قد احتاط فغور الأبار المحيطة بالقدس ، وأتلف الجباب المعدة لحفظ المياه ، فقاسى الصليبيون من حرارة الجو وشدة الظمأ ، وسوء المقام الكثير .

ولم يجزع السلطان من حصار الصليبيين للقدس بالقدر الذى أصابه من اختلاف الأمراء عليه ، لقد رأى من بعضهم وهنا ، وفكر بعضهم فى أن يطلب من السلطان أن يعود إلى بلده حتى لايتعرض لما تعرض له المحاصرون فى عكا .

لقد تألم السلطان من ذلك ألما شديدا ، وأخيرا دعاهم إلى خيمته فاجتمعوا عنده ، وطلب من القاضى ابن شداد أن يحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه ففعل وكان من بين ما قاله : إن النبى ﷺ حين اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به ﷺ ، والرأى عندى أن تجتمعوا عند الصخرة المقدسة وتتحالفوا على الموت ، ولعله ببركة هذه النية ينهزم العدو ..

خطبة صلاح الدين

فوافق الجميع على هذه الفكرة، وتحالفوا عند الصخرة على الموت ، فلما رأى السلطان منهم ذلك سرى عنه ، فخطبهم قائلا :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله : اعلموا أنكم جند الإسلام ومنعته ،وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم فى ذممكم معلقة ، ـ والله عز وجل ـ سائلكم يوم القيامة عنهم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه من العباد والبلاد غيركم ، فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد وأهلك العباد ،وأخذ الأموال والأطفال والنساء ، وعبِد الصليب فى المساجد ، وعزِل القرآن منها والصلاة ، وكان

ذلك كله فى ذممكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله ، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم ، وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والله ـ تعالى ـ ينصركم على عدوكم والسلام عليكم ورحمة الله [1] .

وكان أهم ما يتميز به هذا الخطاب القصير البعيد عن تزويق الكلام وتنميقه هو الصدق . إنه كلام خارج من شغاف القلب وأعماق الضمير ، هو كلام راعٍ مسئول عن رعيته ، وأب مسئول عن أولاده ، وقائد مسئول عن جنوده ، وخليفة أُشْرِبَ قلبه حب الدين وعمق اليقين والحرص على مصلحة المسلمين ..

وقام سيف الدين المشطوب الذى كان أمير عكا وقاسى من مرارة الحصار وضيق الأسر ، ولم يخرج منها إلا بفداء كبير .. فقال : يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذى أعطيتنا ، وكبرتنا ، وعظمتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت .

وقال بقية الأمراء مثل ذلك .

وفرح السلطان ، وطاب قلبه .

ولكنه سرعان ما عاد إليه همه وقلقه حين بلغه أن بعض الأمراء ممن لم يكونوا حاضرين ذلك المجلس أعلنوا عن خوفهم وترددهم ، وقالوا : لا مانع من أن نتخلى للعدو عن منطقة القدس .. والأفضل أن نخرج منها ونلتقى بالعدو خارج دمشق حتى لا يصيبنا ما أصاب أهل عكا ، فإذا هزمناهم أخذنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى بماله ، ويأخذون القدس ونحفظ بقية بلاد الإسلام بدون القدس مدة طويلة ..

وقالوا للسلطان : إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصار الفرنج فكن أنت معنا أو بعض أهلك ، حتى يكون الجيش تحت أمرك فإن الأكراد لا تطيع الترك ، والترك لا تطيع الأكراد .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٨ .



لقد اهتم السلطان جدا بهذا القول ، وأرقه كثيرا ، وبات بهم لا يعلمه إلا الله .

قال ابن شداد : وأقمت فى خدمة السلطان تلك الليلة التى لم ينم فيها حتى الصباح ، فكانت من الليالى التى احتسبها فى سبيل الله ، فلما نودى فى فجر اليوم التالى للصلاة ، قام السلطان ومعه ابن شداد فأديا صلاة الصبح وبقيا صامتين مدة ما ، ثم استأذن ابن شداد السلطان فى الكلام فأذن له .

فقال له : يامولاى ، لقد وقع لى واقع أعرضه عليك إذا أردت .

قال السلطان : هات ياابن شداد .

قال : إذا كثر على الرجل حزنه وتضاعف همه ، وعجز عن دفع شئ منه ،لم يكن له بد من الرجوع لربه ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة ، ونحن فى القدس ، وهو أبرك موضع ، فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية ، ويصلى بين الأذان والإقامة ركعتين ، ويناجى فيها ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف له ـ تعالى ـ بالعجز ، فلعل الله يرحمه ويستجيب له ....

واستجاب السلطان لهذا الرأى ، وفعل مثلما قال له ابن شداد فلما أذن مؤذن الجمعة صلى ركعتين وأطال فيهما السجود ، وظل يناجى ربه بما يحب ودموعه تسيل من عينيه بغزارة .. وهو موقن بأن الله وحده هو مفرج الكروب ، ومبدد الهموم ، وميسر الأمور ،وشارح الصدور ..

ثم أقيمت الصلاة ، فصلى الجمعة ، وخرج من المسجد .. وقد استشعر بقرب الفرج وانجلاء الغمة (١) .

إن مع العسر يسرا

وما أن أشرق صباح اليوم التالى حتى جاء للسلطان من يبشره بأن الفرنج اختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا وقرروا الرحيل وترك القدس ..

---

(١) النوادر السلطانية لابن شداد ص ٣٥٦ .

وكان سبب ذلك الاختلاف أن الفرنسيين أصروا على فتح القدس ، وقالوا : إنما جئنا من أجله ولا نرجع بدونه .

وقال الانجليز : إن هذا البلد شق علينا حصاره ، ولا توجد مياه ، وإلى أن تأتينا المياه من مكان بعيد يشق علينا ذلك وهذا يعطل الحصار ويتعرض الجيش للتلف .

وحين كثر الخلاف بينهم ، حكموا منهم ثلثمائة فى هذا الأمر ، وحكم هؤلاء من بينهم اثنى عشر ، وحكم هؤلاء من بينهم ثلاثة .

فبات هؤلاء الثلاثة يتشاورون حتى أصبحوا ، فلما أصبحوا حكموا بالرحيل عن بيت المقدس ، فلم يمكنهم مخالفتهم ، فأسرعوا بالانسحاب وهكذا انفرجت الغمة استجابة لدعوة صلاح الدين وتضرعه لله لقد فرح السلطان فرحا عظيما ، وفرح الناس جميعا معه ، ولعل هذه مرة من المرات النادرة الوقوع فى تاريخ الحروب ، والتى نرى فيها قائدا عبقريا ، وسياسيا ذكيا يحارب خصمه بأدوات منها اللجوء إلى الله تعالى والاعتراف بالعجز لمن بيده الخير والشر .

بل لعل هذه كذلك مرة من المرات النادرة الوقوع فى تاريخ الحروب والتى نرى فيها جنديا لا يفكر فى الإذعان لخصمه ، والرضا بحكمه قبل أن يعود إلى ربه يشكو إليه بثه وحزنه ، ويفوض إليه أمره ، فلعل الله يجعل من بعد عسر يسرا ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١) .

لقد كان صلاح الدين فى ذلك متأسيا بأستاذه نور الدين محمود حين كان يناجى ربه فى أثناء الحروب باكيا خاشعا متضرعا متواضعا فيقول :

اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ، من هو محمود الذى تنصره ؟؟

وقد كان كلاهما متأسيا بالنبى ﷺ حين يقبل على ربه يناجيه فى غزواته ومعاركه .. وقد ناجى النبى ﷺ ربه فى ضراعة فى غزوة بدر وهو يقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد** » وظل يردد الدعاء والابتهال حتى قال له أبو بكر ـ

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ـ دكتور عبد اللطيف حمزة ص ١٤٣ .

رضى الله عنه ـ : يانبى الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك [1] .

استجابة السماء له

لقد استجابت السماء لصلاح الدين لأنه مخلص فى دعوته ، ولقد كان الله ـ تعالى ـ يمده بالملائكة تحارب معه لأنه سار على الدرب الذى مضى عليه السلف الصالح والمؤمنون الصادقون الذين قال النبى ﷺ فيهم **﴿رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره﴾** .

ذكر بعض جنود صلاح الدين قال : كنت منهزما بفارس مدجج ، قد لز بقربى حصانه ، وهز لقتلى سنانه ، فيئست من البقاء ، ثم أبطأت على طعنته ، فالتفت فإذا هو وحصانه ملقى وما يقربه أحد ، فعلمت أنه نصر إلهى وصنع ربانى [2] .

ما أشبه ذلك بما رواه أبو إسحاق بن يسار عن رجل من بنى مازن بن النجار عن أبى داود المازنى ـ وكان شهد بدرا ـ قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قتله غيرى [3] .

إن العبد إذا أخلص فى دعوته فتحت السماء أبوابها له ، ولقد وعد الله تعالى عباده بالإجابة فقال : **﴿ادعونى أستجب لكم﴾** .. وقال: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾**

صلح الرملة

فكر ريتشارد فى الموقف جيدا فوجد أن الصلح أجدى وأفضل ، فقد أصبح فى موقف صعب ، إنه مريض ، وإن مملكته يتآمر عليه فيها من يطمع فى اغتصاب الملك منه ، والجنود طالت غيبتهم عن أوطانهم وذويهم ...

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) صلاح الدين الأيوبى د/ جمال الدين الرمادى ص ٤٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٤ .

وقد ثبتت أقدامهم فى موقع هو بالنسبة لهم مكسب كبير .. ولذلك أخذ يفكر جديا فى أمر الصلح ..

ولكنه لخبثه ومكره أراد أن يكتسب بالصلح أكثر مما يكتسب بالحرب ..

يقول بعض المؤرخين : إن ريتشارد عرض أن يصاهر السلطان صلاح الدين وعن طريق هذه المصاهرة يحقق ما يحلم به .. ولكن كيف ؟؟

لنترك الدكتور عبد اللطيف حمزة يحدثنا عن إجابة هذا السؤال ..

قال ريتشارد ـ وكان يطلق عليه اسم الانكتار ـ للملك العادل أخى السلطان صلاح الدين، وكانت قد نشأت صداقة حميمة بينهما .

يا أخى لقد طال أمد الحرب ، وأخشى أن تطول إلى أكثر من هذا الحد ، وقد اجتمع فى هذا المكان أكثر ملوك الغرب ، وهم لا يستطيعون العودة إلى بلادهم بغير ثمرة يرضون بها عن طول جهادهم ، والرأى عندى أن يتنازل لك السلطان الناصر عن البلاد التى احتلها بالساحل ، كما أتنازل أنا لأختى التى معى الآن وهى أرملة ملك صقلية عن البلاد التى أملكها من هذا الساحل ، وأن تتزوج أنت من أختى هذه ، ويكون القدس لكما بوصف أنكما محايدان ، فتقيلان المسلمين وتفتحان أبوابكما لكافة المسيحيين ، ثم يبذل كل فريق منا أسراه للفريق الآخر وأما صليب الصلبوت فيعاد إلى الفرنج وبذلك تنتهى الحرب .

وعرض هذا الرأى على السلطان الناصر فعرف لأول وهلة أنه خدعة من الملك «ريتشارد» .

وفى اليوم التالى أتى من أخبره بأن القساوسة أنكروا هذا الرأى لأن ريتشارد لا يملك تزويج أخته الأرملة من ملك مسلم حتى يأخذ فى ذلك إذنا من البابا نفسه .

ولم يأبه « ريتشارد » لغضب القساوسة ، وبعث إلى العادل رسولا يخبره بأنه سير رسولا من لدنه إلى البابا ليستشيره فى ذلك وأن الرسول يعود بعد ستة أشهر ، فإن أذن البابا فذاك ، وإلا زوجه الملك من ابنة أخيه البكر ، والبكر لا تحتاج فى زواجها

من مسلم إلى إذن البابا والظاهر أن ريتشارد كان مخلصا فى هذه الفكرة ، وكان يعتقد أنها طريق سليم يجنب الفريقين شر الحرب ، وأن فيها الحل السعيد لمشكلة القدس ، كما رأى أن هذه الفكرة تصون كرامة الفريقين ، وتعتبر خطوة كبيرة لنشر مبادئ التسامح الدينى ، وهو التسامح الذى دلت الحروب الصليبية على أنه ينبغى أن يحل محل التعصب الدينى الذى زج بالعالم كله فى أتون هذه المحنة .

ومن المؤرخين الذين يرون أن ريتشارد كان مخلصا فى عرضه السيد ميرعلى فى كتابه « موجز لتاريخ العرب » حيث يقول : ولو قد رضى القساوسة عن هذه الزيجة ، وسمحوا بها لكانت حدثا هاما ننظر إليه على أنه جسر عظيم يعبر عليه السلام العالمى، الذى تحلم به البشرية اليوم [1] .

ولكن من المؤرخين من يرون أن هذه الفكرة كلها كانت خداعا وتمويها من ريتشارد وقد أدرك ذلك الملك العادل نفسه فإن الفكرة التى عرضها ريتشارد لاقت قبولا عنده ، ولكن ريتشارد عاد إليه يقول : إن الأميرة رفضت أن تمكن نفسها من مسلم ، فما عليك إلا أن تعلن اعتناقك للمسيحية ولو فى الظاهر لتذليل تلك العقبة .. عند ذلك أدرك العادل أن هذه الفكرة كانت مكرا وخديعة ، فصرف نظره عن الموضوع [2] .

مرض ريتشارد

وعلى أى حال فإن فشل هذا العرض لم يمنع الاستمرار فى المفاوضة ، فقد كان ريتشارد واسع الدهاء ، وقد طمع فى سماحة صلاح الدين وطيب قلبه وكرمه وحدث أن تعرض ريتشارد لمرض شديد ألزمه الفراش وألح عليه المرض وسمع صلاح الدين بمرضه فكان يرسل إليه الأطباء ليعالجوه ، ووصف له الأطباء الفاكهة والثلج فكان صلاح الدين يرسل إليه ذلك .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٤٨ .

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٢٥٢ .

ويبدو أن كرم صلاح الدين معه ترك أثره فى أنه بدأ يخفف من تشدده فى مطالبه التى كان يطلبها فى الصلح ، وكتب رسالة لصلاح الدين يقول له فيها :

أيها السلطان العظيم ، تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه لو لم يبق منا إلا رجل واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خُشبة عندكم لا مقدار لها ، وهو عندنا عظيم فليمن به السلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا التعب ونعود إلى بلادنا وممالكنا .

فكتب إليه السلطان يقول له :

أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا تتصوروا أننا ننزل عنه ، وأما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى من هذه القربة .

إن أسلوب رسالة ريتشارد يشير إلى استعداده للتنازل ، لقد ترك لهجة التشدد التى كان يتحدث بها قبل ذلك .

ويبدو أن الخلاف الشديد الذى حدث بين ملوك اوربا جعل ريتشارد يميل إلى التنازل عن كثير مما كان يطمع فيه .

خلاف بين الصليبيين

لقد استشرى الخلاف بين الصليبيين إلى درجة التآمر وارتكاب الجرائم للتخلص من المناوئين .

وكان بدء الخلاف بين ملك فرنسا وملك انجلترا ، وقد أدى هذا الخلاف وشدته إلى أن ترك ملك فرنسا الميدان وعاد إلى بلاده .

ولم يلبث الخلاف أن تجدد بعد رحيله بين الأمراء ، فقد تخاصم « كونراد » و «جاى

لوزجنان ، تخاصما شديدا إلى درجة استعانة كونراد بصلاح الدين ، وسبب هذا الخصام أراد أن يعين كونراد ملكا على بيت المقدس ، تمهيدا لأن يترك له الأمر ويعود إلى بلاده ، ولكن كونراد لم يرض بذلك .

وقد عقد ريتشارد مؤتمرا بين الصليبيين لاختيار أحد الرجلين ، فرجحت كفة كونراد لما تميز به من صلابة وشدة وشجاعة .

ولم يعجب ذلك ريتشارد فدس له من يقتله غيلة ، يقال : إنه استعان بالإسماعيلية الحشاشين فى ذلك ، فتسلل إليه بعضهم فاغتالوه فى ٢٨ من إبريل سنة ١١٩٢ م .

وقد ترك ذلك أثره بين الصليبيين .

ومع ذلك فلم يعين ريتشارد جاى لوزجنان ملكا على بيت المقدس لنفور الصليبيين منه وعين هنرى دى شامبنى فى هذا المنصب ، وزوجه من إيزابيل أرملة كونراد .

أما جاى لوزجنان فقد جعله حاكما على جزيرة قبرص ، وقد أسس فيها أسرة صليبية ظلت تتوارث الحكم فى هذه الجزيرة طيلة ثلاثة قرون تقريبا .

عودة إلى مفاوضات الصلح

لم ييأس ريتشارد من رد صلاح الدين عليه ، فقد عاد وأرسل إليه رسالة أخرى بعد أن عين هنرى دى شامبنى نائبا عنه وقال له فى هذه الرسالة :

أيها السلطان العظيم : هذا ابن أختى قد ملكته البلاد وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ومشيئتك ، ولو قد دعوتهم إلى أن يشنقوا لسمعوا وأطاعوا ، ثم إن جماعة من الرهبان قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا طلبت منك كنيسة واحدة وأمورا جرت فى المراسلة فتركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى خرابة لقبلتها.

وحين قرأ السلطان هذه الرسالة وجد فيها ملاينة غير تلك الرسائل التى كانت ترد إليه قبل ذلك وجمع صلاح الدين رجاله الذين يستشيرهم فى أموره وطلب منهم الرأى فى الجواب عن هذه الرسالة .



وقد أشاروا عليه بالملاينة والرغبة فى الصلح .

فقال صلاح الدين : والذى نفسى بيده ، لا أحب الصلح الآن ولا أرضى به ولا أعمل له ..

فقال القاضى ابن شداد : لم ذلك يا مولاى ؟

فقال صلاح الدين : لأنى أعلم أننا متى صالحناهم لا نأمن غائلتهم ، فقد عرف عنهم الغدر وخبث الطوية ، وعساكرنا اليوم مجتمعة وعلى أهبة القتال ، ولو فرض وحدث بى حادث الموت الآن فإن هذه العساكر لا تجتمع بعد ذلك أبدا ومصلحتنا أننا نستمر فى جهادهم حتى نخرجهم من كل شبر من أرضنا أو يأتينا الموت ..

ولكن السّأم من الحرب قد ترك أثره فى نفوس القوم ووجدوا أن الاستجابة للصلح أوفق فمالوا له ، وكلموا السلطان فى ذلك . .

فاستجاب صلاح الدين لهم وكتب للملك ريتشارد هذه الرسالة :

أيها الملك ، أما إذ دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإن ابن أخيك هذا يكون عندى كبعض أولادى ، وستعلم ما أنا صانع به ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس عندكم وهى كنيسة القيامة ، وأما بقية البلاد الساحلية فالتى بيدك تظل بيدك ، والذى بأيدينا من القلاع يكون لنا ، وما بينهما مناصفة ، وأما عسقلان فتبقى خرابا لا لنا ولا لكم والسلام . .

وكان ريتشارد حريصا على أخذ عسقلان ، ولكن صلاح الدين رفض الاستجابة له فى ذلك ، وهدده بالاستمرار فى الحرب إلى مالا نهاية حتى يمن الله عليه بالنصر أو يموت دون ذلك . .

وحاول ريتشارد توسيط الملك العادل فى استجابة السلطان له فى ذلك ، فرفض العادل أيضا . . وأخيرا تنازل ريتشارد عن طلب عسقلان على أن يسمح له بيافا بدلا عنها . .

ووافق السلطان على ذلك . . .

وتم الصلح المشهور بصلح الرملة الذى تم سنة ٥٨٨هـ ـ ١١٩٢ م

وأهم بنود هذا الصلح ما يأتى :

* أن يستقر الصليبيون فى الشريط الساحلى الممتد من صور إلى حيفا .
* أن يسمح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها .
* أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر .

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدا بلاده وفى الطريق وقع أسيرا فى يد «ليوبولد» دوق النمسا الذى سلمه إلى الإمبراطور هنرى السادس الذى لم يفك أسره إلا بعد أن دفع فدية كبيرة .

ويقول رنسمان فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية : إن ريتشارد قلب الأسد ركب سفينة كسرت فى اليم ، ولكنه استطاع أن يصل إلى الشاطئ سالما ، ثم توغل فى أرض النمسا ، وتنكر إلى أن عرف فى يوم ١١ من ديسمبر سنة ١١٩٢م فى إحدى الحانات بالقرب من مدينة فينا ثم اقتيد إلى الدوق ليوبولد الذى اتهمه بقتل الأمير كونراد مونتفرات وسلمه إلى الإمبراطور هنرى السادس الذى ظل عنده أسيرا حوالى سنة ، حتى أطلقه فى مارس سنة ١١٩٤م بعد أن دفع فدية كبيرة ، وظل يجاهد ضد خصوم حكمه من الأمراء حتى أدركته طعنة سهم من إحدى القلاع الثائرة فى ٢٦ من مارس عام ١١٩٩م (١) .

وانطوت صفحة رجل حارب الإسلام والمسلمين وقتا طويلا .

بطولة النهاية وحسن الخاتمة

بصلح الرملة تنفس صلاح الدين الصعداء ، وأدرك أنه قطع شوطا كبيرا فى تحقيق ما كان يهدف إليه من تطهير البلاد الإسلامية من أقدام المستعمرين ولو أن جنده أطاعوه ولم يختلفوا عليه ، لمضى فى طريقه إلى النهاية حتى يوفى بنذره الذى نذره لله كاملا ..

ولكنه نظرفإذا بالعزائم قد خارت ، والنفوس قد ضعفت ، والهمم قد تضعضعت ،

---

(١) صلاح الدين الأيوبى د/ جمال الدين الرمادى ص ٤٨ .

فقبل هذا الصلح على أمل أن يتجدد نشاط المجاهدين ، وتستريح سواعد المحاربين ، ثم يعودوا بعد نهاية الهدنة إلى استئناف الجهاد فى سبيل الله حتى يتحقق وعد الله .

ويمجرد توقيع الصلح استقرت حالة السلم فى البلاد وعادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين ، وأقبل الحجاج من مختلف البلاد على بيت المقدس يزورونه ويحجون إليه فى أمن وسلام .

وانطلق المسلمون كذلك يجوبون أنحاء البلاد الإسلامية دون خوف أو قلق وأخذت التجارة تنتعش كما كانت قبل الحرب ، وذهب الحجاج والمعتمرون إلى بيت الله الحرام ومدينة المصطفى ﷺ دون حراسة أو خفارة ، بعد أن بسط المسلمون سلطانهم على كافة الأماكن التى كان يعسكر فيها الصليبيون ، ويقطعون منها الطريق على الحجاج ، فقد استولى صلاح الدين على الكرك والشوبك وهما القلعتان اللتان كان يسيطر عليهما ارناط اللعين الذى وفى صلاح الدين بنذره لله تعالى فى أن يقتله بيده إن ظفر به ، وقد ظفر به فى حطين كما علمنا ثم لم يلبث بعد ذلك أن استولى المسلمون على حطين . .

واستقر صلاح الدين فى بيت المقدس فترة من الوقت بعد توقيع الصلح .

إجراءات قام بها فى القدس

وقام السلطان صلاح الدين بعدة إجراءات فى القدس فى أثناء إقامته بها ، وصام بها شهررمضان ، وكان يستقبل فيها بعض كبار الأمراء الوافدين لزيارة بيت المقدس من البلاد الأوروبية ، وكان يكرمهم كعادته أعظم الإكرام .

وكان قد عزم علي العودة إلى مصر بعد العيد . . ولكن ذلك لن يكون قبل الذهاب إلى دمشق . .

فلما كان خامس شوال سنة ٥٨٨ هـ خرج من القدس متوجها إلى دمشق الفيحاء . . بعد أن عين عز الدين جورديك نائبا عليها ، وبهاء الدين بن يوسف بن رافع بن تميم الشافعى قاضيا عليها . .

وسار يتفقد أحوال البلاد فى طريقه إلى دمشق حتى وصل إليها بعد غيبة عنها تقدر بأربع سنين قضاها كلها فى جهاد متواصل لم يسترح فيها يوما واحدا . .

واستقبلته دمشق يوم وصوله إليها بفرحة غامرة وبهجة عظيمة حتى أطلق على هذا اليوم يوم الزينة . .

وحق لأهلها أن يبتهجوا بقدوم السلطان عليهم ، وهوالذى قهر عدوهم وطهر بلادهم ورد إليهم كرامتهم ، ووحد صفوفهم وأزال البؤس عنهم ،ونشر العدل والمساواة بينهم . .

لقد رفع عن كواهلهم الضرائب و المكوس ، وذكرهم بأيام الخلفاء الراشدين بل لقد شهدوا فى ظله أيام عمر بن عبد العزيز الذى حكم دمشق فترة قصيرة من الزمن زهت الخلافة الإسلامية فى خلالها وارتقت مكانة الأمة الإسلامية إلى أوج عزتها ومكانتها . .

كان من الشعر الذى استقبل به صلاح الدين فى أثناء دخوله دمشق قول بعضهم ـ فيما يرويه ابن كثير ـ :

وأبيها لولا تغزل عينيها ... لما قلت فى التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك الناصر ... وإلى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك بالعدل ... مثلما أوسع البرية برا
فيحل الأعياد صوما وفطرا ... ويلقى الهناء برا وبحرا
نلت ما ترجى من الدين والدنيا ... فتيها على الملوك وفخرا
قد جمعت المجدين أصلا وفرعا ... وملكت الدارين دنيا وأخرى[1]

عزم على الحج

وكان فى أثناء إقامته فى القدس وبعد الاتفاقية قد عزم على أداء فريضة الحج ، لقد وجدها فرصة مواتية بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، فيزور الرحاب المقدسة

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥١ .

التى طالمـــا اشتاق إليها ، وهفت روحه إلى زيارتها . . وإنه لجدير أن يقوم بهذه الزيارة المفروضة وهو الموكل من قبل الحق برعاية هذا المكان المقدس والرحاب الأقدس . .

ولا يمكن أن تتم هذه الزيارة دون إعلان رسمى فأمر بإعلان ذلك فى مختلف الديار الإسلامية .

ولكن ما إن علم القاضى الفاضل وهو المستشار المؤتمن والوزير الناصح حتى بادر بالكتابة إلى السلطان يثنيه عن ذلك خوفا على البلاد من غدر الفرنج وتأهبهم للعودة إلى الأماكن التى جلوا عنا فى أثناء غيبة السلطان عن الديار ، إنهم قوم لا عهد لهم ولا ذمة ، وهم إنما يخافون وجود السلطان وحضوره فمتى علموا بخلو البلاد منه اغتنموها فرصة فعادوا ، ولا يوجد القائد المحنك الذى يقدر على مواجهتهم مثل صلاح الدين ، خاصة وأن العدو مازال مخيما بالشام ، ومقيما فى عكا وبعض البلدان . .

واقتنع صلاح الدين بهذا الرأى ، فأرسل إلى القاضى الفاضل يشكره ويثنى عليه ، وكتب إلى البلاد بإرجاء عزمه على الحج إلى عام آخر . .

يقضى وقته فى الإصلاحات

ووجه همه إلى القيام بالإنشاءات والإصلاحات وإزالة المظالم ، وكان قد أمر بإقامة مستشفى فى بيت المقدس ، وترك الإشراف على تنفيذها إلى صديقه القاضى ابن شداد . كما عهد إليه بالإشراف على المدرسة التى أنشأها هناك . .

وتفقد القلاع الساحلية كلها ، وعمل على سد خللها وإصلاح أمور جنودها ومدها بالرجال والمعدات اللازمة لها . .

وفى أثناء إقامته فى دمشق تفرغ للعدل ورفع المظالم عن الناس . حتى لهج الجميع بالثناء عليه ، ولم يكف فى أثناء ذلك عن الإصلاح والتعمير حتى أصبحت دمشق إلى جانب ما كانت عليه من حسن وبهاء آية فى ذلك . . .

ولدمشق فى نفس صلاح الدين منزلة خاصة ، فهى دار نشأته ، وملعب ألفته ،

وقد تفتحت عينه على جمالها ، وائتنس فى صغره مع لداته ورفاقه بمفاتن غوطتها وروعة فتنتها . . .

وقد أنساه جمال دمشق ، واجتماع أهله حوله بعد أن ألحقوا به ما كان قد عزم عليه من العودة إلى مصر مؤقتا . . فقد وجدها فرصة للاستمتاع بجمع الشمل مع الأهل ، وقد بعد العهد بينه وبين هذا الاجتماع بسبب الانشغال الدائم بتعبئة الجيوش وجهاد العدو . .

وأخذ صلاح الدين وأخوه الملك العادل الذى ناب عن السلطان فى إبرام اتفاقية الرملة والتوقيع عليهابدلا منه ، وأولاده يقضون الوقت فى ممارسة الرياضة والصيد استجماما مما كان فيه من تعب ونصب . .

وانتظر السلطان قدوم الحجيج فى يوم الاثنين الحادى عشر من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . . فخرج لاستقبالهم ، وكان قد أمر بإقامة حفل كبير بهذه المناسبة ، أراد أن يتنسم فيه عبير الحرمين المقدسين مع هؤلاء القادمين منها ، وكأنه يحاول أن يعوض بذلك ما فاته من مشاركتهم فى هذه الرحلة وقد كان عازما على ذلك عزما أكيدا لولا تخويف القاضى الفاضل له من نقض الصليبيين العهود .

ونزل السلطان من قلعة دمشق ، وشارك فى استقبالهم بنفسه ومعه أخوه سيف الدين صاحب اليمن ، ووجوه الدولة ، وأحاط الناس بصلاح الدين فى ذلك اليوم ، وقد أراد كل منهم أن يكون له نصيب فى مصافحة السلطان والتزامه ، يفعل ذلك حبا له ، واعترافا بفضله ، واعتزاز ا به . . .

لقد خشى ابن شداد القاضى عليه فى ذلك اليوم الذى ترك فيه الاحتياط لنفسه ، والأعداء قريبون ، والحاقدون كثيرون ، وأصحاب النفوس الحقيرة لا يتورعون فى أن يفعلوا أى شئ لا يرعون عهد الله ، ولاذمة الإسلام . . .

وعاد صلاح الدين من هذا الحفل كليلا مريضا يرجف من الحمى ، وقضى ليلة مسهدة لا يغمض له فيها جفن . .

ولزم الفراش ، والمرض يتزايد عليه . .. والأطباء لا يستطيعون إيقافه ، لقد حم



القضاء . . وصدق ما قاله أبو فراس الحمدانى :

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له برٌّ يقيه ولا بحر

ولكن الأصل فى ذلك وأصدق القول فيه قول الحق ـ جل وعلا ـ **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**

ولنقرأ ما كتبه القاضى ابن شداد يصف لنا مرض السلطان الذى أدى إلى وفاته :

قال: « أصبح السلطان متكاسلا على أثر الحمى ، حتى حضرت أنا والقاضى الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه طول الليل ، وطال له الحديث إلى قرب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، وفى اليوم الثانى تقدم السلطان إلينا بالحضور إلى الطعام فى صحبة ولده الملك الأفضل ، ومد الطعام وجلس الأفضل سهوا فى مكان أبيه فاستوحشنا ، وبكى الجميع لجلوس ولده فى موضعه .

« ثم أخذ المرض يتزايد منذ حينئذ ، ونحن نلازم التردد عليه طرفى النهار ، وأدخل إليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مرارا ، وذلك حتى انتهى إلى غاية الضعف ، وجلسنا فى سادس مرضه ـ أى فى سادس يوم لمرضه ـ وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقب دواء قد شربه لتليين الطبيعة ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا شدة حره ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من شدة برودته ، ولم يغضب، ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله ألا يمكن لأحد تعديل الماء ؟

« فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد البكاء ، والقاضى الفاضل يقول: انظر إلى هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على فقدها ، والله لو أن هذا لبعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره .

« . . . ولما كان السابع والعشرون من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة اشتد بالسلطان المرض ، وضعفت قوته تماما . واستدعيت أنا والقاضى الفاضل وابن الزكى وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمرنا أن نبيت عنده فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا ؛ لأن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة ، وخاف إن نحن لم ننزل أن يقع الصوت

فى البلد ،وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة إلى جانب السلطان ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل كان معه ، وحال بينه وبين النساء ، وذكره بالشهادتين وذكره بالله تعالى ، ففعلنا ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه التى بين جنبيه .

« وغاب ذهن السلطان فى تلك الليلة ، وإلى جانبه الشيخ أبو جعفر يتلو القرآن . فلما انتهى الشيخ إلى قوله تعالى ﴿**هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة . .** ﴾ سمعه يقول صحيح ، صحيح .

ثم لما أتى إلى قوله تعالى : ﴿**لا إله إلا هو عليه توكلت** ﴾ تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى بارئها [(١)] . . .

ولقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعا كالصاعقة ، يقول ابن شداد : كان يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين . وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى ،وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا ضربا من التجوز والترخص إلا فى هذا اليوم ، فإنى قد علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس . . .

كان رحمه الله ردءا للإسلام ، وحرزا وكهفا له من كيد الكفرة اللئام ، وذلك بتوفيق الله له .

ثم دفن فى داره بالقلعة ، ثم شرع ابنه فى بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم لوصيته بذلك قديما . . ثم نقل إليها بعد تمامها فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

ودفن معه سيفه الذى حارب به الكفار وذلك عن رأى القاضى الفاضل ، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه حتى يدخل الجنة إن شاء الله تعالى [(٢)] .

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣ .



ورثاه الأدباء والخطباء والشعراء ، ومن جملة ذلك ما قاله العماد الأصفهانى :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
اين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ، ولربه طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته ؟
اين الذى مازال سلطانا لنا ... يرجى نداه ، وتتقى سطواته ؟
أين الذى شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
أين الذى عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ومنها أدركت ثاراته ؟
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته
لذ المتاعب فى الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قط لذاته لذّاته
مسعودة غدواته ، محمودة ... روحاته ، ميمونة ضحواته
لا تحسبوه مات شخصا واحدا ... قد عم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محاميا ... أبدا إذا ما أسلمته حُماته
لو كان فى عصر النبى لأنزلت ... فى ذكره من ذكره آياته
ياراعيا للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاته
ماكان ضرك لو أقمت مراعيا ... دينا تولى مذ رحلت ولاته
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل ... فوق السماء عليّة درجاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما ... رضوان رب العرش ، بل صلواته[1]

أخلاق فى القمة

لم يتربع صلاح الدين على عرش القلوب بمجرد انتصاره على الصليبيين فى حروبه معهم فقط ولكنه تربع على عرش القلوب مع ذلك بما بلغه من غاية مثلى فى

---

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة ج ٢ ـ صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ١٣٠ .

أخلاقه الرفيعة وخصاله الحميدة . .

قد ينتصر الملوك والزعماء على خصومهم ويبنون مجدا ، ولكنهم قد لا يحتلون مع ذلك في نفوس شعوبهم تلك المنزلة الرفيعة التي احتلها صلاح الدين في نفوس المسلمين ...

إن المنزلة العليا التي احتلها صلاح الدين احتلها بالمبادئ السامية التي تحلى بها وفي مقدمة ذلك . . .

* الزهد والتواضع . . ولا أدل على ذلك من أنه حين مات لم يترك ثروة ولا مالا ، لم يوجد في خزائنه حين مات سوى دينار واحد . .

دينار واحد في خزانة سلطان العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه يا سبحان الله ، ما أشبهه في ذلك بالأئمة الراشدين الذين أعرضوا عن الدنيا وزخرفها ، لأنها لا تغني عنهم من الله شيئا ، والزهد في الدنيا هو مفتاح الحب للقلوب ، وقد جاء في الأثر : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس .

قال ابن كثير : مات صلاح الدين ولم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئا من أنواع الأملاك .

قال : وإنما لم يخلف أملاكا لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه . . .

وكان متواضعا ، يعمل بيده مع جنوده ، ولا يترفع عليهم ، وكان مثلا أعلى لهم في الجهاد ، حين يأمرهم بأمر يكون لهم قدوة فيه .

وكان متقللا في ملبسه ومركبه ،وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ، ولا يعرف أنه تخطى إلى مكروه ،ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك ، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصرة الإسلام وكسر أعدائه .

ومما يشير إلى تواضعه وحيائه ما يحكيه الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه عنه : قال : قيل : إن رجلا من خدم السلطان رمى رجلا آخر بحذاء كان في يده ،



فاجتاز الحذاء الخادم إلى السلطان وكان فى داخل خيمته .

فما كان من السلطان إلا أن أدار وجهه ، وانتحى به ناحية أخرى حتى لا يحرجهما، إلى أن ابتعدا عنه حياء وخجلا [1] .

فما أبدع هذه الأخلاق الرائعة التى يتحلى بها أكبر الرؤساء فى عصره الذى ترتعد فرائص ملوك أوربا من بأسه ، وهو مع ذلك يراعى شعور خدمه ويأبى أن يحرجهم .

وهؤلاء ما تجرءوا بهذه الصورة حين يلهون ويلعبون قريبا منه إلا لما أنسوه فيه من دماثة الأخلاق ولين الجانب وشدة التواضع وكثرة الحياء .

تقواه وصلاحه

* وكان تقيا صالحا ورعا ، يخشى الله ، ويحسن الظن به ، ويعتمد عليه ، لم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل ، حتى ولا فى مرض موته ، كان يدخل الإمام فيصلى به ، فكان يتجشم القيام مع ضعفه .

قال ابن شداد عنه : كان رحمه الله حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى وقد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم .

وكان يواظب على السنة والرواتب ، وكانت له صلاة يصليها إذا استيقظ بالليل وإلا أتى بها قبل قيام الفجر . .

قال ابن شداد : لم يترك الصلاة قائما فى أثناء مرضه إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه ، وكان فى أثناء سفره إذا أدركته الصلاة ينزل ويصلى . .

وكان يحب الاستماع للقرآن الكريم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط فيه أن يكون عالما بعلوم القرآن متقنا لحفظه ، وكان خاشع القلب غزير الدمعة . .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٦٨ .

وكان يحب سماع الحديث ، وقد رأينا أنه كان حريصا على حضور مجلس الحافظ السلفى فى أثناد وجوده فى الإسكندرية ، كما كان يحب سماعه من غيره أيضا . .

وكان معظما لشعائر الدين حريصا على إقامة أركانه، مبغضا للفلاسفة ، وقد أمر بقتل « السهروردى » الفقيه الصوفى لأنه بلغه عنه أقوال تعاند الشريعة ، وربما زيف الناس عليه ذلك ، ووشوا به ظلما ، وكان ولده يتعلم على يديه ، وقد تعلق بهذا الشيخ فتوهم أنه يفتنه عن دينه فقتله سنة ٥٨٦ هـ بقلعة حلب فقال السهروردى شهاب الدين عمر الأبيات التالية وهو يجود بنفسه :

قل لأصحاب رأونى ميتا ... فبكونى إذ رأونى حزَنا
لا تظنونى بأنى ميت ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... طرت عنه فتخلى رهنا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها ... فترون الحق حقاً بيِّنا
لا ترعكم سكرة الموت فما ... هى إلا بانتقال من هنا [١]

وسنتحدث ـ إن شاء الله ـ عن هذه القصة فى موضع آخر ، وما أشرنا إليها هنا إلا للاستشهاد على حرص صلاح الدين على الدين وسلامة العقيدة .

وكان صلاح الدين يحسن ظنه بالله ، ويثق به تمام الثقة ، إذا حزبه أمر يفزع إليه، ويتضرع إليه حتى تنجلى الغمة ، وقد مر بنا قريبا دليل على ذلك .

والجهاد كما قال صاحب الشرع ﷺ هو ذروة سنام الإسلام ، وكان صلاح الدين شغوفا به ، وقف جهوده عليه وكان شغله الشاغل به وما قبل الهدنة التى قبلها أخيرا إلا تحت إلحاح القادة والأمراء أما هو فقد كان يود أن يستمر فى الجهاد حتى ينجلى وجه الكفر تماما عن كل شواطئ الشام .

ومن الشواهد التى ذكرها الرواة على إقباله على العبادة والجهاد مارواه ابن كثير قال : لما رجع السلطان من حطين إلى دمشق وجد الصفى بن الفايض وكيل الخزانة

---

(١) المنتخب من أدب العرب ج ٢ ص ٢٠ لأحمد الاسكندرى وأحمد أمين و على الجارم .

قد بنى داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلى ، فغضب عليه وعزله ، وقال له : إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد ،وإنما خلقنا لعبادة الله تعالى والجهاد فى سبيله ، وهذا الذى عملته يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له [1] .

وبعد توقيع هذه الهدنة كان يحدث نفسه بالجهاد أيضا ، فقد ذكر ابن كثير قال : خرج السلطان صلاح الدين وأخوه العادل إلى الصيد شرقى دمشق ـ بعد إقرار الهدنة ـ وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم ، ويبعث أخاه إلى بغداد ، فإذا فرغا من شأنهما سارا معا إلى بلاد أذربيجان بلاد العجم ، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها [2] .

هذا أمل كان يراوده . . وابن زيدون شاعر الأندلس يقول :

ما أمتع الآمال لولا أنها   تعتاق دون بلوغها الآجال

* عدله ورحمته ، وقد كان صلاح الدين عادلا رحيما . . ويحدثنا الرواة أنه كان يجلس فى الأسبوع مرتين : الاثنين والخميس ، لإقامة العدل بين الناس ، ويحضر مجلسه معه الفقهاء والقضاة والعلماء . .

وما تقدم أحد بمظلمة إلا ورجع منصوفا ـ وحدث مرة أن تقدم تاجر اسمه عمر الخلاطى يخاصمه نفسه ، ويدعى عليه أنه اغتصب منه أحد مماليكه واسمه « سنقر » واستولى على ماكان لهذا المملوك من ثروة طائلة ، فتحول صلاح الدين إلى مجلس الخصوم بين يدى القاضى ابن شداد . .

وأظهر صلاح الدين حلما كبيرا ،وأخيرا تبين للقاضى أن المدعى ليس له وجه حق ، وأن ادعاءه باطل لا أساس له .

ولكن صلاح الدين لم يغضب على المدعى ، بل أمر له بمال وعفا عنه ، وخلع عليه [3] .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٩ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢

(٣) اقرأ القصة فى صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة ص ١٥٦ .

وبلغ من رحمته وعدله أنه أعفى الناس من الضرائب فى طول البلاد وعرضها ، وأبطل المكوس التى كانت من الناس ظلما ، وبخاصة فى الحجاز وقد تنفس الناس الصعداء ،وفرحوا فرحا شديدا بذلك ، حتى لقد أنشد الشعراء شعرا فى ذلك ، ومن ذلك قول ابن جبير الرحالة :

رفعت مغارم مكس الحجاز ... بإنعامك الشامل الغامر
وأَمَّنْت أكناف تلك البلاد ... فهان السبيل على العابر
وسُحْبُ أياديك فياضة ... على وارد ، وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد ... وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عام ... بمكة من معلن جاهر
وحسبك أنطقنى بالقريض ... وما أبتغى صلة الشاعر

ولأن هذه المكوس كان يستغلها أميرمكة لنفسه فقد شق عليه إبطالها ، فما كان من السلطان ليستل سخائم النفوس إلا أن عوضه عن ذلك أكبر تعويض ، قال القاضى الفاضل : كان الرسم بمكة أن يؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد ، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدى ما عليه ، وإذا كان فقيرا لا يملك شيئا حبس ولا يترك ، ويفوته الوقوف بعرفة ، فقال السلطان : نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ، وإن أعطيناه ضياعا استوعبها ،ولا يكون لأهل مكة فيها نصيب ، فقرر معه أن يحمل إليه فى كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح إلى ساحل جدة ، فإن الأمير يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها ، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين ، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وقال القاضى الفاضل : من البشائر التى لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها ولا عهد لملك من ملوك مصر بالحصول على فخرها وأجرها انقطاع المكاسين عن جدة وعن بقية السواحل ، ويكفى أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله فى الحج، فقد كانت النية على سقوطه مع وجود الحائل ، وما أكثر ما أجرى الله على يد

المولى من الأرزاق التى تفضل عن الاستحقاق [1] .

لاشك أن إسقاط الضرائب والمكوس ينطقان بالعدل ، كما ينطقان بالرحمة ، والعدل والرحمة قرينان متلازمان . .

ورحمة صلاح الدين لا تحتاج إلى دليل بعد أن رأينا أنها وسعت الناس جميعا حتى الأعداء أنفسهم ، وقد رأينا كيف صنع بهم حينما فتح القدس .

* عفوه عند المقدرة وتسامحه . وهذا الخلق أيضا كان صلاح الدين قمة فيه وطالما قدر على أعدائه فعفا عنهم ، فى الوقت الذى كان قادرا على أن يكيل لهم الكيل كيلين ، أو على الأقل يعاملهم بمثل معاملتهم ، ولكنه تركهم وعفا عنهم ما عدا ذلك الذى نال من قدر النبى ﷺ فقد كان لزاما عليه أن يعاقبه على قدر جرمه ، ويوفى نذره الذى نذره بقتله لو ظفر به ، ولو قصر فى ذلك لكان مقصرا فى ذات الدين .

أما عفوه عن أهل دينه حين يخطئون فى حقه أو يتجاسرون عليه أو يتطاولون عليه فهو من باب أولى . .

ومما يشير إلى رحمته الشديدة أن امرأة صليبية ذهبت إليه تبكى فى حرقة أنّ ابنها ـ أو ابنتها ـ سرق منها ، فلما سمع شكواها دمعت عيناه ورق لها ،وطلب من جنوده أن يبحثوا لها عن ابنها ـ أو ابنتها ـ ومازالوا يبحثون حتى عثروا عليه وكان اللصوص قد سرقوه وباعوه ، فرد صلاح الدين من جيبه الثمن على البائع وأخذ الطفل ورده إلى أمه . .

فأخذت تدعو له وردّها إلى معسكرها معززة مكرمة .

* كان رحمه الله شجاعا صابرا ، لا يرهب الأعداء ولا يخشى بأسهم ، وكان يواجه العدو الكثير بمفرده أحيانا ،ومع ذلك كان الله ينصره عليهم .

---

(١) صلاح الدين بين شعراء عصره د/ أحمد بدوى ص ١٤٦ .

كان مع جنوده فى المقدمة دائما ، يصحبهم فى غدواتهم وروحاتهم ولا يتخلى عنه فى معاركهم ومناوشاتهم للعدو .

وحين تنعقد الأمور لا ييأس ، ولكنه يلجأ إلى الله ليفرج عنه الكرب ويجلى الغم .

يقول ابن شداد : ما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم ، وإذا مرت عليه المصائب الخاصة يصبر ويحتسب ، نعى إليه ابنه إسماعيل ـ وكان يحبه ـ فتجلد وصبر ولم يحدث أحدا ولم يظهر عليه شئ من الألم سوى دمعة ذرفت من عينيه ، قال ابن شداد : فانظر إلى هذا الصبر الجميل والاحتساب ، وإلى أى غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين (١) إن مناقبه كثيرة لا تحصى ،وبها وصل إلى هذه القمة الشماء التى تربع فوقها .

قال الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : إذا كانت شهرة صلاح الدين الواسعة فى التاريخ قد جاءت نتيجة لحسن بلائه وصبره على الجهاد ، وشجاعته فى مواجهة الأخطار فإن هناك جوانب أخرى فى شخصية هذا الرجل جديرة بالتسجيل ، وقمينة أن تضفى عليه مزيدا من الأهمية والعظمة فى التاريخ ، ذلك أن صلاح الدين لم يكن محاربا شجاعا شهما فحسب ، بل كان أيضا إنسانا كريم الخلق ، وحاكما عادلا ، أحب رعاياه وأحبوه لما لمسوه فيه من صفات سامية .

وإذا كان صلاح الدين قد نجح فى حروبه وحقق من الانتصارات ما عجز عنها كثير من القادة والحكام فى التاريخ فإننا ينبغى أن نذكر دائما أن جزءاكبيرا من الفضل فى ذلك يرجع إلى شخصية صلاح الدين وكرم أخلاقه ومحبة رجاله له ، ورب قائد فى التاريخ توافرت له من أسباب العظمة ووفرة الجيوش وقوة السلاح أكثر مما تو فر لصلاح الدين ومع ذلك لم يستطع أن يحقق جزءا مما حققه صلاح الدين من ظفر ونجاح (٢) .

(١) النوادر السلطانية ص ٥٠ .

(٢) الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٢٧٦ .

مآخذ على صلاح الدين

والكمال لله وحده ، والعصمة لأنبيائه ـ عليهم السلام ـ وإذا كان صلاح الدين قد كثرت مناقبه وفضائله ، وقد ذكرنا طرفا منها فيما سبق ، فإن الرواة ذكروا له بعض المآخذ ، ودافعوا عنها مع ذلك . . وعلى كل فما أصدق الشاعر بشار بن برد حين قال :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

لقد أخذوا عليه أنه كان مفرطا فى رحمته بالصليبيين وعفوه عنهم . وحجتهم فى ذلك أن كل الذين عفا عنهم بعد أن أسرهم هم الذين نقضوا عهده وحاربوه بعد ذلك ، وتجمعوا ضده وخذلوه . .

وأخذوا عليه أنه ترك الأسرى يتجمعون فى صور حتى تمكنوا بعد ذلك أن يشنوا عليه حربا صليبية ثالثة بعد أن توالت عليهم الإمدادات من الخارج ، والذين يدافعون عنه فى ذلك يقولون : إن الرحمة سجية فى النفس ومنحة من الله يفطر عليها القلوب ، ثم إن تصرفه مع أعدائه كان من منطلق الدين الذى يقول : **﴿حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾** [محمد : ٤] .

وحين أطلقهم صلاح الدين أخذ عليهم العهد والميثاق ، ولكنهم غدروا فغدرهم محسوب عليهم لا عليه . . ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، والغدر مرتعه وخيم . .

وقد مضى التاريخ وحسب صلاح الدين كل مفخرة فى حين سجل على هؤلاء الأعداء كل منقصة ومذمة .

ولقد شهد الأعداء أنفسهم بفضل صلاح الدين ، وتحدثوا عنه بإعجاب ، وصاغوا فى سيرته قصصا وبدائع ، بل إن خيالهم ذهب بعيدا حتى نسجوا أساطير يتغنى بها الأبطال والجنود ، ويقطعون بها أوقاتهم ،ويتخذون منها أمثلة فى الشهامة والشجاعة والتضحية والمروءة والفروسية .

ومهما أخذ المؤرخون على صلاح الدين إفراطه فى الرحمة والعفو عن العدو فإنهم لن يستطيعوا أن يغضوا من شأن فروسيته وأريحيته فى معاملة خصمه اللدود ريتشارد قلب الأسد فى أثناء مرضه . . .

ذلك هو نبل الفرسان الذى يأبى إلا أن يعامل خصمه فى أثناء محنته معاملة الصديق الحميم ، ذلك نوع من المثل العليا لا يطبقه إلا القليل ، وكان صلاح الدين من هذا القليل .

مقتل السهروردى

ومن المآخذ التى أخذت على صلاح الدين تورطه فى مقتل السهروردى ، وهو إمام من أئمة الفقه والتصوف والفلسفة ، وقد انساق فى قتله وراء بعض علماء حلب الذين افتوا بقتله .

لقد كان هناك فريق من المتصوفة أقرب إلى الفلاسفة ، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات وهؤلاء يعرفون بأصحاب التصوف النظرى ، إنهم يغلب عليهم حالات من التأمل والإغراق فى التفكير ، ويستخرجون من ذلك التأمل بتجارب فكرية .

وربما كان كلامهم يعسر فهمه على بعض الواقفين عند ظواهر الأمور فيتهمونهم فى دينهم .

كان السهروردى أحد هؤلاء النظريين فى التصوف ، له عبارات أشكل ظاهرها وردت فى كتبه الكثيرة مثل : حكمة الإشراق ، وهيا كل النور . .

وتعصب عليه بعض الفقهاء وكان أشدهم تعصبا عليه الشيخان زين الدين الظاهر ، ومجد الدين ابنا حميدة ، وقد ظلا يوغران صدر الظاهر ابن السلطان عليه ، وكان حاكم حلب فى ذلك الوقت .

وكان السلطان شديد التعصب للسنة ، ينفر من الفلسفة ، واستصدر علماء حلب فتوى بقتله بدعوى أن السهروردى معاند للشريعة ، فانساق صلاح الدين لرأى هؤلاء الفقهاء



وأمر ابنه الظاهر بقتله ، فقتله فى عام ٥٨٧هـ .

والمتأمل فى كلام السهروردى لا يجد فيه مروقا عن الدين ولا خروجا على الشريعة اسمع إليه يقول فى كتابه « هياكل النور » .

«وحد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان ، ولو كان فى الوجود شمسان لانطمست الأركان وأبى النظام أن يكون ما كان »[1]

انظر إلى هذا الكلام العالى وهو يقصد بالشمسين : الإلهين . . . وينظرفى ذلك المعنى إلى قوله تعالى ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ وقوله تعالى : ﴿**ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ المؤمنون : ٩١

لقد أول الحاقدون على السهروردى ـ وما أكثر الحقد بين الناس ـ كلامه على غير وجهه ، ورموه بالكفر والزندقة والإلحاد . .

واقرأ كلام السهروردى الذى يشهد بصدق توحيده لله ، وقوة اعتقاده فيه : « يا واحد الوجود ، ويا فائض الجود ، ويا جاعل القلوب والأرواح ، ويا فاعل الصور والأشباح يا نور الأنوار ، ومدبر كل الفلك الدوار ، أنت الأول الذى لا أول قبلك ، وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك ، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك ، والناس مقصرون عن معرفة كمال ذاتك »

لقد تورط صلاح الدين فى قتل هذا الرجل العارف . . وقد كان له عذره على أى حال لشدة غيرته على الشريعة ، وإثم ذلك لا يقع عليه بقدر ما يقع على هؤلاء المفتين الذين أعمتهم الغيرة عن الحق ، وتبين وجه الصواب .

ومن العجيب أن صلاح الدين الذى يتحامل على رجل مثل السهروردى ، ويأمر بقتله استجابة لرأى علماء الدين فى حلب هو صلاح الدين الذى يفتح صدره للدراويش وأصحاب التصوف العملى ، ويفتح لهم الخوانق ،ويكفل لهم الأرزاق ، ويجرى عليهم

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٥٨ .



العطايا ويحبس على مؤسساتهم التى أنشأها لهم الأوقاف الخيرية الكثيرة .

إنه كان يعتمد على هؤلاء فى إذكاء الحماسة بين الجنود وقد كان لهؤلاء شعبية يترتب عليها حشد الناس خلف صلاح الدين وتأييده فى جهاده ضد الصليبيين ، ولا يعدم فى الوقت نفسه أن يكون من بينهم من تستجاب دعوته فيتحقق النصر بفضل الدعوات الصالحات ، كما يتحقق بفضل حشد الجنود والاستعدادات وعلى أى حال فقد كان صوفى مستنير كالسهروردى له أثره السلبى فى التصوف ،فقد بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش لا تأبه بالعقل لا سيما فى عصر سلاطين المماليك الذين جاءوا بعد ذلك بسنين [١] .

والسهروردى المذكور هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أمبرك الملقب شهاب الدين السهروردى الحكيم المقتول ، وقيل : اسمه أحمد ، وقيل : اسمه عمر .

وقد ترجم له ابن خلكان فى وفيات الأعيان باسمه يحيى [٢] .

* * *

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ٢٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٥٦ .

الملك المصلح

إصلاحات فى القاهرة :

أمر صلاح الدين ببناء سور للقاهرة يحيط بها من أولها إلى آخرها قال العماد الأصفهانى فى ذلك : كان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر ـ يعنى الفسطاط ـ والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ وهذا هو السور الذى ما تزال آثاره باقية إلى وقتنا هذا ويطلق عليه الآن مجرى العيون. وقد بنى للقاهرة ـ كما يقول المقريزى ـ ثلاثة أسوار .

السور الأول بناه جوهر الصقلى حين أسس مدينة القاهرة ، وكان من لَبِن سنة ٣٥٨ هـ .

والسور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة وجعله من لَبِن أيضا وزاد فيه عما عمله جوهر الصقلى وجعل أبوابه من حجارة .

والسور الثالث ابتدأ فى عمارته صلاح الدين الأيوبى سنة ست وستين وخمسمائة أيام أن كان وزيرا للعاضد .

فلما كانت سنة تسع وستين وخمسمائة وقد استولى على المملكة انتدب للعمل فيه بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن .

وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا . فزاد فى سور القاهرة التى بين باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر .

وبنى قلعة المقس وهى برج كبير ، وجعله على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان فى أصله من السور المقسى إلى أن يتصل بسور مصر. إن الهدف من إنشاء هذا السور المحافظة على القاهرة وحمايتها من الغزاة .

قلعة الجبل :

القلعة ـ بتحريك القاف واللام والعين وفتحها ـ الحصن الممتنع فى الجبل وتجمع

على قلاع وقلع ، وأقلعوا بهذه البلاد أى بنوها فجعلوها كالقلعة وقيل فيها : القلْعة بسكون اللام .

وهذه القلعة التى نتحدث عنها مبنية من الجبل وهى تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر ـ الفسطاط ـ والقرافة الكبرى وبركة الجيش فى الجهة القبلية الغربية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، والمقطم من ورائها .

كان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء التى بناها حاتم بن هرثمة سنة خمس وتسعين ومائة حين كان واليا على مصر .

فلما تولى صلاح الدين أمر مصر أراد أن يجعل لنفسه معقلا أمينا فأمر ببناء هذه القلعة .

ويرجع سبب اختياره هذا المكان أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة ، فعلقه فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين وعهد إلى بنائها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وكان حكيما ماهرا صبورا محنكا ، فشرع فى بنائها مع السور ، قيل : إنه هدم عدة أهرامات صغار كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من أحجار فبنى بها السور والقلعة وقناطر الجيزة ومات السلطان صلاح الدين قبل أن يتم بناء القلعة والسور . وتمت فى عهد الملك الكامل بعد ذلك بسنين .

حوار بين صلاح الدين وأخيه

قال المقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر : سمعت حكاية تحكى عن صلاح الدين أنه طلع القلعة وهى تبنى ومعه أخوه الملك العادل ، فلما رآها التفت إلى أخيه وقال له: يا سيف الدين قد بنيت هذه القلعة لأولادك .

فقال الملك العادل : يا خوند ـ بمعنى ياسلطان ـ منّ الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا .

قال صلاح الدين : ما فهمت ما قلت لك ، أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء وأنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء . فسكت .

قال المقريزى : وهذا الذى ذكره صلاح الدين من انتقال الملك عنه إلى أخيه وأولاد أخيه ، ليس هو خاصا بدولته ، بل اعتبر فى الدول تجد الأمر قد انتقل من أولاد القائم بالأمر إلى بعض أقاربه .

وذكر على ذلك بعض الأمثلة ، فقال : هذا رسول الله ﷺ لما توفى انتقل أمر القيام بالملة الإسلامية إلى أبى بكر - رضى الله عنه - .

ثم لما انتقل الحكم من الخلفاء الراشدين إلى معاوية لم يفلح أولاده ، وانتقل الأمر منهم إلى مروان فتوارثها بنو مروان حتى قام العباسيون من بعدهم . . وهكذا

وحين مات صلاح الدين اختلف أولاده ، فانتقل ملك مصر والشام وديار بكر والحجاز واليمن إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب واستمر فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية .

وصدقت نبوءة صلاح الدين [1]

ماتزال القلعة التى شيدها صلاح الدين شاهدة على عظمة صاحبها وقد جددت فى العصر الحاضر ، وهى أحد معالم القاهرة البارزة التى يحرص السائحون على زيارتها ومشاهدة روعتها ودقة تصميمها وعظمة تشييدها .

من الذى أشرف على بنائها ؟

ولابد من الحديث عن ذلك المهندس الذى عهد إليه بإنشاء السور والقلعة ، إنه يناديناه من وراء ثمانية قرون يقول لنا :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

إنه بهاء الدين قراقوش الذى تعرض لحملة ظالمة من بعض المؤرخين حتى قرنوا اسمه بالظلم وأطلقوا حوله مثلا يشير إلى الحكم السيء فقالوا : « حكم قراقوش » وهو برىء من الحكم السيء كما هو برىء من الظلم . .

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٠ .



لقد كان الرجل مثالا فى العدل كما كان مثالا فى حسن التدبير ودقة النظام .

قراقوش

هو بهاء الدين بن عبد الله الأسدى . ونسبه الأسدى جاءته من انتسابه إلى أسد الدين شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ فقد كان قراقوش غلاما مملوكا له ، وانتقل معه إلى مصر ، وبعد وفاته انتقل إلى خدمة صلاح الدين وأخلص فى خدمته إخلاصا شديدا .

وعهد إليه صلاح الدين بأعمال عظيمة نجح فى القيام بها ، ونفذها بإحكام وكان أول ما عهد إليه أنه ولاه أمر القصر الفاطمى بعد وفاة العاضد وانتهاء الخلافة الفاطمية ، فأشرف عليه بأمانة وحفظ كل الممتلكات التى فيه ، وأحصاها بدقة ، إلى درجة أنه لم يستطع أحد أن يأخذ أى شىء من خزائن القصر ومقتنياته وذخائره وتحفه . مع كثرة هذه التحف وتناثرها فى جوانب القصر وتعرضها لأن تكون نهبة الناهب واختلاس المختلس ، وبخاصة فى فترة انتقال الحكم من يد إلى يد .

وعهد إليه صلاح الدين أيضا بمهمة إنشاء الأعمال الحربية ، وكان صلاح الدين قد شمر فى نية الجهاد ، وعزم على تكوين جيش قوى يستطيع أن يقارع الصليبين ، ويرد على تطلعات المناوئين والمنازعين .

ومن هذه الأعمال الحربية التى أشرف على تنفيذها بناء سور القاهرة العظيم ، وقلعة الجبل ، وسور آخر بناه تجاه الجيزة على حافة الصحراء الغربية ، كما عهد إليه أيضا بإقامة بعض الجسور وتطهير الترع وهى أعمال مدنية ، فنجح فى ذلك نجاحا كبيرا .

واستعان به بعد ذلك فى بناء سور عكا عام ٥٨٥هـ بعد استيلاء صلاح الدين عليها وظل يعمل فى ذلك حتى استعادها الصليبيون فحصر قراقوش داخلها .

وكان وجود قراقوش داخل عكا فى أثناء حصارها من العوامل التى طمأنت صلاح الدين على أهل عكا فوجوده سهل عملية توزيع الأقوات بنظام على المحصورين حتى إنهم لم يتعرضوا لمجاعة فى أثناء عامين وأكثر كانت المدينة فيهما محاصرة هذا على

ندرة القوت ووصوله بمشقة شديدة كانت تشبه المعجزات ، وقد سبق الحديث عن طرف من ذلك .

وتولى قراقوش بعد ذلك مناصب خطيرة فى حياة صلاح الدين وبعده وإليه يرجع الفضل فى المحافظة على عروش الملوك الذين جاءوا بعده .

من الذى وصف قراقوش بالظلم ؟

يرجع هذا الوصف إلى رجل أديب اسمه الأسعد أبو المكارم المشهور بابن مماتى ، ولد من أسرة مسيحية سنة ٥٤٤هـ

وكان أديبا مر موقا ، قربه القاضى الفاضل لأدبه وأحبه وشغل ابن مماتى منصبا خطيرا فى الدولة هو الإشراف على ديوان الجيش وديوان المال وهو منصب يساوى منصب وزير المالية الآن . ولكنه عزل عن هذا المنصب وطولب بمال كثير لم يستطع أن يدفعه فهرب .

وكان ابن مماتى هذا يحقد على قراقوش ، خاصة فى الفترة التى كان فيها نائبا فى مصر ينفذ ما عهد إليه صلاح الدين من مهام ، وصلاح الدين فى الشام ولعل سر الخصومة يرجع إلى ما يتمتع به قراقوش من ثقة السلطان من ناحية ، وإلى دقة فى التنفيذ وإخلاصه من جهة ثانية ، ثم إلى حاجته إلى المال لتنفيذ المشروعات اللازمة، وهذه ميزانية كبيرة ربما يضيق بها ذرعا أولئك الذين فى يدهم مفاتيح المال .

المهم أن ابن مماتى استغل قريحته الأدبية فألف كتاب يسخر فيه من قراقوش ، سماه : الفا شوش فى أحكام قراقوش .

وصاغه بأسلوب فكاهى مال إليه كثير من الناس ، وقرءوه ، واتخذوه مادة للسخرية وإزجاء الوقت دون التنبه إلى ما يضمه من أحكام عارية عن الصحة وبعيدة عن الصدق . .

قال ابن خلكان : ألف الأسعد بن مماتى كتابا فيه سماه : الفاشوش فى أحكام قراقوش ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإن صلاح

الدين كان يعتمد فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه(١) .

لقد تعرض قراقوش لحملة ظالمة أعان عليها غفلة الناس وجهلهم بحقائق التاريخ ، ووقوعهم فريسة كتاب ساخر مليء بالفكاهات العارية عن الصحة .

ولكن أعماله الباقية تشهد بعبقريته وفنه تستطيع أن تلمسها اليوم حين تشاهد روعة سور القاهرة العظيم ، أو تصعد إلى قلعة صلاح الدين فتشاهد عظمة المعمار وجمال البنيان .

توفى بهاء الدين قراقوش سنة ٥٩٧هـ بالقاهرة ودفن فى سفح المقطم ، وقراقوش لفظ تركى ، تفسيره باللغة العربية العُقاب الطائر.

إنشاءات وإصلاحات أخرى

من أهم الأعمال التى قام بها صلاح الدين فى القاهرة أنه عمل على إحياء السنة ، وكان لابد من إنشاء كثير من المدارس التى تقوم بهذه المهمة وبخاصة بعد أن أغلق صلاح الدين الجامع الأزهر الذى ظل مغلقا مائة عام حتى أعاد التدريس فيه السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى .

وسبب تعطيل التدريس فيه إبطال المذهب الشيعى الذى كان الأزهر قد أنشىء بسببه .

وأنشأ صلاح الدين المدرسة الناصرية فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة أيام أن كان يتولى الوزارة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وهى أول مدرسة أسست بمصر ، وأقيمت لتدريس المذهب الشافعى وكان صلاح الدين شافعى المذهب . وكانت تعرف أولا باسم المدرسة الناصرية نسبة للناصر صلاح الدين ثم عرفت بعد ذلك باسم شيخها الذى يدرس فيها وهو ابن زين التجار : أبو العباس احمد بن المظفر ابن الحسين الدمشقى ، وكان علامة المذهب الشافعى فى عصره ، وهو أول من تولى

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٨٣ .



التدريس بهذه المدرسة .

ولم يقتصر جهده على خدمة المذهب الشافعى ، بل عمل على إحياء مختلف المذاهب الإسلامية .

فقد أنشأ المدرسة السيوفية نسبة إلى سوق السيوف المجاورة له وقد وقفها السلطان صلاح الدين على نشر المذهب الحنفى ، وولى التدريس بها الشيخ مجد الدين محمد ابن محمد الجبتى وقرر له راتبا شهريا يقود بأوده ويفرغه لعمله .

ووقف صلاح الدين على المدرسة لتفى بحاجات طلابها اثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان .

وهذه أول مدرسة وقفت على الحنفية بمصر .

وشجع صلاح الدين الناس على انشاء المدارس بنية إحياء السنة فأنشأ القاضى الفاضل المدرسة الفاضلية فى سنة ثمانين وخمسمائة ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية .

وجعل فيها قاعة للإقراء ، أقرأ فيها الإمام الشاطبى صاحب الشاطبية ، وهو من أئمة القراء المشهورين ، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبى ، ثم الشيخ على ابن موسى الدهان وغيرهم .

وأنشأ بهذه المدرسة مكتبة كبيرة جمعت مختلف العلوم ، يقال : إنها كان بها مائة ألف مجلد ، وقد ذهبت هذه الكتب جميعا بعد وفاة القاضى الفاضل ، وسبب ذلك أن غلاء شديدا وقع فى مصر وأصاب الناس بسببه ضر شديد ، فكان الطلبة يأخذون الكتب ويبيعون المجلد برغيف خبز .

ولله فى خلقه شئون . والقصاص يكون حتى فى الكتب . فقد قيل : إن مكتبة العاضد التى كانت بقصره وكانت تحتوى على نفائس الكتب وبها ما قدره أبو شامة بألفى ألف كتاب ، وقع أغلبها فى يد القاضى الفاضل بطريق فيه شبهة .

قال أبو شامة : حصل للقاضى الفاضل قدر كبير منها حيث شغف بحبها وذلك أنه

دخل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه فى بركة كانت هناك .

فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنه مخردمات ، ثم جمعها بعد ذلك [١] .

فكما جمع القاضى كتبه بهذا الطريق سلط الله عليها من باعها بأبخس الأثمان . وهكذا : كما تدين تدان .

مصحف عثمان

وكان فى هذه المدرسة مصحف كبير القدر جدا مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان ، ويقال : إن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف عثمان ـ رضى الله عنه ـ ولا ندرى إذا كان هو المصحف الموجود الآن بحجرة المخلفات بمسجد الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ أم لا .

وأنشأ السلطان صلاح الدين مدرسة أخرى هى المدرسة الناصرية أيضا بالقرافة بجوار قبة الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أما المدرسة الناصرية الأولى فقد أنشئت بجوار الجامع العتيق ـ جامع عمرو بن العاص ـ

وهذه المدرسة أشرف على بنائها نجم الدين الخبوشانى الفقيه الشافعى المشهور ، وكان إماما عالما كثير الورع ، له فى الفقه الشافعى كتاب تحقيق المحيط يقع فى ستة عشر مجلدا .

ولما استقل صلاح الدين بمصر قرب هذا الإمام لفضله وإتقانه ، وأشار عليه بعمارة هذه المدرسة ، وولاه التدريس فيها وذلك فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وتوفى الخبوشانى سنة ٥٨٧ هـ ، ودفن فى قبة تحت رجلى الإمام الشافعى ، وبينهما شباك ـ رحمهما الله[٢] .

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٥٠٧ .

(٢) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٦٠ .

وأطلق السيوطى على هذه المدرسة اسم المدرسة الصلاحية ، ولعله للتفرقة بينها وبين المدرسة الأخرى المنسوبة اليه أيضا .

وذكر فى وصفها قوله : هى تاج المدارس ، وهى أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعى ، ولأن بانيها أعظم الملوك ليس فى ملوك الإسلام مثله لا قبله ولا بعده .

وجعل التدريس للشيخ نجم الدين الخبوشانى وشرط له عن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير ، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلا بالمصرى وراويتين من ماء النيل .

المدرسة القمحية

وأنشأ السلطان صلاح الدين المدرسة القمحية بجوار مسجد عمرو فى مصر القديمة وكان موضعها يعرف بدار الغزل ، فهدمها السلطان وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية سنة ست وستين وخمسمائة ، ووقف عليها قيسارية الوراقين وعلوها بمصر وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة .

وهذه المدرسة من أجل مدارس المالكية ، ويتحصل لهم من ضيعتهم بالفيوم قمح يفرق فيهم فلذلك صارت لا تعرف إلا بالمدرسة القمحية [١] .

المدرسة الصلاحية فى دمشق

وبنى فى دمشق المدرسة الصلاحية ، ويقال : إن الذى بناها هو نور الدين بالقرب من البيمارستان النورى وانما نسبت إلى صلاح الدين لأنه قام فيها بإصلاحات وزيادات استدعت هذه النسبة ، وهى مدرسة للشافعية وله فى دمشق مدرسة للمالكية أيضا [٢] .

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣١٦ .

(٢) صلاح الدين بين شعراء عصره ص ٣١ .

خانقاه سعيد السعداء

وأنشأ صلاح الدين خانقاه سعيد السعداء ، والخانقاه ـ أو الخانكاه وتجمع على خوانق وخوانك كلمة فارسية معناها : بيت ، وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . .

وقد انشئت الخوانق فى البلاد الإسلامية فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة وجعلت لإقامة الناس للعبادة والتفرغ لها بشرط الصلاح والإخلاص وصدق النية وقوة اليقين .

وحين تولى صلاح الدين الأمر فى مصر حول دار الأمير قنبر الذى لقب بسعيد السعداء إلى خانقاه ، ووقفها على الصوفية سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة وقيسارية الشراب بالقاهرة وأرضا أخرى .

وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد السفر يعطى أجرة سفره ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم ، فكانت أول خانقاه عملت فى الديار المصرية ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونُعِتَ شيخها بشيخ الشيوخ . .

وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكابر والأعيان .

وكان الناس يأتون فى يوم الجمعة من كل أسبوع إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة كى تحصل لهم البركة والخير .

واستمر الأمر على ذلك زمانا حتى فسد الناس وطلبت الدنيا بالدين .

إنشاءات فى أماكن أخرى

ولم يقتصر التعمير فى عهد صلاح الدين على القاهرة وحدها ، ولكنه تناول أماكن كثيرة .

وقد أنشأ قلعة فى شبه جزيرة سيناء على بعد سبعة وخمسين كيلو مترا إلى الشاطىء الشرقى من مدينة السويس ، وبنى فى الجهة الجنوبية من القلعة مسجد ين متجاورين وصهريجا للمياه ليروى العطاش ، وعلى أحد بابى الصهريج : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد . خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين ، ملك الإسلام والمسلمين خليفة أمير المؤمنين ، عمَّر هذا الصهريج الملك على بن الناصر العادل المظفر [١] .

واهتمامه بتعمير سيناء لفتة ذكية تشهد ببعد نظر ، وهو جهد مشكور يعين على اجتياز شبه جزيرة سيناء بأمان .

وفى وقتنا الحاضر تنبه المسئولون إلى ضرورة تعمير هذا الجزء الغالى من أرض مصر ، بعد أن استبد به العدو الإسرائيلى فترة من الزمن وعزلوه عن مصر حتى استرده الجيش الباسل فى معركة بطولية فى العاشر من رمضان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف . .

وأصبح من الضرورى تعميرها لتحول مستقبلا ضد أطماع هذا العدو الغادر .

واهتم صلاح الدين بتعمير جزيرة الروضة والجيزة ، وبناء المقاييس على النيل ، وحفر الترع .

وقد أنشأ المارستان بمدينة القاهرة وهو بناء ضخم يعد من أضخم المستشفيات التى بنيت فى تاريخ مصر ، وجهزه لاستقبال المرضى وعلاجهم بمختلف أنواع العلاج ، وإقامة من يحتاج إلى الإقامة منهم ، فقد جُهِّز بأسرة فى قاعات واسعة صحية ، كما أقيم به جناح خاص بالنساء .

وأقيم به جناح خاص للعلاج العقلى ، وعزل عن بقية أجنحة المستشفى وزود بشبابيك وضع عليها حديد ليشاهد المرضى من يريد الاطلاع عليهم وتفقد أحوالهم .

وكان صلاح الدين يقوم بنفسه بمراقبة أحوالهم والاطمئنان عليهم .

---

(١) صلاح الدين ـ عبد الله ناصح علوان ص ١٦٨ .

التجديد الذى أدخله صلاح الدين فى مجال التعليم

لقد أدخل صلاح الدين نظاما جديدا فى مجال التعليم فقد كان العلم يلقى فى المساجد ، ويلتف المتعلمون حول شيوخهم فى حلقات حول أعمدة الجامع يتلقون العلم وهكذا كان الشأن فى المسجد العتيق ـ مسجد عمرو بن العاص ـ والجامع الأزهر ، وغيرهما من المساجد المنتشرة فى ربوع البلاد وعواصم المقاطعات حتى أنشأ صلاح الدين المساجد فى مصر .

وقد سبق صلاح الدين فى ذلك السلاجقة فقد أنشأ نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى المدرسة النظامية فى بغداد ، وجعل التعليم فيها بالمجان ، وفرض لطلابها الأرزاق ، وكان لها شأن كبير فى العالم الإسلامى وكان من أساتذتها حجة الإسلام الغزالى ، وأبو اسحاق الشيرازى وغيرهما وتخرج فيها أئمة علماء من أمثال العماد الأصفهانى وكمال الدين الأبنارى وغيرهما وسار على دربه نور الدين زنكى الذى أنشأ مدارس فى دمشق وحلب وحماة وبعلبك ومنبج واقتفى أثره تلميذه النابه صلاح الدين الأيوبى حين تولى الوزارة فالملك فأنشأ فى مصر والإسكندرية بعض المدارس التى أشرنا إليها ، وجاء فى رحلة ابن جبير وقد طاف بلاد الإسلام فى أثناء القرن السادس الهجرى أنه قد رأى عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد (١) .

فالتجديد الذى أدخله صلاح الدين هو تطوير ما بدأه غيره بالنسبة للتوسع فى إنشاء المدارس وتنظيمها ، والوقف عليها وتفريغ الطلاب والأساتذة لطلب العلم والتعليم، حتى لا يكون الطالب أو شيخه مشغولين بطلب الرزق عن العملية التعليمية .

وطور منهج التعليم فأصبح يشمل إلى جانب حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف أصول الحساب ورواية الشعر والأدب . وكان الصبيان يتعلمون أداء الصلاة فى جماعة وطرق الابتهال إلى الله والخشوع فى صلاتهم وهذا لون من التصوف لم يكن الفاطميون قبلهم يعنون به .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى ج ٢ ص ١٩ ، العصر العباسى ، .

وأمر صلاح الدين بتنظيم العمل فى شتى المدارس التى أنشأها على اختلاف تخصصاتها فى أمورالعلم والدين ، فكان القائمون بالتدريس فيها ينقسمون إلى قسمين:

الفريق الأول منهما هو فريق المدرسين ، وهم الأساتذة المتبحرون فى علومهم .

والفريق الثانى هم المعيدون الذين يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ فى أذهانهم ولا يذهب عن أفهامهم .

وكان المعيد لا يبخل بوقته فى سبيل إفهام العاجزين عن الفهم فى سعة صدرٌ ، وكان يجلس فى العادة إلى جانب المدرس حتى إذا انتهى المدرس من درسه قام المعيد بواجبه (١) .

وهذا هو أحدث نظام تسير عليه جامعات العالم الآن . . .

وكانت المدارس تلحق بها مكتبات كما رأينا فى مدرسة القاضى الفاضل وقد راجت سوق الكتب فى زمان صلاح الدين ، وإن كان بعض النقاد حسبوا عليه التفريط فى مكتبة العاضد . .

ولكن الرد على ذلك ميسور ، فإن هذه المكتبة كانت حافلة بالفكر الشيعى ، وقد أراد أن يبطل هذا الفكر ليحل محله الفكر السنى .

اهتمامه بناحية العقيدة

كان لوجود الخلافة الفاطمية أكثر من قرنين أثر ـ من غير شك ـ فى أفهام بعض الناس ، وإن كان المصريون ـ كما سبق أن قلنا ـ ظلت عقائدهم راسخة لم تمل عن حب أصحاب النبى ﷺ وآله ومازالوا يكنون للخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين كل حب وولاء .

ولعل الأثر الذى تركه المذهب الفاطمى هو الاحتفالات التى أذاعها الفاطميون فى مناسبات مختلفة . وهذا تأثير طبيعى لأنه يوافق ميول النفس وانجذابها إلى مظاهر البهجة والفرح .

---

(١) صلاح الدين بطل حطين ـ عبد الله ناصح علوان ص ١٧٣ .

ومع ذلك فقد اعتنى صلاح الدين بالمحافظة على روح الدين وتطهير النفوس من المعتقدات الباطلة التى ربما تكون قد تسربت إلى بعض الناس وخاصة من كانوا يدينون بالولاء للبيت الفاطمى .

أسباب نجاح صلاح الدين فى ذلك

ولعل الذى ساعد صلاح الدين فى القضاء على آثار العقيدة الفاطمية فشل الفاطميين فى مواجهة الصليبين ، وجهلهم فى فهم حقيقة الحركة الصليبية .

ولذلك أدى نجاح صلاح الدين فى محاربة الصليبيين إلى نجاحه أيضا فى نشر المذهب السنى ومحاربة التشيع .

وقرن صلاح الدين ذلك بتقريب علماء السنة الذين كانت لهم مهمات أخرى هى شحن روح الحماسة فى نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبين .

ومن أولئك العلماء السنية خرج أرباب الأقلام الذين تولوا الوظائف العليا فى الدولة الأيوبية ، وخرج القضاة ، والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات دروسهم فى أروقة المدارس السنية التى انتشرت فى كل مكان وغالبا ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على عامة الناس وكان صلاح الدين نفسه ـ كما علمنا ـ شديد الكلف بعلوم الدين ، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء [١] .

قضاؤه على المؤامرات

وقد قضى على المؤامرات التى حدثت من أولئك الذين أضرت به حكومة صلاح الدين وأذهبت ما كانوا يتمتعون به من جاه وسلطان واستغلال .

على أن للغلاة أذناباكانت تنتهز الفرصة ، ففى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وبعد فتح القدس ، خرجت طائفة من الروافض فى مصر فى محاولة يائسة لإعادة دولة الفاطميين ، أو على الأقل إعادة مبادئها التى كانت تدين بها واغتنموا فى ذلك غيبة

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ٢٢٠

الملك العادل عن مصر ، فقد كان عند أخيه صلاح الدين فى الشام ، واستخفوا بأمر العزيز عثمان بن صلاح الدين . فبعثوا اثنى عشر رجلا ينادون فى الليل : يا آل على ، يا آل على . .

وقد كان فى ظنهم أن الناس يستجيبون لهم ، ولكن أحدا لم يحرك ساكنا ، ولم يلتفت إليهم أحد . وقبض على هؤلاء ، وقيدوا وحبسوا . .

وبلغ ذلك صلاح الدين فاهتم له ، وكان القاضى الفاضل عنده ، فقال له : أيها الملك ينبغى لك أن تفرح ولا تحزن حيث لم يصغ إلى اولئك الجهلة أحد من رعيتك ، ولو أنك بعثت جواسيس من قبلك يختبرون الناس لسرك ما يبلغك عنهم ، فسرى عنه ما كان يجد ، وكلفه العودة إلى مصر ليكون له هناك عينا وعونا [١] .

وهذا يدل على صحة ما ذكرناه من أن الله تعالى حرس عقائد المصريين وحفظها من الزيغ والانحراف ومازال بحمد الله يحفظها ويرعاها بفضله وكرمه .

إصلاحات اجتماعية واقتصادية

ولم تقتصر إصلاحات صلاح الدين على النواحى العمرانية والتعليمية والحربية ولكنها تناولت مختلف الاتجاهات . .

وربما يكون فى مقدمة أسباب الإصلاح الاجتماعى تخفيف أعباء المعيشة عن كاهل الرعية ، ولا شىء يثقل الكواهل مثل الضرائب والمكوس التى كانت تفرض على الشعب دون مراعاة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية وقد أبطل صلاح الدين ذلك تماما . . فتنفس الناس الصعداء ، وشعروا أنهم ينتمون فعلا إلى دولة تعمل حسابهم ، وترعى أحوالهم ، وترفق بهم ، وتخفف عنهم .

ولقائل أن يقول : وكيف تقوم الدولة بإصلاحاتها المختلفة التى يتطلبها الشعب من إنشاء المرافق ومد الطرق واقامة الجسور وشق الترع وبناء المدارس والمستشفيات وغير ذلك من وجوه المنافع بدون ضرائب تجبى ؟

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣١ .

والجواب على ذلك أنه اكتفى بموارد الدولة الأخرى . فقد وضع يده على كنوز الفاطميين وكانت كثيرة لا تحصى فلم يصنع مثلما كان يصنع السابقون من حيث توزيع هذه الأموال على الموالين وعلى اصطناع النفوذ وشراء الذمم ، بل سلّ بها السخائم ، وطيب بها الخواطر ، وأقام بها المشروعات النافعة .

وكانت الجزية التى تؤخذ من الذميين فى نظير حمايتهم موردا آخر من موارد الدولة ، وضع فى مصلحة البلاد والعباد .

وكانت الفدية التى تؤخذ من أسرى الحروب موردا آخر من موارد الدولة .

وهناك الغنائم التى كانت تغنم من الحروب ، وما أكثر الحروب كما رأينا ، وهناك الخراج الذى شرعه الله على أصحاب الأراضى التى فتحت صلحا .

هذه هى موارد الدولة التى كان يستغلها صلاح الدين فى إقامة المشروعات المختلفة من إقامة القلاع أوتحصين البلاد أو شق الترع أو إقامة الجسور أو بناء المرافق وغير ذلك دون أن يكبد الرعية أو يرهقها بفرض الضرائب .

وقد ترك الباب مفتوحا للمحسنين الذين يريدون أن يدخروا لأنفسهم أثرا باقيا لإقامة مشروعات نافعة فى تشييد المدارس والمساجد ودور العلاج ومأوى الأيتام وغير ذلك ، وهذا طريق من طرق تخفيف الأعباء عن كاهل الدولة .

وقد اعتنى صلاح الدين بالتجارة وشجع عليها وفتح لها أسواقا ونظمها وجمال السوق ونظامه يكون له أثر فى رواج التجارة وإقبال البائع والمشترى على السوق . ويعود ذلك أثره اجتماعيا على الشعب . فإذا شعر الشعب بالرخاء هدأت نفسه ، واستقر وجدانه ، وأقبل على عمله بهمة ونشاط وترتب على ذلك كله آثار جليلة .

وقد يكون من مظهر التقدم الحضارى للدولة عنايتها بأسواقها ، وقد سبق صلاح الدين فى هذا المضمار .

اقرأ ما كتبه الرحالة ابن جبير فى وصف سوق حلب ـ فى أيام السلطان صلاح الدين ـ حين مرّ بها . قال : وأما البلد ـ يعنى حلب ـ فموضوعه ضخم جدا ، حفيل

التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فكأنها فى ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا (١) .

ويقول فى وصف أسواق دمشق : وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما وأبدعها وضعا ، ولا سيما قيسارياتها (٢) .

ووصف « ناصر خسرو » فى كتابه « سفر نامه» فيما يذكره الأستاذ عبد الله ناصح علوان ــ عن سوق مدينة طرابلس فى عهد صلاح الدين : « إنها بلد جميل ، حوله المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارنج والموز والليمون ، وبها مغازل ذات أربع طوابق أو خمس أو ست وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة ، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين ، وفى وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف النقش حصين ، وفى ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام فى وسطه فوارة من النحاس الأصفر ، وفى السوق مشرعة ــ مورد للماء ــ ذات خمسة صنابير ، يخرج منها ماء كثير ، يأخذ الناس منه حاجاتهم (٣) .

لقد سبق صلاح الدين رجال عصرنا فى اهتمامهم بالأسواق ، لأنها تنقل الناس نقلة حضارية كبيرة ، وتعلمهم كيف يبيعون ويشترون فى مكان نظيف آمن منظم ، ييسر عليهم أمورهم ، ويوفر عليهم وقتهم وجهودهم ، ويضمن فيه كل ذى حق حقه .

وقد نهضت فى ظل صلاح الدين بعض الصناعات مثل صناعة السلاح الذى استدعت حاجة الجهاد إليه وصناعة المنسوجات بأنواعها قطنية وحريرية وكتانية وغيرها ، وماذلك إلا للرواج الاقتصادى الذى عم البلاد بعد إبطال المكوس ووضع الضرائب .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٧٨ ــ ط دار التحرير ــ ومستوفز : متعجل .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٣) صلاح الدين ــ عبد الله ناصح علوان ص ١٧٦ .

وظهرت صناعة الورق وكان فى طرابلس مصنع للورق وانتشرت صناعة الخزف والزجاج والسفن والأساطيل وغير ذلك .

وقد أشار إلى عناية صلاح الدين بصناعة الورق ناصر خسرو فى كتابه « سفر نامه » حيث يقول : ويصنعون فى الأسواق الورق الجميل . وهو يشير بذلك إلى سوق طرابلس ، وأن هذه الصناعة كانت فى هذه المدينة .

ويعتبر العرب من أسبق الأمم فى صناعة الورق ، يقال : إن هارون الرشيد أول من صُنِع الورق فى عهده ، فقد استنبطه العلماء من الكتان والقطن . .

وهذا تقدم علمى صناعى لا شك فيه . ومن السبق أيضا أن يستخدم الورق فى النقود ، فقد جاء فى كتاب الروضتين لأبى شامة أن نور الدين زنكى اضطر بسبب الحروب الصليبية أن يصدر فى شمالى سوريا عام ١١٤٧ م نقودا من الورق من فئة الدينار .

وقد ذكر الدكتور الرمادى أن العالم « كارايشك » الذى اعتمد على كتاب الروضتين فى هذه المعلومة أنه لا يمكن استعمال الورق فى النقود بدون أن يكون هناك آلات طباعة ومعنى ذلك أن العرب تقدموا أيضا فى ميدان الطباعة إلى جانب تقدمهم فى صناعة الورق .

وقد أخذ الصليبيون عن العرب هذه الصناعة ونقلوها إلى بلادهم ، وهذا فضل آخر يضاف إلى أفضال العرب على أوربا ، حتى أنه لم يجىء القرن الثالث عشر الميلادى حتى استخدم الورق فى اسبانيا ، وظهر فى مدينة قشتالة ، ومن ثم انتقل إلى فرنسا وايطاليا وانجلترا وألمانيا . .

والدليل على مهارة العرب فى صناعة الورق ما تركوه من مخطوطات نفيسة خلفوها فى ورق مصقول متين مزخرف بأجمل ألوان الزينة والزخرفة [١] .

ويتصل بالأثر الأجتماعى الذى تركته حكومة صلاح الدين فى الشعب تغير

(١) صلاح الدين ـ د/ جمال الدين الرمادى ص ٧٥ .

العادات والسلوكيات ، وقد ظهر ذلك فى ناحية إبطال الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تقام فى مناسبات متعددة .

كما ظهر فى أزياء الناس وملابسهم ، فقد اتسمت بالبساطة فى عهد صلاح الدين وكانت قبل ذلك غاية فى البذخ ، ذلك أن الفاطميين كانوا قد عرفوا « البذخ فى صورة زاهية براقة ، وكانت الحياة تنم عن الرفاهية والثراء والأبهة الشرقية التى لاحظتها السفارة التى كانت برئاسة « وليم الصورى » والتى أرسلها « أمورى » ملك بيت المقدس للتفاوض مع الخليفة العاضد الفاطمى ، والتحالف معه ضد شيركوه وصلاح الدين .

كما تجنب صلاح الدين ذلك البذخ الذى عرف به خمارويه فى الدولة الطولونية ، حيث شيد بيت الذهب الذى كان من أعجب مبانى الدنيا ، وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب طليت جدرانه بالذهب المحلى باللازورد »[1] .

وتعليل حياة البساطة التى أصبح عليها الناس يرجع إلى سببين : أحدهما تواضع صلاح الدين نفسه ـ كما قلنا ـ وكان لا يميل إلى المظهرية فى الثياب والركوب والإقامة . والناس على دين ملوكهم كما يقول المثل المشهور .

والثانى أن الناس انشغلوا بالجهاد عن الزينة والإسراف فى مظاهرها . وقد رأينا أنه كان لا يلبس إلا ما يحل له من الكتان والقطن والصوف .

وكان من يجالسه لا يعلم أنه يجالس سلطانا لتواضعه الشديد .

وعلى كلٍّ فعلى الرغم من ذلك فقد ظلت بعض المراسم القديمة باقية لصعوبة اقتلاعها بين يوم وليلة . ومن تلك المراسم بعض المواكب الدينية التى كان لابد منها كالخروج فى صلاة العيدين أو لصلاة الجمعة ، فقد كان يصاحب الخروج موكب فخم يشهد بعظمة الدولة قبل أن يشهد بعظمة السلطان ، وهذا من ميراث الخلافة الفاطمية . ولكننا نسأل : كم مرة احتفل السلطان صلاح الدين احتفالا كبيرا فى أثناء خروجه لصلاة العيد ؟

---

(١) صلاح الدين الأيوبى د/ جمال الدين الرمادى ص ٥٩ .

إنها مرات تعد على أصابع اليد الواحدة . فقد شغله الجهاد عن هذه المظهرية وادخر الأموال التى تنفق فى مثل تلك المظاهر لغاية الجهاد ومتطلباته وما أكثرها !

ومما يذكر لصلاح الدين بالفضل أنه أبطل ما كان شائعا قبله من مجون وخلاعة ولاسيما فى اثناء الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تقام كثيرا ، ويلتمس لإقامتها الفرص المختلفة ، ومن ذلك على سبيل المثال ما يحكيه الدكتور جمال الدين الرمادى نقلا عن مصادره قال : « كانت المنكرات ظاهرة فيه ـ أى فى عيد النوروز ـ ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ، ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على بيوت الأكابر ، ويقنع بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهى ، وترفع الأصوات ، وتشرب الخمور فى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالقاذورات ، فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فإما فدى نفسه وإما فضح . أبطل صلاح الد ين هذه المظاهر الفاسدة التى شاعت فى عيد النوروز ، التى وصفها المقريزى فى خططه متعرضا لما كان يحدث فى الدولة الفاطمية ، ومكن الناس من الحياة البريئة الصافية ، وأحاطهم بالحدائق والجنات [١] .

عنايته بالزراعة

واعتنى صلاح الدين بأمر الزراعة ، وشجع على شق الترع والمصارف وإقامة الجسور ، وشجع الناس على زراعة الحدائق والبساتين والحبوب المختلفة ، وكان من أثر ذلك أن كثرت أنواع الفواكه ، وانخفض ثمن الخبز انخفاضا ملحوظا نتيجة للسياسة الزراعية الحكيمة . وكأنه قد علم أن الأمة المتقدمة هى التى تستنبت ما تأكل وتصنع ما تلبسه حتى لا تكون عالة على غيرها من الأمم التى تتاجر فى أرزاقها وتملك بذلك ناصيتها .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

ومن حسن حظ صلاح الدين أن جعله الله ملكا فى أمة أفاء الله عليها من نعمة خصوبة الأرض والغنى فى المياه ، فدولته يجري فيها النيل وبردى ودجلة والفرات إلى غير ذلك من مختلف الأنهار والعيون والجداول والبحيرات التى سرعان ما تتحول الوديان حولها إلى جنات وارفة ، وحقول ناضرة ، ومدن عامرة ، وبساتين زاهرة تفوح بأزكى الأرارواح وتزهو بأبهى الأزهار وأطيب الثمرات .

ومن أوصاف الرحالة للمدن فى عهد جمال الدين يقول ناصر خسرو عن مدينة طرابلس : إنها بلد جميل حوله المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والموز والليمون ، وبها منازل ذات أربع طبقات أو خمس أو ست ، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين . فى وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين . .

القضاء على الإقطاع

ومما يحمد لصلاح الدين الأيوبى أنه قضى على الإقطاع الذى كان موجودا فى العصر الفاطمى ، وبذلك حطم استقلال أمراء الإقطاعات وقوى الحكومة المركزية .

وكان لذلك أكبر الأثر فى نشاط الحالة الاقتصادية فى البلاد (١) .

كما ازدهرت الزراعة أيضا وبخاصة بعد أن رأى الفلاحون اهتمام الحكومة بتطهير الترع وإقامة الجسور وتنظيم وسائل الرى ، واستمر ذلك فى عهد الحكام الأيوبيين ، حتى كان السلطان الكامل يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات وغير هذا من الأعمال الخاصة بالرى ، ولم تستطع الحروب أن توقف أو تؤثر على النشاط الزراعى ، لأن الحروب كانت تتوقف فى سوريا شتاء ، وهو موسم الزراعة فى مصر .

---

(١) مصر فى العصور الوسطى د/ على إبراهيم حسن ص ٤٤٩ .

أولاد صلاح الدين

ترك صلاح الدين ذرية كبيرة تولى بعضهم الملك ، وتركوا أثرا طيبا وبهم وبأولاد عمومتهم امتدت المملكة الأيوبية ما يقرب من قرن من الزمان من سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ـ حتى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

ذكر الرواة أنه كان له من الأولاد سبعة عشر ذكرا وابنة واحدة ، مات من هؤلاء ولد فى حياته .

وكان صلاح الدين يفرح بأولاده ، ويسر حين يبشر بمولود جديد ، وحين كان فى الشام يحارب الصليبين وضعت زوجة له فى مصر غلاما ، فأرسل إليه القاضى الفاضل يهنئه به ، ويقول له فى كتابه :

« إنه ولد لسبع بقين من ذى القعدة ، وهذا الولد المبارك هو الموفى لاثنى عشر ولدا ، بل لاثنى عشر نجما متوقدا ، فقد زاد الله فى أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجما ، ورآهم المولى يقظة ، ورأى تلك الأنجم حلما ، ورآهم ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجودا ، وهو قادر سبحانه أن يزيد جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا »

ولعل العماد الأصفهانى هو الذى يعطينا الصورة الصحيحة لذرية صلاح الدين فقد ذكر فيما يروى أبو شامة قال : كنت فى بعض الليالى عند السلطان فى آخر عهده ـ كان ذلك فى سنة ٥٨٨هـ عند المقدس ـ وجرى ذكر أولاده ، واعتضاده بهم واعتداده ، فقلت له : لو عرفت أيام مواليدهم فى أعوامها ، لأنشأت رسالة على نظامها ، فذكر لى ما أثبته على ترتيب أسنانهم وما صورته :

* الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على ، ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمس وستين وخمسمائة .

* العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ولد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين .

* الظافر أبو العابس خضر مظفر الدين ، ولد بمصر فى خامس شعبان سنة ثمان



وستين ، وهو شقيق الأفضل .

* الظاهر أبو منصور غازى غياث الدين ،ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين .

* المقر أبو يعقوب اسحاق فتح الدين ، ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبعين .

* المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين ، ولد بدمشق فى ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ، وهو شقيق العزيز .

* الأعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين ، ولد بمصر فى ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وهو شقيق العزيز .

* الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين ، ولد بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر .

* المفضل أبو موسى قطب الدين ، ثم نعت بالمظفر ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الأفضل .

* الأشرف أبو عبد الله محمد عزيز الدين ، ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

* المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين . ،لد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وهو شقيق الأشرف .

* المعظم أبو منصور توران شاه فخر الدين ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين أيضا ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وهى السنة التى خرب فيها العدو التترى مدينة حلب .

* الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين ، ولد فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعز .

* الغالب أبو الفتوح ملكشاه نصر الدين ، ولد بالشام فى رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم .



* المنصور أبو بكر وهو شقيق المعظم أيضا ولد بحران بعد وفاة السلطان .

فهؤلاء خمسة عشر ولدا ، ولم يذكر هنا ولدين هما عماد الدين شاذى لأم ولد ، ونصرة الدين مروان لأم ولد أيضا .

وأما البنت فهى مؤنسة خاتون . تزوجها الملك الكامل محمد ابن عمها الملك العادل

وقد توفى للسلطان أولاد فى حياته منهم الملك المنصور حسن ، والأمير أحمد رثاه شاعر دمشقى بقوله :

أى هـــــلال كُسِفا وأى غـصـن قـصـفـا

كان سراجا قد طـفا علـى الـورى ثـم انطفا

لم يركب الخيل ولم يـقـلـدوه مـرهـفـا

قل للنحاة : ويحكم أحمدكم قد صرفا

صبرا صلاح الديـن يارب السماح والوفا [1]

من تولى الملك من أولاده

جاء خلفاء صلاح الدين على غير شاكلته ، لقد أدت وفاته إلى تفسخ دولته ولقد فرح صلاح الدين بأولاده لأنه توسم فيهم امتداد ملكه واتساع حياته . ولكنهم أخلفوا أمله فيهم . وهذه سنة الله فى كونه وربما كان صلاح الدين قد تنبه إلى ذلك حين قال لأخيه الملك العادل فى القلعة ذات يوم : أنا نجيب لا يكون لى أولاد نجباء . وقد ذكرنا ذلك .

لقد تنازع ورثة صلاح الدين على الخلافة فى المملكة العظيمة التى جاهد فى سبيل تكوينها وجاهد بها الصليبين حتى دحرهم .

وأصبح التوتر الذى ساد العلاقات بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبى الذى كان يشغل حيزاً ضيقا من أرض فلسطين ولبنان الحالية ، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا ، وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية التى أصبحت

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ج ١ قسم ٢ ص ٧١١ .



عاصمتها عكا بفترة سلام قاربت السنوات العشر ، وهى فترة كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التى مرت بهم فى حياة صلاح الدين [1] .

تولى الملك العزيز عماد الدين بن صلاح الدين عرش مصر خلفا لأبيه سنة ٥٨٩هـ وكان شابا فى الحادية والعشرين . وكان يحكم مصر نيابة عن أبيه فى حياته فى أيام الحروب الصليبية .

وكان أخوه الأكبر الأفضل يحكم دمشق ، وكان الأفضل شابا مستهترا منغمسا فى اللهو والشراب فلم يكن كفئا لهذا المنصب الخطير الذى تولاه وقد حدث نزاع بين الأخويين انتهى باستيلاء العزيز على دمشق وخلع أخيه الأفضل عنها .

وتوفى العزيز سنة ٥٩٥هـ وعهد بالسلطنة بعده لابنه الملك المنصور وهو طفل فى التاسعة من عمره .

وهذه الوراثة للحكم سنّة سيئة ابتدعها الأمويون ، واتبعها من جاء بعدهم وقد تركت آثاراً سلبية فى الحكم والحياة الإسلامية وذلك بتولى الأطفال الحكم وهم فى سن لا تؤهلهم لذلك ، والحكم مسئولية كبرى تحتاج إلى تجربة وخبرة وبعد نظر وذكاء وفطنة وصلاح وتقوى وحسن تقدير وقوة تدبير .

وكانت مدة حكمه نزاعا متواصلا بين عمه الأفضل وعم أبيه العادل لأن كلا منهما كان يطمع فى العرش .

وانتهى الأمر بأن تولى العادل الحكم سنة ٥٩٦هـ .

وكان العادل أعظم سلاطين الأيوبيين بعد أخيه صلاح الدين ، وقد اكتسب خبرة طويلة من طول كفاحه بجانب أخيه فى حروب الصليبيين ، وهو الذى أبرم الصلح معهم ، ووقع مكان أخيه على وثيقة هذا الصلح .

ولم يسلم حكم العادل أيضا من منغصات بسبب النزاع الدائم بينه وبين أولاد أخيه .

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ١٤٦ .



حتى توفى العادل سنة ٦١٥هـ وتولى بعده ابنه الملك الكامل ناصر الدين ، وبعده جاء ابنه العادل الثانى سنة ٦٣٥ هـ .

ثم جاء بعده الملك الصالح أيوب نجم الدين سنة ٦٣٧هـ .

ثم الملك المعظم توران شاه بن أيوب سنة ٦٤٧ ... وانتهت الدولة الأيوبية به ..

لقد انتهت الدولة الأيوبية بعد أن نالت على يد صلاح الدين كل إعزاز وتقدير لامن المسلمين فحسب ، بل من الغربيين أنفسهم ..

لقد اهتم صلاح الدين كما رأينا بتوحيد صفوف المسلمين وجمع شتات الأمة الإسلامية ، فى الوقت الذى جاء خلفاؤه من بعده ليفرقوا ما جُمع ، ويبددوا ما التأم ، وكان ذلك هو السبب فى سقوط دولتهم ليتربع على عرشها المماليك الذين مهدت لهم الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب .

فإنها استطاعت تدبير المملكة بعد موته تدبيرا صالحا حتى هزمت الصليبيين فى موقعة المنصورة الشهيرة ، وأسرت ملكها لويس التاسع وسجنته فى دار ابن لقمان حتى افتدى نفسه . وفى ذلك يقول الشاعر جمال الدين بن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قئول فصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عباد لدين المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحَيْنُ إلى عسكر	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لاترى منهم	إلا قتيلا أو أسيرا وجريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح(١)

وكانت شجرة الدر بعد وفاة الملك الصالح قد تزوجت من عز الدين أيبك التركمانى، وتنازلت له عن المملكة التى كانت قد وليتها بعد وفاة زوجها الملك الصالح

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ص ٧١ .



و خطب باسها على المنابر . ولكنها ماتت بعد ثمانين يوما من حكمها[1] .

وكان هؤلاء المماليك قد أوجدهم الملك الصالح نفسه قبل أن يموت فإنه كان قد استكثر من شراء المماليك ليستظهر بهم فى دولته ، وبنى لهم قلعة فى الروضة بقرب المقياس ، وأسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وجعل حول القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد .

وهكذا صار المماليك ملوكا ، وهذا حكم الله الذى بيده الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

* * *

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ١٦٦ .

صلاح الدين فى الأدب العربى والغربى

لقد سجل الأدب العربي تاريخ صلاح الدين فى أنصع صفحاته ، ولم يترك الأدباء والشعراء ثغرة من حياة صلاح الدين الخلقية والجهادية إلا تحدثوا عنها فى أبدع صورة وأجمل أسلوب .

وقد مر بنا فى أثناء حديثنا عنه بعض روائع الشعر التى قيلت فيه حول انتصاراته فى الحروب ، وحول جهاده وحول فتح بيت المقدس وموقعة حطين ، وحول استيلائه على حلب وعلى دمشق وعلى غيرها من القلاع والحصون ، وحول مناسبات كثيرة التمسها الشعراء فمدحوا صلاح الدين وأفاضوا فى ذلك .

لم يكن ذلك طمعا فى عطائه ، ولا رغبة فى شيء من حطام الدنيا الذى كان يسعى له الشعراء قديما ، ولكن كان حبا له ، وإعجابا ببطولته ، ولكن ليس معنى ذلك أنه كان لا يعطى ، كلا ولكنه كان يعطى ويجزل العطاء ، ولكنه ليس للشعر الذى يمدح به ، بل لأن دأبه الكرم ، وديدنه البذل والمعروف ، فهو يعطى الشعراء وغير الشعراء .

وكان صلاح الدين ميالا للأدب ، محبا للشعر ، وقد مرينا أنه كان يحفظ ديوان الحماسة لأبى تمام .

وكانت له أبيات من الشعر يستحسنها ويكثر من ترديدها من ذلك مثلا قول الشاعر ابن المنجم فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب ، فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله[1]

وربما كانت له أبيات يقولها من نظمه ، من ذلك ما قاله حين مات أبوه :

وتخطفته يد الردى فى غيبتى ... هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع[2]

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٢) كتاب الروضتين ج ١ قسم ٢ ص ٥٣٤ .



ومن شعره أيضا ما كتبه إلى بعض أصدقائه فى صدر رسالة أرسلها إليه :

أيها الغائبون عنى وإن كنتم ... فى قلبى بذكركم جيرانا

إننى منذ فقدتكم لأراكم ... بعيون الضمير عندى عيانا

ويقال : إن صديقه رد عليه بقوله :

أيها الظاعنون عنى وقلبى ... معهم لا يفارق الرظعانا

ملكوا مصر قلبى وفى هذا ... وهاتيك أصبحوا اسكانا

حبذا مهد قضينا به العيش ... فكنا بربعه جيرانا

إذ وجدنا من الحوادث أمنا ... وأخذنا من الخطوب أمانا

ورتعنا من المنى فى رياض ... وسكنا من الغانى حنانا (١)

وكان صلاح الدين يطرب للشعر الجيد ويثيب عليه ويعجل العطاء للشاعر ، وجاء فى كتاب الروضتين أن صلاح الدين كان يستهدى العماد الأصفهانى شعره مما يدل على غرام صلاح الدين بالأدب وحب لأهله ، كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء (٢) .

وكان له ذوق عربى فى نقد الشعر واستحسانه ، يذكر الدكتور أحمد بدوى فى كتابه: صلاح الدين بين شعراء عصره هذه القصة .

كتب نشو الدولة أحمد بن نفاذه أبياتا يدعوا بها العماد الأصفهانى إلى دمشق ، وقد دخل أوان المشمش ، وهو موسم دمشق المعهود ، أولها :

دعا الناس للذات مشمش جِلّق ... فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق

وجِلّق هى دمشق كما هو معروف .

قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان صلاح الدين فقال : فماذا قلت فى جوابه ؟

---

(١) صلاح الدين ـ د/ جمال الدين الرمادى ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق .

فأنشدته :

هلموا نسابق نحو مشمش جلق وثم كما نهوى على الأكل نلتقى
بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار فى لُجَينٍ مُطَرَّق

واللجين ، الفضة المذابة ، والمطرق : الرقيق .

قال العماد : فلما أنشدت السلطان هذا البيت الأخير قال : تشبيه الورق باللَجَيْن غير موافق فإن الورق أخضر .

قال : فقلت : .. : كرات نضار بالزمرُّد محدق.

فغيرا لشاعر المشبه به ليطابق المشبه [1] .

لقد كان صلاح الدين على الرغم من أصله الكردى إلا أن نشأته عربية وذوقه عربى ، فلا عجب أن يتشرب الفصاحة العربية ويحافظ على التقاليد العربية الموروثة عن العرب ، ومن ضمن ذلك إنشاد الشعر وحفظه وروايته ونقده .

وقد ألقت حول صلاح الدين ملاحم كثيرة ، ولا يخفى أنه كان فى عصر صلاح الدين كتاب كبار وأدباء لامعون من أمثال القاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى وأسامة بن منقذ وغيرهم .

وهؤلاء جميعا تحدثوا عن صلاح الدين ، ووصفوه أروع وصف ، ولم يتركوا شيئا من أخلاقه وصفاته وعاداته وأحواله إلا سجلوها بدقة وتفصيل ، ولاسيما بطولته النادرة المثال.

وقد أصبحت بطولة صلاح الدين معينا فياضا للكتاب والقصاصين فيما بعد يستمدون منها أروع المثل ، ويصوغون حولها قصصا وحكايات ، يلتمس منها القارئ الكبير والصغير معانى النبل والشهامة والتضحية والوفاء . .

بالنسبة للغربيين :

أما بالنسبة لأوربا ، فقد أصبحت سيرة صلاح الدين مضرب الأمثال فى البطولة

(١) صلاح الدين بين شعراء عصره ص ٣٧ .

التضحية والفروسية والمثل العليا .

وكانت معاملة صلاح الدين لريتشارد ملك انجلترا صورة رائعة حركت وجدان الأدباء ، وجعلتهم يصوغون حولها أساطير رائعة تهدف لإثارة المثل العليا فى ضمائر الناس .

وقد قدم لنا الدكتور عبد اللطيف حمزة نماذج من الأساطير الغربية التى صاغها أدباء وفرنسا وانجلترا .

ومن ذلك أسطوة صلاح الدين والأميرة إليانور.

وهى تتحدث عن الأميرة إليانور ــ وقد تخيلها الشاعر الذى كتب هذه القصة أنها تعلقت بالسلطان صلاح الدين ، وأعجبت ببطولته وشجاعته .

وقد كانت هذه الأميرة مصاحبة لزوجها الملك « لويس » ملك فرنسا ، وكان هذا الملك على نقيض صلاح الدين ، فقد كان كسولا مترفا بطيئا يميل إلى اللهو والشراب . فى الوقت الذى جاء فيه إلى الشرق للحرب والجهاد وضاقت هذه الأميرة بزوجها ، وحاولت أن تدفعه إلى تحقيق الهدف الذى جاء من أجله . ولكن بدون جدوى .

وأصبحت تقارن بين زوجها هذا البدين الكسول اللاهى وبين صلاح الدين النشيط الباسل الشجاع الذى يعتبر رمزا للشرف الإسلامى .

حتى وقعت أخيرا فريسة لحب هذا البطل الشجاع .

وتخيل الكاتب أن تفكيرها فى صلاح الدين أسلمها فى النهاية إلى أن تترك زوجها لتلحق به . فأرسلت إلى صلاح الدين رسولا يخبره بأنها مستعدة لتتزوجه وتعتنق دينه، وهى فى انتظار موافقته .

وتخيل الكاتب أن صلاح الدين فرح بهذا الرسول وأكرمه وأنهى إليه موافقته على طلب الأميرة .

وأمر بسفينة عظيمة أبحرت إلى عسقلان لتعود بالأميرة إليه .

وبينما هى تستعد للنزول إلى السفينة إذا بزوجها يظهر فجأة ليحول بينها وبين

اللحاق بصلاح الدين .

وسألها لماذا أقدمت على هذا العمل :

فأجابت : من أجل جبنك وبطئك وتكاسلك حتى أصبحت لا تساوى فى نظرى شيئا ، وقد سمعت كثيرا عن شهامة صلاح الدين وشجاعته ونشاطه فاحتل فى قلبى منزلة كبيرة أكبر من المكانة التى كنت تشغلها ،

هذه القصة أنشأها أديب شاعر فرنسى .

وإليكم قصة أنشأها كاتب إنجليزى هو الأديب « وولتر سكوت » والقصة بعنوان « الطلسم »

وتصور القصة صلاح الدين الأيوبى فى صورة البطل الذ ى أحبه الصليبيون جميعا لأنه خصم شريف لهم ، كان فى منتهى النبل فى خصومته ومعاركه وقد تخيل الكاتب فى قصته بعض المواقف التى أظهر فيها هذه الصورة المحبوبة لصلاح الدين .

ومن هذه المواقف التى رسمها هذا الأديب أنه صور صلاح الدين متنكرا فى صورة طبيب يتقدم إلى الملك « ريتشارد » قلب الأسد ليعالجه من المرض الذى أصابه فى أثناء قدومه إلى الشرق محاربا لصلاح الدين .

لقد تقدم إليه صلاح الدين « المتنكر فى صورة الطبيب » على أنه رسول صلاح الدين إليه ليصف له الدواء الشافى .

ورحب الملك بالطبيب ، وتناول منه الدواء الذى وصفه . وكان فى أثناء ذلك يدور حوار بين الطبيب والملك حول اقتراحات السلام بين الملك وصلاح الدين ، حتى يستريح الناس من عناء الحرب .

كما صوره أيضا فى صورة الحكم الذى يفصل فى الخصومات التى نشبت بين الأمراء الصليبيين والملك ريتشارد ملك انجلترا ، وقد رضى الجميع بحكومته بينهم وانصاعوا لأمره (١)

---

(١) راجع صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة .

إن هذه الأساطير التى حاكها خيال الشعراء والأدباء الغربيين تشير إلى مدى ما تركته شخصية صلاح الدين فى نفوسهم ، ومدى ما وصلوا إليه من إعجاب شديد ببطولته وفروسيته .

رفقاء فى الجهاد

لا ينبغى أن ننهى الحديث عن صلاح الدين دون أن نشير إلى بعض الشخصيات التى قامت بأدوار بطولية فى الحروب التى خاضها صلاح الدين ضد أعدائه ، وكان لهم أثر كبير فى اكتساب النصر الذى حققه .

وقد أشرنا سابقا إلى بعض المحيطين به الذين انتفع بآرائهم وجهودهم كالقاضى الفاضل ، وبهاء الدين قراقوش ، والعماد الأصفهانى ، والشيخ عيشى الهكارى . هؤلاء الذين لم يبخلوا بجهودهم ورأيهم وفكرهم ووقتهم فى سبيل العمل على نصرة قضية العدل والحق التى تصدى صلاح الدين لنصرتها والدفاع عنها .

ومن أبطال الحروب يجب أن نتذكر أخاه الملك العادل .

الملك العادل

هو أبو بكر محمد بن أيوب بن شادى أخو صلاح الدين . .

ولد بدمشق فى المحرم سنة أربعين ـ أو ثمان وثلاثين ـ وخمسمائة .

ودخل إلى مصر صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه ، وحين قصدوها توسم أبوه أنهم سيملكوها ، قال العادل : لما عزمت على المسير إلى مصر احتجت إلى «حرمدان» فطلبته من والدى فأعطانى ، وقال : يا أبا بكر ، إذا ملكتم مصر أعطنى ملأه ذهبا .

فلما جاء أبوه إلى مصر قال له : يا أبا بكر ، أين الحرمدان ؟

قال أبو بكر : فرحت وملأته من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئا من الذهب وأحضرته إليه ، فلما رآه اعتقده ذهبا ، فقلبه فظهرت الفضة السوداء . فقال : يا أبا بكر ، تعلمت الزَّغَل ؟؟



وربما تشير هذه القصة إلى شىء من سلوكه . المضاد لسلوك صلاح الدين وفى الواقع كان صلاح الدين نسيج وحده .

وكان صلاح الدين ينيب عنه أخاه العادل فى أثناء غيبته عن مصر بعد أن أصبح ملكا عليها .

وحين ملك صلاح الدين « حلب » جعل الملك العادل عليها وذلك فى صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

ثم ولاه صلاح الدين الكرك بدلا منها ، وأعطى حلب لولده الملك الظاهر غازى .

وتنقل الملك العادل فى حياة السلطان بين ممالك مختلفة ، وقد تم على يديه الصلح بين المسلمين والصليبيين هذا الصلح المشهور بصلح الرملة الذى سبق أن أشرنا إليه .

وقد تولى السلطنة سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ودخل مصر فى ذلك التاريخ وجلس على كرسى المملكة فى القلعة ، وخطب له فى مصر وغيرها ، وصفت له الدنيا واتسعت مملكته .

وقد قسم المملكة بين أولاده فى حياته فأعطى ابنه الملك الكامل الديار المصرية ، وأعطى ابنه الملك المعظم البلاد الشامية ، وأعطى ابنه الملك الأشرف البلاد المشرقية ، وكان ابنه الملك الأوحد ينوب عنه فى « ميافارقين » وما حولها .

وكان الملك العادل يقرب العلماء ويحبهم ، وكان معاصرا له الإمام فخر الدين الرازى صاحب كتاب التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب ، وقد ألف الفخر الرازى كتابا باسمه اسمه كتاب « تأسيس التقديس » وذكر اسمه فى مقدمته ، وسيره إليه من بلاد خراسان .

وكان نجيبا فى أولاده ، وبذلك صدق ظن أخيه صلاح الدين حين قال له ذات يوم : أنا نجيب وأولادى غير نجباء ، أما أنت فغير نجيب وسيكون أولادك نجباء . وذكرنا ذلك قبل .

قال ابن خلكان : خلف الملك العادل أولادا لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلوهمتهم ، ودانت لهم العباد وملكوا أخيار البلاد ، ونجابة الأولاد من أعظم النعم التى يمن الله بها على عبده وقد ذكر ذلك الشاعر الحكيم بقوله:

نعم الإله على العباد كثيرة — وأجلهن نجابة الأولاد

وحين امتدح الشعراء الملك العادل مدحوه بنجابة أولاده ، قال فيه الشاعر ابن عنين :

وله البنون بكل أرض منهم — ملك يقود إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله — بدرا وإن شهد الوغى فغضنفرا
متقدم حتى إذا النقع انجلى — بالبيض عن سبى الحريم تأخرا
قوم زكَوْا أصلاً وطابوا محيداً — وتدفقوا جودا وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهل — مالم يكن بدم الوقائع حُمّرا

والرجل يُسَر إذا مُدِحَ أولاده فلن يتمنى إنسان أن يكون أحد أفضل منه إلا أولاده ، وهو يريد أن يكمل بهم ما نقص فيه ، فإذا كان كاملا وهم كملة فقد جمع المجد من أطرافه، ودانت له النعمة من أقطارها . وامتدح ابن عنين الملك العادل فى القصيدة المذكورة بقوله :

العادل الملك الذى أسماؤه — فى كل ناحية تشرف منبرا
وبكل أرض جنة من عدله الصافى — أسال نداه فيها كوثرا
مافى أبى بكر لمعتقد الهدى — شك مريب أنه خير الورى
مامدحه بالمستعار له ولا — آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه — فى الفضل ما بين الثريا والثرى
لا تسمعن حديث ملك غيره — يروى فكل الصيد فى جوف الفرا

ولغير ابن عنين وهو شاعر عظيم من الشعراء قصائد كثيرة فى مدحه ولكنا ذكرنا هذه القصيدة لأن لها مناسبة يقتضى المقام ذكرها .

كان ابن عنين وهو أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر الملقب شرف الدين الكوفى ، من شعراء دمشق ، وكان مولعا بالهجاء وأنشأ قصيدة جمع فيها خلقا كثيرا من رؤساء دمشق سماها « مقراض الأعراض » ونال منهم ، فلم يعجب ذلك منه صلاح الدين المشهور بالورع والعفة والتغاضى عن هفوات الناس فنفاه من دمشق .

فلما توفى السلطان صلاح الدين ، وملك العادل دمشق ، سار ابن عنين متوجها إليه، وكتب قصيدته المذكورة بدأها بذكر دمشق وتشوقه إليها ووصف ما قاساه فى الغربة بعيدا عنها ثم امتدح الخليفة واستعطفه وأول هذه القصيدة .

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحونى فى الكرى

ثم قال فى دمشق :

فارقتها لاعن رضا وهجرتها لا عن قلى ، ورحلت لا متخيرا

أسعى لرزق فى البلاد مشتت ومن العجائب أن يكون مقترا

وأصون وجه مدائحى متقنعا وأكف ذيل مطامعى متسترا

ثم يخلص إلى المدح فيقول :

ومن العجائب أن يقيل بظلكم كل الورى ونبذت وحدى بالعرا

وقد قربه الملك العادل ووصله وخلع عليه .

وبعد أن قسم الملك العادل الممالك بين أولاده ظل يتنقل بينهم ،ويرحل من مملكة إلى أخرى ، وكان بالغالب يصيف بالشام ويشتى فى مصر ، وعاش حياة رغدة سعيدة .

وتوفى الملك العادل سنة خمس عشرة وستمائة ، كان قد بلغه أن الصليبيين يستعدون للزحف على الشام فاستعد وخرج لهم فمات فى التاريخ المذكور ، ودفن بقرية اسمها « عالقين» وهى قرية بظاهر دمشق ، ونقل إلى قلعة دمشق حيث دفن بها.

وحين بلغ الفرنج موته تركوا الشام وتوجهوا نحو دمياط حيث تمت وقعة دمياط

المشهورة فى ذلك التاريخ [1] .

مظفر الدين كوكبورى

كان من كبار الأمراء والقواد الذين أبلوا مع صلاح الدين فى الحروب الصليبية بلاء حسنا .

نشأ مظفر الدين فى أسرة تركمانية الجنس ، تتكون من أبيه زين الدين على بن بكتكين بن محمد ، وأخيه الأصغر زين الدين يوسف .

وقد شاهد مظفر الدين من أمجاد أبيه ماكان له أثره فى حياته .

فقد اشترك أبوه مع عماد الدين زنكى فى مقاومة الصليبيين ، وطردهم من إمارة الرها .

وعهد إليه عماد الدين إمارة الموصل وضبط أمورها ، وكان له أثرفى حفظ هذه الإمارة بعد موت عماد الدين لأولاده .

وقد كوفىء على جهوده فى خدمة الدولة الزنكية بأن أقطعه عماد الدين قبل موته إمارة إربل التى ورثها ابنه من بعده مظفر الدين .

ولد مظفر الدين سنة ٥٤٩ هـ فى المحرم ، ويوافق مولده بالتاريخ الميلادى ابريل سنة ١١٥٤م .

ولفظ كوكبورى تركى ومعناه الذئب الأزرق ، ولقب بالملك المعظم مظفر الدين ، واسمه الذى ذكره ابن خلكان هو : أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن بن بكتكين بن محمد الملقب بالملك المعظم مظفر الدين [2] .

اتصل مظفر الدين بصلاح الدين ، وأخلص فى خدمته ، حتى حظى عنده وتمكن منه ، وزاده فى إقطاعه ـ فوق إربل ـ الرها وذلك فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

---

(١) راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٦ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٢ .

وكانت الرها فى ذلك الوقت مع ابن الزعفران أخذها منه صلاح الدين وأعطاها لمظفر الدين .

ثم أعطاه أيضا « سيمساط » وزاد فى إكرامه له وزوجه من أخته السيدة ربيعة خاتون بنت أيوب . وكانت متزوجة قبله من سعد الدين بن مسعود بن معين الدين ، توفى عنها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

شهد مظفر الدين مع صلاح الدين وقائع كثيرة ، أبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزة ، وثبت فى مواضع لم يثبت فيها غيره من القادة والشجعان .

ومن أعظم الوقائع التى ثبت فيها موقعة حطين التى هزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة ، وحسمت الموقف لصلاح الدين وجنوده المسلمين .

لقد وقف مظفر الدين إلى جانب من وقف من المسلمين مع صلاح الدين حتى تحقق النصر والحمد لله .

وبعد فتح المقدس الذى أبلى فيه مظفر الدين بلاء حسنا ، أخذ صلاح الدين فى تصفية الساحل الشامى من الصليبيين ،وكان مظفر الدين يرافقه فى كل حملة ، ويشترك معه كل معركة .

موقف مظفر الدين فى معركة « انطرطوس »

ومر صلاح الدين وهو فى طريقه إلى جبلة بمدينة « أنطرطوس » وهى مدينة حصينة مواكبة على البحر ، ولها برجان عظيمان عن يمين وشمال ، كالقلعتين يدفعان عنها عادية المغير ، فأنزل صلاح الدين كل من ميمنة الجيش وميسرته على البرجين ، ورابط هو ببقية الجيش أمام المدينة .

وبدأ القتال بين المسلمين وحامية المدينة ، ولكن لم يلبث المسلمون أن تغلبوا على الحامية واعتلوا أسوار المدينة ، ففرت الحامية إلى البرجين وانضموا إلى من فيهما من المقاتلة ، وثبتوا جميعا للمقاومة .

وكان يقع على عاتق مظفر الدين فتح أحد البرجين ، فظل يقاتل من به من

الصليبيين دون هوادة ، ويدك أركانه بآلات الحصار حتى هدمه عن آخره ، فاستسلم بعض من فيه من المقاتلة ، وفر بعضهم الآخر إلى البرج الآخر ، فازدادت حاميته قوة ، إلا أن القائد المباشر لقتاله استطاع أن يقتحمه أيضا بعد قتال مرير (١) .

وعاد مظفر الدين إلى إربل ثم استنجد به صلاح الدين فى أثناء حصار عكا فعاد مسرعا إليه ،وجمع جيشه للقتال ، واشترك مع صلاح الدين فى جميع المعارك التى خاضها مع العدو حتى تم الصلح المشهور فى الرملة سنة ٥٨٨ هـ ١١٩٢م .

أخـــلاقـه

وكان مظفر الدين إلى جانب شجاعته الفائقة ، وإقدامه النادر كريما خيِّراً ، قال ابن خلكان عنه : كان له فى فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل فى ذلك فعله، لم يكن فى الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة ، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج فى عدة مواضع من البلد ، حيث يجتمع فى كل موضع خلق كثير يفرق عليهم فى أول النهار ،وكان إذا نزل من الركوب يكون قد اجتمع عند الدار جمع كثير فيدخلهم إليه ويدفع إلى كل واحد منهم كسوة على قدر الفصل من الشتاء أو الصيف ، ومع الكسوة شيء من الذهب .

وبنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان ، جمع فيها هؤلاء وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم ، وكان يدخل إلى كل واحد منهم فى بيته ويتفقده بشيء من النفقة ، ويسأله عن حاله ، ثم ينتقل إلى الآخر وهكذا حتى ينتقل إليهم جميعا ، وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم وبنى دارا للنساء الأرامل ، ودارا للصغار الأيتام ، ودارا للملاقيط رتب فيها جماعة من المراضع ، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه ، وأجرى على كل دار ما يحتاجون إليه .

وبنى « بيمارستان » لاستقبال المرضى وعلاجهم خصص له الأطباء وكان يتفقد وكان يتفقد أحوالهم بنفسه .

---

(١) مظفر الدين كوبكورى ـ عبد القادر أحمد طليمات ص ١٥٩ ، ص ١٦٠ ـ أعلام العرب .

وبنى دارا للضيافة ، وبنى مدارس مختلفة ودارين للصوفية كان فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين .

فك الأسرى

وكان يُسير في كل سنة دفعتين جماعة من أبنائه إلى الساحل ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتك به أسرى المسلمين من أيدى الكفار فإذا وصل الأسرى إليه أعطى كل واحد منهم عطية ، وإن لم يصلوا إليه وكل الأمناء بذلك .

وله آثار جميلة فى مختلف وجوه البر ومن ذلك ما كان يقدمه فى أثناء موسم الحج من تيسيرات ومساعداته ، وله بمكة آثار جميلة وبعضها باق إلى زمن المؤلف ــ ابن خلكان ــ وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف ، وعمر بالجبل مصانع للماء فإن الحجاج كانوا يتضررون من قلة الماء .

احتفاله بالمولد النبوى

وكان يحتفل بمولد النبى ﷺ احتفالا عظيما كل عام ، يبدأ توافد الناس من مختلف النواحى من المحرم ، حتى أوائل شهر ربيع الأول وكان ينفق فى ذلك نفقة كبيرة ، ويعد لكل الوافدين أماكن لإقامتهم ، وكان يرتب القراء والوعاظ والمعلمين لإحياء هذه الليالى بما يليق بها من التبجيل والتكريم (١) .

كان الاحتفال بالمولد النبوى من أهم المناسبات عنده وأحبها إلى قلبه ، فقد كان حب النبى ﷺ يملأ عليه نفسه .

إنه أول من فكر فى إحياء هذه المناسبة الجليلة التى توارثها الناس من بعده هذا هو مظفر الدين الذى كان بطلا فى الحروب ،ورجلا اجتماعيا من الطراز الأول ، أحبه صلاح الدين واقتدى به فى رحمته وعدله وحبه للفقراء والمساكين ،وظل كذلك حتى وافته منيته يوم الأربعاء ثامن عشر من شهر رمضان المعظم سنة ثلاثين وستمائة ، ودفن فى قلعة إربل ، ثم نقل جثمانه إلى مكة المكرمة ليدفن فى تربة كان قد أنشأها

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٦ .

لنفسه بها ، وكان قد أوصى بذلك ، ولكن الجثمان لم يصل إلى مكة فدفن فى الكوفة، بالقرب من مشهد الإمام على كرم الله وجهه (١) .

بين صلاح الدين وأسامة بن منقذ

أسامة بن منقذ شاعر فارسى مشهور ، واسمه كما ذكره صاحب وفيات الأعيان : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الملقب بمؤيد الدولة ومجد الدين .

كان أديبا عالما شاعرا ، له تصانيف متعددة فى فنون الأدب .

سكن دمشق ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل إلى مصر فبقى بها مؤمرا مشارا إليه بالتعظيم إلى أيام الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفاطمى .

ثم عاد إلى دمشق ، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق . فاستدعاه وقد جاوز الثمانين .

رسالة أسامة إلى السلطان

وكان أسامة بن منقذ كتب رسالة إلى صلاح الدين يقول له فيها :

... أعجزنى وهن السنين عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابى من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم، ورددت عليهم ما خولونى من نعمهم ، لعلمى أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير ، ولزمت دارى وجعلت الخمول شعارى ، ورضيت نفسى بالانفراد فى الغربة ، ومفارقة الأوطان والتربة إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها ، وصبرت صبر الأسير على قده والظمآن ذى الغلة عن ورده .

فنادانى إلى مكاتبه مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، جامع كلمة الإيمان ، قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والإحسان ،

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٨ .

محيى دولة أمير المؤمنين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب ، جمل الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه ، وأيدهم بماضى سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله كما أضفى لهم من الأكدار موارد فضله ، وأنفذ فى البسيطة عالى أوامره ونواهيه ، وحكم صوارمه فى أعناق أعاديه ، برحمة نقبت عنى فى البلاد ودونى الحَزْن والسهل ، بمضيعة من الأرض لا مال لدى ولا أهل .

فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملنى إلى بابه العالى بإنعامه الغامر الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان منى ، ونفق على كرمه ما كسد على من سواه من علو سنى ، فغمرنى بغرائب الرغائب ، وأهنأنى من إنعامه أهتى المواهب ، حتى رعى لى بفائض الكرم ، فأسلفت سواه من الخدم ، فهويعتدلى بذلك ويرعاه ، رعاية منَ كأنه شاهده ورآه ، فعطاياه تطرقنى وأنا راقد ، وتسرى إلى وأنا محتسب قاعد ، فأنا من إنعامه كل يوم فى مزيد ، وإكرامه كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد .

أمننى جميل رأيه حادث الحادثات ، وأخلف لى إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات ، وأفاض على من نوافل فضله بعد تأديةفرضه وسنته ، مايعجز الأعناق عن حمل أسر منته ، ولم يبق لى جوده أملا أرجو نيله ، أقضى زمانى بالدعاء به نهاره وليله (١) .

لقد أحسن صلاح الدين إليه ووصله ، وقضى وطره ، وكان أسامة بن منقذ لا يجد حرجا فى أن يثقل على صلاح الدين بمطالبه ، وكان صلاح الدين يجيب حاجته مقدرا له تاريخه الطويل فى المعارك من ناحية ، ومنتفعا بآرائه فى الوضع السياسى للبلاد من ناحية أخرى .

كان صلاح الدين يعترف بأن أسامة من أول الذين نبهوه إلى أقصر طريق للقضاء على الإفرنج، وقد عرف قيمة أن يكون هوعلى رأس مصر ، ثم يدعو إلى الاتحاد الذى تذوب فيه النعرات ، ولا يبقى إلا الشعور بحب الأرض التى درج عليها العرب بالإسلام .

---

(١) أسامة بن منقذ د/ أحمد كمال زكى ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ ـ أعلام العرب .



وحين بلغه أن السلطان انتصر على الصليبيين فى حطين كتب إليه يهنئه :

ياناصر الإسلام حين تخاذلت … عنه الملوك ، ومظهر الإيمان
بك قد أعز الله حزب جنوده … وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم … الشيطان بالإلحاد والعصيان
جردت سيفك فى العدا لا رغبة … فى الملك بل فى طاعة الرحمن
وبذلت أموال الخزائن بعدما … هرمت وراء خواتم الخزان
فى جمع كل مجاهد ، ومجالد … ومبارزومنازل الأقران
من كل من يرد الحروب بأبيض … عضب ويصدر وهو أحمر قان
ويخوض نيران الوغى وكأنه … ظمآن خاض موارد الغدران[1]

وتوفى أسامة بن منقذ بعد هذه الموقعة بقليل ، قبل أن يفرغ صلاح الدين من أمر القدس وفتحه.

وحين بلغه نبأ وفاته دمعت عيناه ، وأقبل على ابنه يعزيه ثم تقبل العزاء فيه من وجوه القوم وقال : مات اليوم شاعرالأمة وفارسها [2] ودفن فى جبل قاسيون .

خاتمة

فقد صحبنا البطل صلاح الدين فى هذه الرحلة التى استغرقت سبعة وخمسين عاما من سنة ٥٣٢ هـ ـ ١١٣٧ م حتى سنة ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م .

ورأينا كيف كان بطل هذه الرحلة رجلا عظيما باسلا ، وضع نصب عينيه غاية كريمة ، وهدفا عظيما لم يقصر فى طريق تحقيقه ، بل جعل حياته عملا متواصلا ، أسهر ليله وأتعب نهاره حتى وصل إليه.

لقد قدم للأمة الإسلامية أعظم أمل تمنته فى حياتها ، وهو تخليص بلاد الإسلام

---

(١) صلاح الدين من شعراء عصره ص ١٢٥ ، ص ١٢٦.

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٠ .

من أولئك المغامرين الذين جاءوا باسم الدين يحتلون البلاد ، ويسلبون خيراتها ، ويطردون أهلها منها بدعوى هم أبعد الناس عنها .

لقد استحق صلاح الدين لقب سلطان المسلمين وقاهر الصليبيين وبطل حطين عن جدارة . فسلطان المسلمين لابد أن يعمل من أجل المسلمين وقد عمل علي قهر الصليبيين وأذل ملوكهم ووضعهم فى قيود الأسر حتى من عليهم ، وعفا عنهم بكرمه وسماحته ومروءته ، وكان بطل حطين لأنها هى الموقعة الحاسمة التى مهدت لعودة المسلمين إلى القدس أو عودة القدس إلى المسلمين . وارتفعت فوقها راية الإسلام خفاقة مرفرفة تنادى مسلمي اليوم أن يقتفوا أثر صلاح الدين » :

إن سيرة صلاح الدين كلها مثل عليا ، فى كل جانب منها قيمة عظيمة تشهد بعظمة هذا الرجل ، وتذكر بجلال أعماله ، وجمال أخلاقه إن القدس اليوم وهى واقعة تحت سيطرة الاستعمار الصهيونى تنادى أبناء الإسلام أن عليهم واجبا مقدسا يجب أن يقوموا به نحو هذه المدينة المقدسة يستلهمونه من ذكرى بطلهم العربى الخالد صلاح الدين الأيوبى . فيعيدونهاإلى قلعة الإسلام الحصينة ، لأنها بالنسبة لهم تمثل رمزا عزيزا لا ينبغى التفريط فيه ، إنها القبلة الأولى للمسلمين فى صلاتهم ، وإنها مسرى نبيهم ﷺ وإنها ثالث الحرمين المقدسين ،وإن صلاة فى المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فى غيره عدا الحرمين الآمنين . .

إن ضراوة الاستعمار الصهيونى الآن للقدس ، لا يقل عن ضراوة استعمار الصليبيين قديما لها ، بل إن الضراوة اليوم أشد لأن الصهيونية حشدت معها صليبية العصر الحاضر ،وتآزروا معا فى سلب القدس من المسلمين . لتكون عاصمة لهذه الدولة التى زرعت فى أرض العروبة ظلما وعدوانا .

وهذا واجب زعمائنا العرب والمسلمين ليجاهدوا معا فى رد الغريب إلى أهله والحق إلى نصابه ، ونرجوا الله أن يكلل مساعيهم بالظفر وجهودهم بالنصر إنه نعم المولى ونعم النصير .

لعلى أكون قد وفقت فى عرض شخصية هذا البطل العظيم ، وإنى لأتوجه بخالص الشكر والتقدير لأصدقائى الذين أعانونى بآرائهم السديدة ، وإرشاداتهم الحميدة ، وفتحوا أمامى مغاليق البحث وأمدونى بالمراجع اللازمة التى يسرت أمامى الطريق وقربت إلى البعيد ، ووفرت على كثيرا من الجهد والوقت .

وإنى لأرجو الله أن يجزيهم عن ذلك خير الجزاء .

وإنى لأتوجه إلى الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم بنفع المسلمين فى توجيههم إلى غاياتهم العليا نحو خدمة دينهم وأوطانهم والله وحده الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

١٦ من صفر ١٥١٥هـ

٢٦ يوليو ١٩٩٤ م

* * *

من المراجع

١ ـ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة .

٢ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٣ ـ البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير.

٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

٥ ـ الخطط للمقريزى .

٦ ـ الحروب الصليبية د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

٧ ـ ماهية الحروب الصليبية د/ قاسم عبده قاسم .

٨ ـ الناصر صلاح الدين د/ سعيد عبد الفتاح عاشور .

٩ ـ صلاح الدين بطل حطين د/ عبد اللطيف حمزة .

١٠ ـ صلاح الدين الأيوبى د/ جمال الدين الرمادى .

١١ـ صلاح الدين الأيوبى بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين عبد الله ناصح علوان .

١٢ ـ صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه د/ أحمد أحمد بدوى .

١٣ ـ رحلة ابن جبير

١٤ ـ النوادر السلطانى لابن شداد .

١٥ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل .

١٦ ـ مظفر الدين كوكبورى عبد القادر أحمد طليمات .

١٧ ـ أسامة بن منقذ د/ أحمد كمال زكى .

١٨ ـ أوروبا والإسلام د/ عبد الحليم محمود .

١٩ ـ حكم قراقوش د/ عبد اللطيف حمزة .



٢٠ ـــ مصر فى العصور الوسطى — د/ على إبراهيم حسن .

٢١ ـ الحروب الصليبية وما بعدها — محمد الحسين رضا .

٢٢ ـ تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى — عمر الأسكندرى ـ الميجر . ج . سفدج .

٢٣ ـ معالم تاريخ العصور الوصطى — محمد رفعت ـ محمد أحمد حسونة .

٢٤ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور — لابن إياس .

الفهرس



















